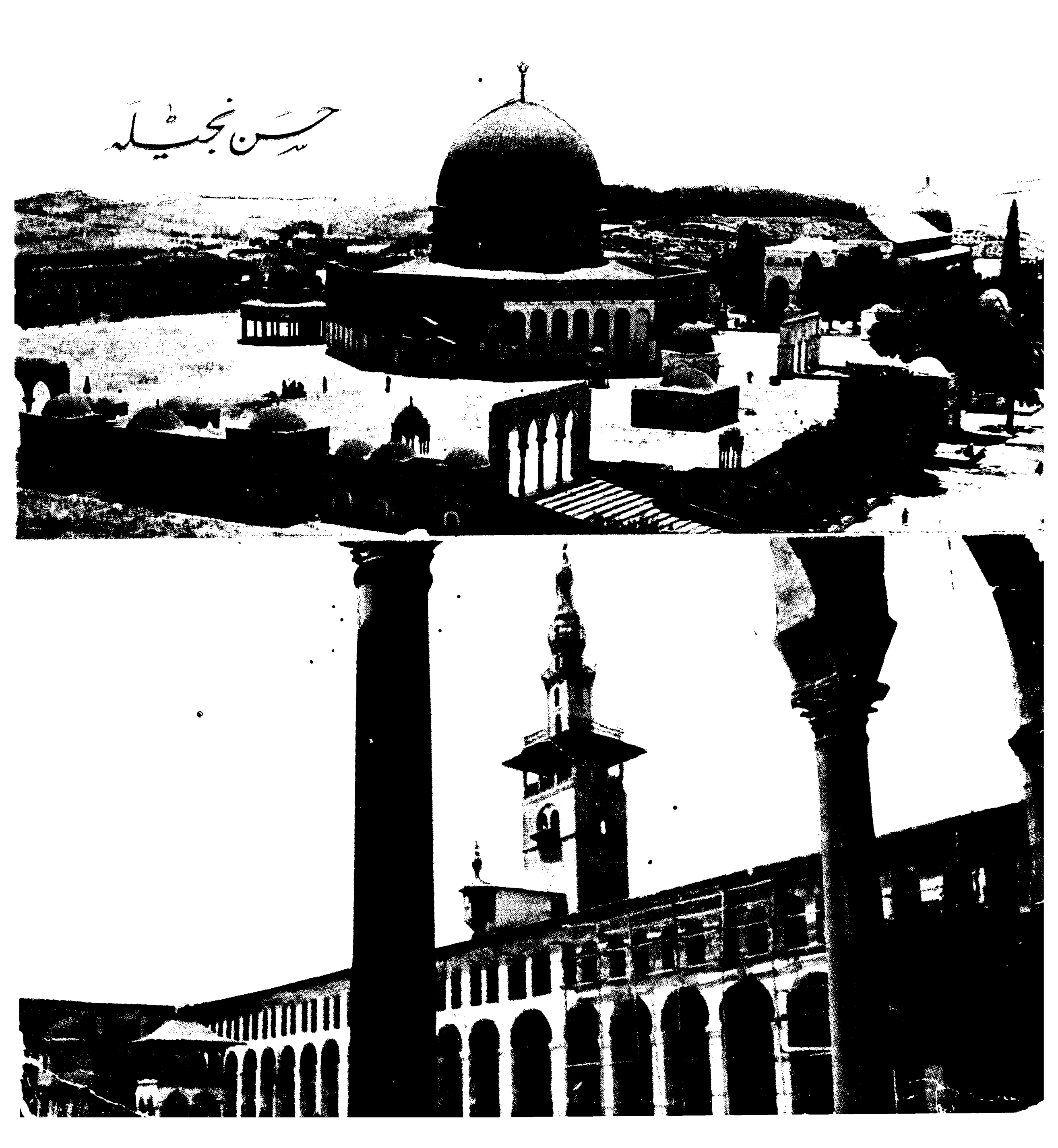
ذكرياتي في دار العروبة

حسن نجيلة



هذا الكتاب

أدب الرحلات ليس بجديد على الأدب العربي، ولست في حاجة لأعدد أمثلة من كتب الأقدمين والمعاصرين فأكثرها مقروء مشهور. والبلاد التي قمت بزيارتها وأهدتني هذه الانطباعات، ليست بذات المجاهل التي تحتاج لروّادٍ يكتشفونها، بل هي بلاد ذات حضارة عريقة وحاضر يتمثل فيه خير تمثيل مزيج الحضارات العريقة بحضارة القرن العشرين على تفاوت في القدر هنا وهناك.

ولقد تأثّرت بالجانب التاريخي أكثر من تأثري بالجانب الحضاري الماثل، لأنه - في رأيي - أدعى لتوثيق الروابط وتعميق المشاعر.

وإني لأرجو مخلصاً أن يكون هذا الكتاب محققاً بعض الشيء لهدف تنمية الروابط وتوثيق المشاعر بين أبناء البلاد العربيّة.

وحسبي حسن القصد وعند الله التوفيق.

من مقدمة الكتاب

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت


مسطورات
MUSTORAT


مسطورات
MUSTORAT

حسن نجيلة

ذكرياتي في دار العروبة

★

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اتيح لي ان ازور اكثر من مرة لبنان وسوريا والاردن وفلسطين العربية التي صارت جزءاً من المملكة الاردنية الهاشمية ، وقد تأثرت في هذه الزيارات بما شهدت من المعالم التاريخية وخاصة الجانب العربي منها والذي يجده القارىء قد احتل الحيز الاكبر من هذا الكتاب .

ان معالم الحضارة الحديثة في هـــذه البلاد – وكل البلاد - ستتبدل بتقدم الحضارة العالمية ولن تبقى على صورة واحدة ، وانك لترى مظهر هـذا التبدل واضحاً في كل مكان . ولهذا فأني لم اقف عندها طويلاً ، ولكن هـــذا التاريخ العربي الذي تلتقي عنده مشاعرنا جميعاً في كل بلد عربي لن يعتريه تبـــديل او تغيـير ، كان وسوف يظل حيــاً خالداً يرفد مشاعرنا ويقوي من اواصرنا ويؤكد لنا ان هـــذا الماضي المشترك لا بد من ان يقودنا الى حاضر مشترك ومستقبل مشترك تصنعه الشعوب العربيــة بارادتها ومحض اختيارها على النحو الذي يحقق لها العزة والكرامة .

وأدب الرحلات ليس بالجديد على الادب العربي ، ولست في حاجة لأعـداد أمثلة من كتب الاقدمين والمعاصرين فأكثرها مقروء مشهور . والبلاد التي قمت بزيارتها وأهدتني هـــذه الانطباعات ليست بذات المجاهل الـــتي تحتاج لرواد يكتشفونها بل هي بلاد ذات حضارة عريقة وحاضر يتمثل فيه خير تمثيل مزيج الحضارات العريقة بحضارة القرن العشرين على تفاوت في القدر هنا وهناك .

وكما ذكرت فأني قد تأثرت بالجانب التاريخي اكثر من تأثري بالجانب الحضاري الماثل ، لأنه — في رأيي — ادعى لتوثيق الروابط وتعميق المشاعر . وماذا تعني مثلاً — مدينة كحمص للقارىء العربي مهما افتن القلم في وصف مظاهر الحياة الحضارية فيها اذا ما خلا الحديث عنها من انهـــا تضم جدث سيف الله خالد بن الوليد ، انها في هذه الحالة تصبح ذات قربى الى نفسه اذ يشعر نحوهـــا بصلة روحية عميقة .

واني لأرجو مخلصاً ان يكون هذا الكتاب على ما به من قصور . محققـــاً بعض الشيء لهدف تنمية الروابط وتوثيق المشاعر بين ابناء البلاد العربية ، فان قصر باعي دون ذلك فحسبي حسن القصد وعند الله التوفيق .

حسن نجيله



على الطائرة

ما أكثر ما يفسد علينا الوهم حياتنا، لقد ظللت طوال عمري أنفر من الطائرة ولا أتصور نفسي معلقاً بين السماء والارض على احدى الطائرات ، ولكم حرمت من رحلات ممتعة لان الوسيلة اليها امتطاء الطائرة فأعرض عنها متمثلاً بقول شوقي : اركب الليث ولا اركبها .. !

وزاد من حدة هذا الوهم ان اكثر الذين تحدثت اليهم ممن ركبوا الطائرة كانوا يثبتون هذا الوهم في نفسي حتى اولئك الذين كانوا ينفون عنها الخطورة يتحدثون في شيء من الألم عما كان يصيبهم عند تحليق الطائرة او هبوطها او عند مرورها على اجواء بها (مطبات) حيث تهتز اهتزازات مخيفة تثير أعصاب الراكبين !.. هكذا كانوا يقولون وهكذا كنت أمعن في النفور منها حتى قيض الله لي في رحلتي هذه أن أقدم على ركوب الطائرة اذ كان لا بد من ذلك فاستخرت الله وأقدمت على التجربة وأنا كاره .. وزاد من قلقي هذا العون المضحك الذي قدمه لي صديق مخلص قبيل قيام الطائرة زعم انه أفاده من قبل، علبة صغيرة بها عدة حبوب لا أعرف حتى الآن ما اسمها . وهمس في أذني – والاهتمام يرتسم على وجهه – ان ابتلع منها حبة قبل تحرك الطائرة بنصف ساعة ! وأن أبتلع حبة ثانية عقب تحليق الطائرة مباشرة ! وسألته ما جدوى هذه الحبوب ؟ فقال : انها مفيدة جداً ، ستمنع عنك الدوار الذي يصيب

راكب الطائرة لاول مرة وتحول بينك وبين القيء الذي لا بـــد أن يحدث ..
وشعرت بحزن وأسف اذ ليس أثقـل على نفسي من ان اصاب بشيء كهذا بين
ركاب الطائرة المجهولين لدي،فألفت أنظارهم وأكون موضع تندرهم – ودسست
علبة الحبوب في جيبي وأنا أردد عبارات الشكر والامتنان .

وأعلن ميكرفون المطار عن بدء رحلة طائرتنا ، وسرت نحوهـــا بخطى
متثاقلة وأنا أحوقل واستعيذ بالله ، وأخذت مقعـــدي ، ودارت المحركات في
دوي مرتفع وأوشكت الطائرة على التحليق وارتفع صوت احدى المضيفات من
ميكرفون الطائرة لتقول : كابتن (....) يحييكم ويتمنى لكم رحلة موفقــة –
ستحلق الطائرة على ارتفاع ٣٢ ألف قدم وبسرعة خمسمائــة ميل في الساعة –
وقلت في خفوت ، يا لطيف !.. لم هذه العجلة يا كابتن ؟!..

ورويداً رويداً أخذت الطائرة ترتفـــع عن الارض حتى بلغت غايتها في
الاستواء ، وانتظرت ان يحدث لي عند قيامها مـا كثر الحديث عنـه ، ولكني
لم اشعر بشيء ابـــداً حتى خيل اليّ ان الطائرة لم ترتفع عن الارض بعد ،
واختلست النظر من النافذة .. يا للجمال الرائع .. ! لقد بدت لي المنـــازل
من علٍ أشبه بالنماذج الصغيرة او المدن التي يبنيها الاطفال .

والنيل جدول رقيق يتلوى كالافعوان – كيف حرمت نفسي من هذه الفتنة
كل هـذا العمر ؟ .. ولم يتحول نظري عن النافذة الا عندما دنت مني المضيفة
الفاتنة بوجهها المشرق وابتسامتها الدائمة وهيّ تمد يدها بصحيفة (الثورة) [1] وقد
قامت طائرتنا في السابعة صباحاً – ووضعتها بجانبي ، وعدت الى النافذة اتمـلى
جمال المناظر المتتالية في سرعة ، ولست ادري لم أمسكت بجريدة الثورة لأقرأ –
واذا بي أفاجأ – على صفحتها الاولى – بخـــبر سقوط طائرة حربية في شمال

---

(١) جريدة يومية تصدر في الخرطوم كانت لسان حال الحكومة العسكرية .

افريقيا يوم امس ! وسقطت الجريدة من يدي ! اذن مـــا تزال هناك طائرات تسقط حـــتى يوم امس وفي شمال افريقيا حيث تتجه طائرتنا ؟ .. وقلت : عفا الله عنك يا اخي (الريفي) [1] مالـك وانباء الطائرات التي تسقط ؟ أكان لا بد من نشر هـــذا الخبر في اول يوم اركب فيه الطائرة ؟ .. ولكن « الريفي » قطعا لم يدر بخلده أن خبراً كهذا سيقرأ في طائرة تحمل امثالي من غير مرتاديها ومن سيئي الظن بهـــا ، لقد كان مجرد خبر صحفي دفع به للمطبعة كعشرات الاخبار التي احالها للمطبعة .

وعندما تذكرت – الريفي – ارتسمت على وجهي ضحكة لم استطع اخفاءها – فقد تذكرته في موقف مماثـــل منذ سنوات وكان انذاك محرراً في جريدة الرأي العام[2] والحكم الوطني في مستهله ، واختير ممثـــلا للرأي العام في رحلة رسمية لكسلا قـام بها رئيس الحكومة السيد اسماعيل الازهري وكانت الرحلة بالطائرة وحاول الريفي عبثاً أن يتنصل من الرحـــلة رهبة من ركوب الطائرة ، ولم تجد محاولاته نفعاً ، ومـــا كادت الطائرة ترتفع بهم حتى ارتمى متمدداً على أرض الطائرة في الممشى ! ، ورفض رفضاً باتاً أن يجلس على المقعد أو ينظر الى مـــا حوله ، وانكفأ على ممشى الطائرة وأغمض عينيه في ارتقاب النهاية – وكان من بـين ركاب الطائرة الدكتور علي خير باشمفتش طـبي مديرية كسلا انذاك ، وعندما حلقت الطائرة فوق ارض البطانة شاهد الدكتور علي من نافذة الطائرة الأبـــل والأغنام وهي ترعى في تلك الارض المنبسطة ، فاعجبه المنظر واراد ان يبث الطمأنينة في قلب الاستاذ الريفي ، فأهاب به قائلا : قم وانظر كيف ترعى الابل والغنم في هذا السهل المنبسط الجميل ، ولم يقم الريفي ولم يغير وضعه بل اجاب في سرعة : ليتني كنت معها ! .. لقد غبطها على مـــا

---

(١) الاستاذ محمد الخليفة طه الريفي كان رئيس تحرير هذه الجريدة .

(٢) الرأي العام جريدة يومية مستقلة تصدر في الخرطوم .

تنعم بــــه من ثبات على الارض وهي ترعى ، وتمنى لو كان معها وتخلص من الطائرة ! .

وكانت امثال هذه القصص الواقعية تزيد في كرهي لركوب الطائرات حتى تبددت الخرافة أخيراً . وكيف لا تتبدد وهاهن المضيفات الصغيرات الفاتنات يجبن الطائرة طرداً وعكساً ينثرن الطمأنينة ويقدمن للزوار ما شاءوا من شراب وطعام سائغ هنيء ولا تكاد وجوههن المشرقة تختفي عنك لحظات – عفا الله عنكم ايها الرفاق الذين ملأوا قلبي جزعاً من الطائرة .

واشرفنا على الصحراء والجبال على شاطىء البحر الاحمر وهي تبــــدو من ذلــك العلو فاتنة رائعة ولكنها صارت شبه متشابهة في تلك المنطقة حتى بلغنا مطار القاهرة ، وقيل اربطوا الاحزمة استعداداً للهبوط ، وقلت لعل مـــا تحدثوا عنه من المخاوف اجدها عند الهبوط بعد ان افتقدتها عند التحليق وخاب ظني ايضاً – ونزلنا ارض المطار دون ان اشعر بهزة تقلقني وازددت حنقاً على اوهامي السالفة – ومكثنا ساعـــة في مطار القاهرة الدولي – وارتفع صوت مذيعة المطار تحدث ركاب الطائرة السودانية المتجهة الى بيروت ان يذهبوا اليها ، ولم اسر متثاقلا هـــذه المرة ولم أحوقل وأستعذ ! وجلست في مقعدي آمناً مطمئناً – وحلقت الطائرة وارتفعت الى علوها الشاهق وبسرعتها المعهودة خمسمائة ميل في الساعة ، وكنت احمل حقيبة صغيرة بجانبي فيها كتابي (ذكرياتي في البادية) وخيل اليّ ان البدويين وزعيمهم اللطيف المعشر المرحوم الشيخ علي التوم[1] ثائرون عليّ ان خرجت بهم مـــن محيطهم الساذج وجمالهم التي تذرع بهم الفلاة في أناة وتمهل الى مجال لم يألفوه . وطالعني وجه الشيخ علي – رحمه الله – وهو يقص عليّ انباء رحلتهم الاولى الى لندن عام ١٩١٩ مع اول وفد سوداني

---

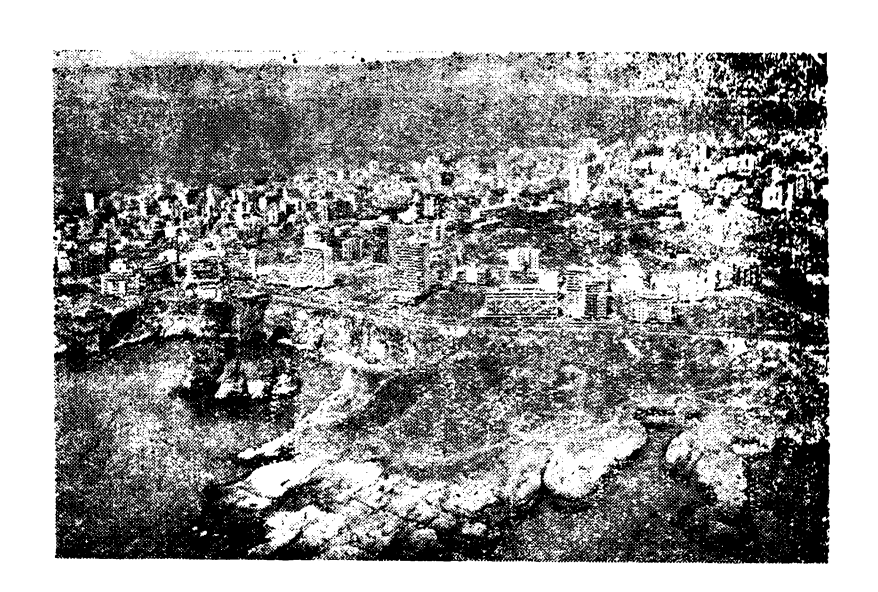
(١) المرحوم الشيخ علي التوم من كبار الزعماء البدويين في السودان .

يغادر السودان الى اوربا لتهنئة الملك جورج بالنصر في الحرب العالمية الاولى وكيف لقوا من الباخرة التي مخرت بهم عباب البحر الابيض المتوسط حتى ألقت مراسيها على الشاطىء الانجليزي ، وكيف كان هو أشبه بالصائم طوال ايام الباخرة حتى لا يقوده دوار البحر الى التقيؤ كما حدث لكثير من ركاب الباخرة فقد أنف شيخ العرب – ان يملأ بطنه بالطعام حتى لا يكرهه الدوار على افراغه !

وانا في هذه التأملات لفت أنظارنا كابتن الطائرة بأننا نقترب من البحر الابيض المتوسط واتجهت الى النافذة لأرى جانباً من شمال افريقيا مرتسماً لصق البحر على النحو الذي الفته على الخريطة من لدن أن كنت طالباً – وكان مدرس الجغرافيا يحرص على ان نرسم شمال افريقيا مع البحر الابيض المتوسط محددين التضاريس والانحناءات بدقة !.. وقد نقلت هذا الى تلامذتي فيما بعد – وكنت احب تدريس الجغرافيا مولعاً برسم الخرط الملونة . وبدا لي الشاطىء الافريقي كما عهدته تماماً ، وعبرناه في دقائق قبل ان اتملاه كما كنت اشتهي ، واين التمهل والاستمتاع بجمال بقعة معينة مع طائرة تنتقل بك من بقعة لأخرى في مثل لمح البصر ؟ ولهذا كان رواد الجمال الطبيعي ينكرون على وسائل النقل الحديثة السريعة حرمانهم من فرص التأمل والاستئناء لتملي محاسن الكون من حولهم ، ويؤثرون عليها الوسائل البطيئة – الا أن السرعة اصبحت طابع هذا العصر ولا بد من ان يتغير الكثير من نظراتنا وآرائنا وطريقة استمتاعنا بالحياة وبما يلائم عصر الصواريخ والأقمار .

وقالوا ذاك لبنان ! فخف القلب وتراقصت صور عديدة – وأطل أمير الشعراء (شوقي) الهائم بالجمال حيث كان ، الشاعر الساحر يلقي على مسامعي عبر السنين :

لبنان والخلد اختراع الله لم   يوسم بأزين منهما ملكوته



بيروت ترقد على سيف البحر

وحلقت الطائرة في سماء لبنان وأنا مشدود الى نافذتها ، انظر هنـا وهناك لا يكاد بصري يستقر فأيان اتجهت ارى جمالاً وجلالاً . وهبطت الطائرة لتقلني السيارة الى جبل بحمدون حيث قررت ان اقيم ، وبودي لو التهم كل ذلك الجمال في نظرة واحدة وانا مأخوذ مشدوه ..



بين سهل البقاع وبعلبك

من أراد أن يرى سحر الطبيعة في اروع صورة فليزر جبال لبنان ، لم يكن يدور بخلدي قط ان الطبيعة تسخو بكل هذه الهبات دفعة واحدة ، ولم يترك اهل لبنان الطبيعة وحدها تقدم هباتها الرائعة بل أعملوا يد الحضارة وفنونها لتكتمل الصورة الرائعة ، فالجبال كلها تبدو ليلاً كقباب من النور ، من اعلى قممها حتى سفوحها ، وقد جئتها في اول الصيف وقد بدأ النازحون اليهـــا من العراق وسوريا والحجاز والكويت يفدون زرافات زرافــات يعمرون الفنادق المنتشرة في تلك الجبال ويعيشون الحياة حارة في فنادقها ومغانيها ، وقد تزينت لهم وتبرجت تبرج العروس يوم جلوتها .

وقد اخترت جبل بحمدون نزلاً ، وهو يعد من خير جبال لبنان من حيث جودة الطقس ونقاء الجو ، ولكني لا أكاد استقر به غير سويعــات من الليل ، وكيف اطيق المكث بين جنباته وكل ما حولي من الجبال يلح عليَّ الحاحــاً ان اسرع اليه وأتملى محاسنه وانتشي بخمر مفاتنه .

اسرعت اولاً الى -- شتورا -- التي اعتادت حكومة لبنان ان تعقد فيهـــا مؤتمراتها الهامة ومن حقها ان تفعل ذلك فقد احسنت الاختيار ...

اشرفت عليها في رفقة الزميل الصديق السيد محمد احمــد ابو سن فبدت من

بعد قطعة من الجنان ، صغيرة انيقة ، وقد وقفنا ملياً عند الفندق اللطيف الذي اعتادت حكومة لبنان ان تعقد فيه المؤتمرات التي تدعو اليها بعض الدول في المناسبات التي تدعو الى ذلك ، وتجولنا في انحائها وراعتنا ميادينها اللطيفة وامواهها التي تنساب بين الحدائق الغناء كالصوارم غير المغمدة ، وقضينا وقتاً ممتعاً بين ارباضها وفاكهتها الكثيرة غير المحرمة .

وارجأنا الذهاب الى (زحلة) التي خلدها امير الشعراء احمد شوقي بك في قصيدته المشهورة :

شيعت احلامي بقلب باك ولمت من طرق الملاح شباكي

فقد أردنا ان تكون زحلة واسطة عقد رحلاتنا وختامها ، وألحت علينا آثار الماضي وتاريخ الغابرين الا ان نبدأ بها التماساً للعظة واستئناساً بروعة وجلال ذكرى الخالدين فشددنا الرحال الى (بعلبك) مدينة التاريخ ، واسم بعلبك استقر في ذهني منذ عهد طويل ، من لدن أن كنت طالباً وكان استاذ قواعد اللغة العربية يدرسنا باب (الممنوع من الصرف) ويدلل على ذلك ببعض الشواهد حتى اذا ما بلغ ما منع من الصرف بسبب (التركيب المزجي) كان شاهداه ، بعلبك وبختنصر ! وكنت احفظهما هكذا عن ظهر قلب ، فاذا ما سئلنا في الامتحان اوردتهما من بين الشواهد المحفوظة ، وأنا لا اعرف عن بعلبك وبختنصر الا انهما كلمتان ممنوعتان من الصرف !..

وانطلقت السيارة بنا من بيروت صوب — بعلبك — بين مظاهر المدينة التي تنطق بمدى العمران الفخم الذي حظيت به بيروت حتى بلغنا مطلع — سهل البقاع — وسهل البقاع هذا يعدّ من اخصب السهول الزراعية في البلاد العربية ويغالي بعضهم فيرفعه الى اعلى من هذه المنزلة ، فيقولون عنه انه من اخصب سهول الدنيا وأجملها ، تقوم فيه ضياع زراعية مختلفة منها ما يجود بثمار الفاكهة المنوعة وأكثره يجود بمحصول وفير من القمح ويقال ان هذا السهل كان انتاجه

من القمح يغذي كل جيوش الرومان ابان حكمهم واستيلائهم على تلك الاماكن..
كانت السيارة تسرع بنا في ذلك السهل المنبسط وعلى الجانب الايسر منه كنا نشاهد من بعيد سلسلة من الجبال هي التي تعتبر حداً طبيعياً يفصل لبنان عن سوريا وعن يميننا سلسلة جبال لبنان يتوسطها مشرفاً عالياً جبل (صنين) وقد كللت هاماته الثلوج فبدا كشيخ مهيب تدلى شعره الأشيب على سالفتيه، وهناك جبل (الحرمون) ينافس صنين مظهراً ومخبراً .. وفي صنين والحرمون يقول امير البيان احمد شوقي مخاطباً لبنان :

ضمت ذراعيها الطبيعة رقـــة (صنين) و (الحرمون) فاحتضناك
والبــــدر في ثبج السماء منور سالت حلاه على الثرى وحلاك

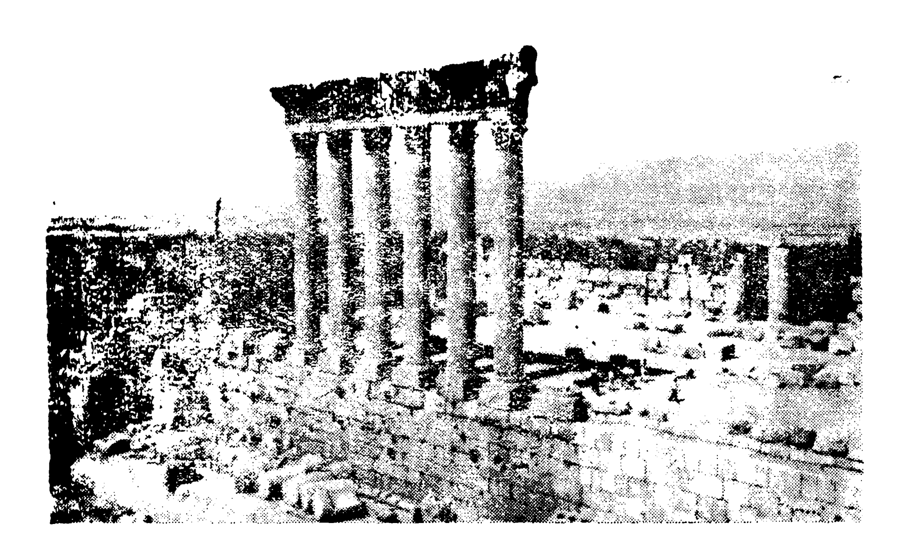
وقد ذكرنا سهل البقاع بسهل الجزيرة عندنا من حيث الاستواء والخصوبة الا ان سهل البقاع – أقل شأنـــاً – من حيث المساحة بجانب سهل الجزيرة اذ يبلغ طوله حوالي ١٢٠ كيلو متراً وعرضه ما يقارب الـ ١٥ كيلو متراً ويرتفع عن سطح البحر بين تسعمائة والف متر، وسهل البقاع يزخر بحياة الزراع الـتي تلمسها في كل شبر منه، وبحدائق الفاكهة التي تطالعك اينما نظرت، ومجـــاني الكرم التي تبهج النفوس . قد طربت لقصيدة حلوة لشاعر لبناني يسمونه شاعر الريف « فؤاد الخشن »، وأنا لا اعجب ان اهدانا شعراء لبنان شعراً عذباً مرقصاً فهم يستوحون اروع مـا جادت بـه الطبيعة من حولهم، وفؤاد شاعر الريف هذا يصف الزراع والطبيعة في ذلك السهل فيقول :

وبسمعي من ليـال مزمنـة
نغمات نائيـــات موهنـــة
وهتافـــات لصبيـان مضوا
في دروب الريف خلف المطحنة
يوقظون الوردة السكرى ضحى
ويلمون دموع السوسنـــة

وبأعماق خيالي جنة
جمعت فيها النفوس المؤمنة
هي خلد المطمئنين أتى
هبة ارض الرؤوم المحسنة
فهنا في الحقل يشدو حاصد
جمع القمح وآوى مسكنه
وهنا راع بكى في كفه
قصب الريح بما قد لقنه
وعلى خضرة ذاك المنحنى
بيت فلاح ، سما من أمنه
كوّم القمح هنا في قبوه
وتلال الزيت قرب المسمنه
انا من ريف على تلك الربى
اسبغ الله عليه فتنه !
نثر الضوء على تربته
وبأزهار الاماني زينه
من جدود عصروا الكرم دماً
سكرت منه الخوابي المدمنه
وعلى سمر الدوالي كتبوا
شرعة الحب وخطوا سننه

يالله !.. ماذا ارى ؟!.. أنها « بيوت الشعر » كتلك التي عرفتها في بلادي وجماعة من البدويين يتخطرون امامها !.. وأطفال صغار يمرحون خلالها !.. لم اكن اتوقع قط ان ارى صورة اخرى من بادية الكبابيش [1] هنا ، وأوشكت

(١) عرب بدويون يعيشون في غرب السودان .



أعمدة هيكل جوبيتر الست

ان اقول للسائق قف !.. وأن اسرع اليهم لأجلس معهم وأرى ما بداخل بيوت الشعر .. لقد شعرت بعاطفة طاغية نحوهم .. ولكن السيارة تسرع بنا وفي نفسي رغبة جامحة ان أزور هذا الحي الذي يتوسط هذا السهل الرائع ..

واقتربت بنا السيارة من بعلبك، مدينة صغيرة نسبياً لا بأس بمظهرها العام، وطفنا بسوقها مسرعين حتى بلغنا هياكل بعلبك ، ونزلنا عندها خاشعين .

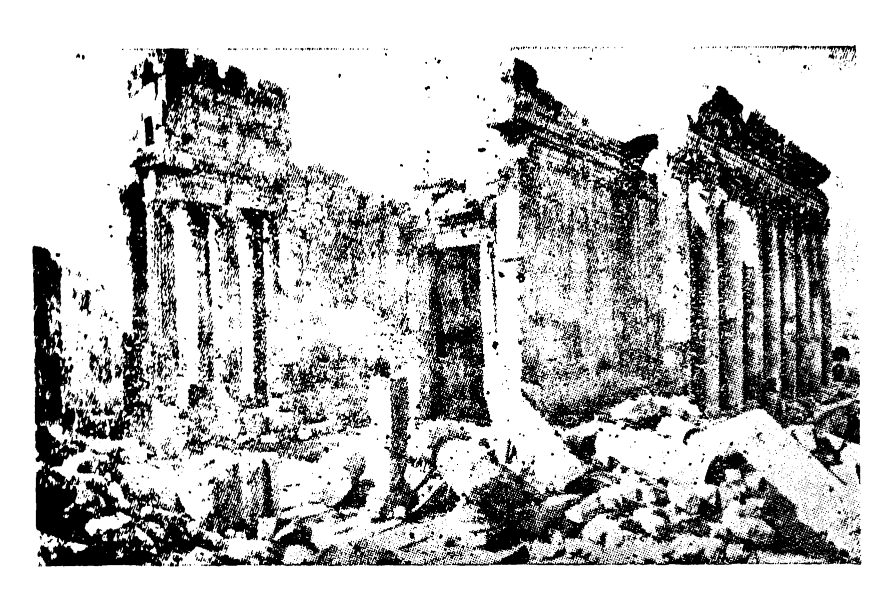
وهياكل بعلبك لا يروعك فيها جمال ، فقد نال الزمان من جمالها وأبقى لها هذه الروعة التي تأخذك عند جلال التاريخ – وهي تتحدث عن حضارات شتى وملوك وأباطرة وأقيال حسبوا ان الدنيا باقية لهم .

بنيت في عهد الفينيقيين وكانت تسمى (هليوبولس) اي مدينة الشمس وبنيت قلعتها العظيمة التي تتوسطها في شموخ في عهد الرومان عام ١٣٨ قبل

المسيح -- هكذا يقول المؤرخون — ودخلنا من الباب الرئيسي لنجد حشداً من الرجال والسيدات والآنسات كلهم من الامريكان قد تجمعوا في فنائها يتوسطهم رجل لبنـــاني يشرح لهم ما يشاهدون باللغــة الانجليزية ، وفي يد كل منهم آلة للتصوير فهم ينصتون اليه تارة ويصوبون عدسات آلاتهم الفوتوغرافيــة تارات صوب الهياكل والاعمدة الأثرية وقد بدت على وجوههم علائم الاهتمام البالغ وقد كان عنصر الشيوخ بينهم غالباً ، وقد شهدت امرأة في الحلقة الثامنة تكاد تلتهم الآثار من حولها بعينيها وتسرع هنا وهناك ، وتحس بالاعياء فتجلس هنيهة عند أعتاب معبد او مدخل قبو مضت عليه قرون وقرون !.. ولم يكن غير هــذه الفئة من الامريكان من زوار ، الا انا وصديقي السيد محمد احمد ابوسن الذي لفت الانظار بثوبه السوداني الفضفاض الذي كان يمثل الزي السوداني لشيوخ العرب ، وازدادت دهشة بعض الامريكان عندما تحدث اليهم بانجليزية طليقة ، كأرقى ما يكون حديث الرجل المثقف — ولعلهم حسبونا معاً — بزينـا الغريب عليهم — من عجائب التاريخ الماثل حولهم — وشغلت عنهم أتأمل روعة التاريخ من حولي، فهنا يطل امامي شامخاً معبد الاله (جوبيتر) الذي بني في عهد الرومان عام ٢١٧ قبل المسيح ولم تبق منه الا اعمدة ستة ضخمة تتحدث عن السواعد الفتيــة التي بنتها ثم ذهبت للفناء ، وبقيت هي تتحدى صروف الايام وتصـــارع البلى حتى اليوم !.

ويرتفع بجانب معبد جوبيتر ، معبد باخوس اله الخمر ، ويعد من اجمل المعابد التي بقيت من آثار بعلبك . بني على دكة ترتفع عن الارض بنحو خمسة امتــار ، زين برسوم الدوالي والفتيات الحسان الراقصات ، ولهذا أسماه العرب عنـــدما جاءوا الى بعلبك وأضافوا اليها شيئاً من آثارهم — سموا معبد باخوس هذا (دار السعادة) لمنظر الدوالي والفاتنات الراقصات على جدران الهيكل !.

ولم أعجب ان أجــد قرب هيكل باخوس صورة دقيقة رائعة منحوتة على جانب من هيكل آخر لفينوس الهة الجمال !.. ولست أدري أكان من محض الصدفة ان يقف معبد باخوس اله الخمر ويجـــانبه هذه الصورة المنحوتة في دقة



منظر لهيكل باخوس أخذ من الشمال الشرقي

وأناقة لفينوس ؟ أم كان هذا تدبيراً سابقاً لتكتمل النشوة اذ يجمع بين اله الخمر وإلهة الجمال ؟!.. ولكم صرعت الرجال منذ القدم نشوتا الخمر والجمال !

ان وثائق تاريخ بعلبك تدخل فينوس من بين الآلهة الذين عني الرومان باقامة آثار لهم في هذا المكان .. وقد حدثوني عن صورة اخرى منحوتة في مكان آخر لفينوس وهي تضم الى صدرها كيوبيد المجنح – اله الحب – وعن اخرى لكليوباترا وقد لسعتها الحية – ولمنيرفا لابسة خوذتها وهي تمثل الهة الحكمة .

واعتليت أثراً عالياً أتملى منه هذا المنظر الفريد لهذه الهياكل الضخمة ما ظل قائماً منها وما انهد تحت طرقات الايام – وتخيلت اولئك الابطال الذين أقاموها والذين مروا بها غزاة او هداة ... قالوا ان الاسكندر الاكبر مر بها عام ٣٣٣ قبل المسيح ، واحتفت به بعلبك ، وخصته بتماثيل أقيمت له لعلها الآن من بين هذا الركام الذي لا يعرف من امره شيئاً الا علماء الآثار .

م

وجاءها يوليوس قيصر يختال بين مواكب النصر في سنة ٤٧م ، وجعل منها مستعمرة له ، واستهواه جمالها فدللها ودعاها باسم ابنته جوليا !

وتحدثت الهياكل والنقوش عن صلتها بالطاغية (نيرون) الذي صارت قصة حرقه لروما مثلاً من أمثلة التاريخ الباقية وتروى صلتها باغسطوس قيصر ... وعن .. وعن .. العديد من قياصرة الرومان ممن يزخر باسمائهم التاريخ .

وتتالت الأيام .. وخفقت اعلام الاسلام في هذه البقاع .. عندما استطاع القائد العربي ابو عبيدة عامر بن الجراح قائد الحملة الاسلامية المظفرة التي سيرها اولاً سيدنا أبو بكر وأتمها عمر بن الخطاب الى الشام ان يرسي قواعد الاسلام وجاء الشيخ الجليل الى هنا . واخذت بعلبك تأتمر بأمر الشام ، وتنسلخ لأول مرة في تاريخها عن قاعدتها المسيحية . ويأبى العرب — كالعهد بهم — الا ان يخلفوا هم ايضاً آثارهم الاسلامية بين هياكل بعلبك الوثنية في العهد الفينيقي والمسيحية في العهد الروماني .

اني أمد بصري الى حيث يشيرون الى شرق الهياكل وراء حجاب من الاشجار لأرى اطلال مسجد عربي أقيم هناك منذ العهد الأموي .. واذا كان الرومان قد أقاموا معابد لآلهتهم جوبيتر وباخوس وفينوس .. الخ فما احرى بالعرب الذين اعزهم الله بنشر رسالة الاسلام ان يقيموا مسجداً لعبادة الله الواحد القهار حيث تقوم معابد الوثنية وهياكل المسيحية وان يقيموا بجانب المسجد داراً فسيحة لتدريس الفقه الاسلامي .

يقول الاستاذ حنا عوض ، الذي ألف كتيباً صغيراً مفيداً لارشاد رواد هذا الاثر التاريخي عن الأثر العربي ما نصه :

« الى شرق الهياكل ، ووراء حجاب من الاشجار ، اطلال جامع من العهد

الأموي يختبيء ، ترشد اليه مئذنة مربعة الزوايا في اسفلها مثمنه في اعلاهـــا ، يمنطق الجامع جدار مربع الشكل نقشت عليه عدة كتابات تطلعنا احداها على ترميمه على يد الأمير محيي الدين حسن حاكم بعلبك في عهد السلطان قلاوون .. والى شمال الجامع كانت فسحة دار تحف بها قناطر وغرف اعدت لتدريس الفقه الاسلامي في القرون الوسطى » .

ويضعف شأن المسلمين اخـــيراً ، وينتصر الصليبيون ويستولون على هذه الأرض ويعود للمسيحية ازدهارهـــا على يدي الصليبيين .. ولكن!.. لنحن الرؤوس في اجلال لموكب مجدد الاسلام صلاح الدين الايوبي يغزو هـــذه البقاع ويرفع راية الاسلام عالية خفاقة وأهتف من اعماقي .. مرحى صلاح الدين ...

وانزل من الأثر الذي كنت اعتليه لاجدني امام ميدان فسيح بتوسط المعابد، قيل انه بقايا ذلك الميدان الذي كانت تجري فيه الالعاب المقدسة التي كان يتفق على الطريقة التي تؤدى بهـا وتحدد شروطها في معبد جوبيتر الذي يطل سامقاً على هذه الساحة .. لقد تمثلت بعين الخيال هذه الساحة وقد احتشد فيها الشبان والرجال يتبارون ويتباهون بقوتهم ومهاراتهم وروائع فنونهم !... ثم .. ثم ماذا ؟.. الا ترى هذا الركام يغطي الساحة ؟ وبقي جانب منها معبراً للسائحين يسألون في فضول عن .. ماذا كان هنا ؟ !

واعود للتجوال بين الآثار ، واقف عند هذه الرسوم الدقيقة البارعة الصنع على العديد من الحجارة الضخمة التي صمدت لعاديات الدهر على بقـايا الهياكل ، اقف مبهوتاً عندها متأملاً كيف استطاع الفن ان يرمز الى قصة الحياة ، منـذ نشأة الانسان حتى يدركه الفناء ، اني عاجز عن اعطاء صورة صادقة لدقة الفن وروعته في هذه الرموز المنحوتة ..

ويقودني رفيقي لندخل قبواً اثريـاً يمتد عشرات الامتار ، وخيل اليّ اني

اسير في جوف جبل مظلم الجنبات ، فلا نوافذ ولا بصيص من الضوء الا مـــا انبعث خافتاً من فوهتي المدخل والمخرج .. وتملكتني الرهبة .. اكان هذا القبو ممراً سرياً للقواد العظام ؟ ام كان ممـــراً للفقراء وبهائم المذبح كما تقول بعض الروايات ؟ .. فقد حدثوا ان هياكل بعلبك لكي تكون قبلة للانظار -- رفعت عن مستوى الارض نحو الخمسة واربعين متراً . وان الجانب السفلي منها استعمل للحجاج الفقراء ولبهائم المذبح !

ومهما يكن فقد عبرنا الممر القاتم الذي يمتـــد في شكل اسطواني تغلفنا حجارته السود الصم فتزيد النفس انقباضاً حـــتى خرجنا من المنفذ ، وتنفسنا الصعداء ..

وتأهبنا لنعود لسيارتنا ، ووقفت متجهاً الى هياكل بعلبك لالقي عليها النظرة الاخيرة ، ومن اين لها ان تحس بهذين الغريبين اللذين وطئا ثراها يتعبدان في محاريب التاريخ ؟ وقد طاف بهـــا الملايين قبلنا في عز رابهة ، او في ذلة وضراعة ولم تحس بهم .. كلهم ذهبوا وبقيت هي تنظر الى هـــذه المواكب الانسانية تتوالى الى الفناء هازئة ساخرة .. الا مـــا اروعها لو تحدثت وروت ما شهدت !

وتحركت بنا السيارة لنقضي سويعات بـــين بعلبك الحية التي يعيش فيها الناس ، وقادنا دليلنا الى (كازينو) في موقع رائع ، واكثر ما ابهجنا فيه ، هذه الامواه التي تنحدر من الجبال حولنـــا وتتدفق في قنوات صغيرة تتلوى حول مقاعدنا في الكازينو وحول الزهر والشجر والارض السندسية الموشاة بمختلف الوان الزهر منبسطة امامنا ، فـــلا تكاد تشبع من النظر الى كل ذلك السحر الدافق ..

وهتف بي صوت عربي من بعيد ، قر في نفسي عـــبر قرون طويلة ، صوت

الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته المعروفة :

ألا هبي بصحبك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الاندرينا

لقد جاء عمرو الى هنا ، الى بعلبك ، ولعله طاف بين رياضها حيث نطوف ، وأخذت بلبه طبيعتها السخية ، فكان لا بد ان يشرب ، وان ينتشي ، وأن يغني : —

وكأس قد شربت (ببعلبك)   واخرى في دمشق وقاصرينا

يا لهذا الفتى العربي الذي ينشد المتعة ، ويلهو بالكأس ، فيلتمسها في بعلبك واخرى في دمشق ، وثالثة في (قاصرين) ورابعة وخامسة واكثر حيث يطيب له الثواء ! وكأنما اراد ان يعتذر عن تصيده الملاذ ، بأن الحياة قصيرة فانية ، فالمنايا سوف تدركنا ، مقدرة لنا ونحن مقدرون لها ، فلا فرار ولا نجاة :

وانا سوف تدركنا المنايا   مقدرة لنا ومقدرينا

صدقت يا عمرو ، فها انذا بين رياض بعلبك ، تفصلني منك قرون وآماد وقد ادركتك المنايا ولم يبق منك الا هذا الشعر الحي الصادق الذي فتن به قومك (بنو تغلب) فألهاهم عن كل مكرمة كما قال من هجاهم :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم .

وتداعت المعاني والصور في ذهني ، وضحكت ، فالتفت الي زميلي متسائلا وقد طال صمتنا نتأمل الطبيعة الساحرة من حولنا . وفي ذهني هـذا الحديث عن عمرو بن كلثوم اديره بيني وبين نفسي ... قال صاحبي : ما يضحكك ونحن سكوت ؟ ..

• فحدثته عن هذه الخواطر ، وقلت له انها نقلتني الى ذكريات حبيبــة الى قلبي عن فترة خصبة من حياتنا عندما كان المجاهدون البررة يعملون لتحرير وطننا من الاستعمار ..

كان ذلك في اعقاب عام ١٩٤١ ، والحرب الثانية بين النازية والديمقراطيات مستمرة ، وقد شملت العالم كله ، ودخلناها دون ارادتنا لنصرة انجلترا وحلفائها واوشكت بلادنا ان تقع فريسة الفاشية لولا لطف الله ،اذ وصلت جيوش ايطاليا مدينـتي كرمك وكسلا السودانيتين واحتلتهما . وأوشك روميل ان يطبق على مصر وقد بلغ العلمين ... ورويداً رويداً ترجح كفة انجلترا وحلفائها..واخذت الشعوب المستعمرة والتي ساهمت باكثر مما تستطيع في تلك المعركة العالميــة الرهيبة تفكر في عالم ما بعد النصر ..

وفي احدى الليالي وكنـــا في نادي الخريجين بالخرطوم نحتفي بتسليم شعلة المهرجان الأدبي الذي قرر ان يقوم به هذا النادي في عيد الفطر من ذلك العــام بعد ان يتسلم في تلك الليلة الشعلة من نادي مدني الذي اقام المهرجــان الاول في العام الماضي - ولم تكن الشعلة غير كلمات من اولئك الذين اسهموا في المهرجان الاول يتحدثون فيهــا عن تجاربهم وما أفــادوه من التجربــة الاولى ليجيء المهرجان الثاني اقرب للكمال . واحتشدنا في نادي الخريجين بالخرطوم ، وكان لي شرف الحديث في تلك الليلة عن تجربتي في المهرجان الاول الذي ألقيت فيه بحثاً عن المعتزلة لم تهضمه الجماهير التي كانت في حــاجة الى مادة سهلة تتجــاوب مع مشاعرها الوطنية الملتهبة .

في تلك الليلة ونحن جلوس نستمع للمتحدثين ، جاءنا المغفور له الاستاذ احمد يوسف هاشم وكان قادماً لتوه من القاهرة التي كانت آنذاك ملتقى للعديـــد من ممثلي النشاط السياسي في كل البلاد العربية ، وقاعدة اساسية لقيـــادة الحلفاء . واتجه الى حيث كنــا نجلس ، احمـــد خير الطالب في مدرسة الحقوق آنذاك

واسماعيل العتباني الذي كان يتولى رئاسة تحرير جريدة صوت السودان اليومية ، واحمد مختار - السفير حالياً - وكان يعمل موظفاً في مكاتب سكة الحديد بالخرطوم والطبيب المشهور الدكتور عبد الحليم محمد - وكاتب هذه السطور وما كاد المرحوم احمد يوسف يجلس بيننا - بعد التحية الحارة - حتى قال متسائلاً : أما زلتم في الادب والمهرجانات والعالم يغلي ويعد نفسه الى عالم ما بعد الحرب ؟.. هذا كلام فارغ !

ونظرنا اليه والى بعضنا مبهوتين ، فقد كان الكلام جديداً علينا .. وأفاض رحمه الله في حديث طويل عما يجب ان يفعل ، خلص منه الى ان مؤتمر الخريجين - وكنا آنذاك من بين اعضاء هيئته - يجب ان يتقدم للحكومة .. بمطالب وطنية .. ودار حديث طويل .. ولم يضع الوقت سدى ، وقام المغفور له احمد يوسف وفي صحبته السيدان احمد خير والدكتور عبد الحليم محمد الى منزل الاخير ليواصلا البحث في الموضوع الذي أثاره المرحوم الاستاذ احمد يوسف ، وبقينا نحن في النادي - اسماعيل العتباني واحمد مختار وأنا نقلب اوجه الرأي فيما جاء به احمد يوسف .. ولا اطيل فقد انتقلت الفكرة الى لجنة المؤتمر التنفيذية التي كان يرأسها في تلك الفترة السيد ابراهيم احمد ، ووضعت مذكرة المؤتمر الشهيرة وقدمت للحكومة عام ١٩٤٢ ورفضتها حكومة المستعمرين ودارت مكاتبات عديدة بين المؤتمر والحكومة ليس هنا مجال الحديث عنها .. واستقبلت البلاد هذه المذكرة ونضال المؤتمر حولها بحماس بالغ مما اكسب المؤتمر تأييداً شعبياً كبيراً ..

وكانت اللجنة التنفيذية التي تولت صياغة المذكرة تتكون من خمسة عشر عضواً .. وكان من بينهم السيد احمد يوسف هاشم الذي كان يرأس تحرير جريدة النيل اليومية .. فصار يهتبل المناسبات لينشر في النيل صورة اعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية التي تولت صياغة وتقديم المذكرة للحكومة الاستعمارية ، وأكثر من نشر الصورة كلما وجد الى ذلك سبيلاً - وذات يوم طلعت علينا جريدة النيل

وفي صدرها الصورة المذكورة ، وكنت آنذاك اكتب بعض المقالات والطرائف في جريدة الصوت التي كان يحررها صديقي اسماعيل العتباني، فأردت ان اداعب الصديق المغفور له احمد يوسف اثر نشره لهذه الصورة ، فأهديت له هذا البيت الساخر عن بني تغلب وقد ألهتهم معلقة شاعرهم عن كل مكرمة ، مشبهاً لجنة المؤتمر ومذكرتها ببني تغلب ومعلقة شاعرهم :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة – قصيدة قالها عمرو بن كلثوم !

وتلقاها مجتمع ذلك العهد بالتندر والضحك وطرب للنكتة الدكتور عبد الحليم محمد وبالرغم من انه احد اعضاء اللجنة التي صاغت المذكرة الا انه أطلق على اللجنة آنذاك (بني تغلب) واختفت الصورة من جريدة النيل بعدها !..

وبقيت منها هذه الصور الحبيبة التي نعيش عليها ، والتي تطالعني اليوم في حدائق بعلبك ، حيث شرب عمرو بن كلثوم منتشياً وخلد ذلك في شعره الحي.

ونعود الى السيارة لتقلنا الى بيروت طائفة بأحياء بعلبك العامرة، وحدائقها الغناء ، ونشق سهل البقاع وجبل (صنين) المكلل الهامات بالثلوج يطالعنا من بعيد ليزيد من روعة المنظر الذي سحر (شوقي) أمير الشعراء من قبل ، فقال وهو يتأمل (صنين) :

جبل على آذار يزري صيفه

أبهى من الوشي الكريم مروجه وألذ من عطل النحور مروته
وكأن ايام الشباب ربوعه وكأن أحلام الكعاب بيوته
وكأن أثداء النواهد (تينه) وكأن أقراط الولائد (توته)

ألا رحمك الله يا شوقي ، لشد ما بدا مكانك في دولة الشعر خاليا ..

ولكن هذا الفتى العربي مخادن اللذات يلح على صوته الحاحاً عنيفاً وانا أدخل

غرفتي في فندق بحمدون ، وهياكل بعلبك التـــاريخية ، وحدائقهـا وأمواهها المنسابة وجلستنا في الكازينو بينها ، تتراءى لي أينما اتجهت ، وصوت عمرو يغني:

وكأس قد شربت ببعلبك   واخرى في دمشق وقاصرينا

ولقد سقتنا بعلبك كؤوساً مترعة من خمر الجمال !



جـارة الوادي

زحلة : السحر والفتنة والجمال

زحلة ... السحر والفتنة والجمال ، عرفتها قبل ان اراها منذ اكثر من ربع قرن وتمثلت صورتها منذ ذلك العهد حتى جئتها فصغر الخبر الخبر !

عرفتها منشعر أمير البيان (شوقي) ومَنْ مِنْ عشاق الادب العربي لم يحفظ عن ظهر قلب قصيدته عن زحلة :

شيعت أحلامي بقلب بـــاكِ	ولمحت من طرق المـلاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب ووردِه	أمشي مكانهـــا على الاشواك
وبجانبي واه كأن خفوقـه	لمـــا تلفت جهشة المتباكي

وهي قصيدة ما تزال ترن في الاذان وتلعب بالمشاعر ، افتن المغنون والمغنيات في تلحينها وادائها منذ أن نظمها الشاعر حتى اليوم .

(وطارت) بنا السيارة نحو زحلة ، ولم نغضب هذه المرة على السائق وهو — يطير بتلك السرعة الجنونية التي عرف بها كل سائقي التاكسي هناك ، فقد كنا على أكثر ما يكون الشوق الى لقاء زحلة . . والطريق الى زحلة فاتن ساحر . . كل ما تقع عليه العين يفتن ويبهج وتطيب له النفس — الجبال والوهاد وحدائق الفاكهة هنا وهناك ، والنضرة تعلو كل شيء ، والطقس الرائع ، والسيارات تشق أحياناً

السحاب وهو كالدخان وتراه حينا تحت ناظريك ، وانت على قمم الجبال العالية. وكم من مرة اضطر السائق وهو يسير في وضح النهار الى اضاءة نور السيارة ليسير بين السحب التي أحاطت بنا وأظلمت طريقنا وهي تمور حولنا... ونحن مبهورون لهذا المنظر الخلاب الذي لم نره من قبل ، فقد حسبت ان الطائرة وحدها هي التي تشق السحاب أو تعلوه أحياناً .. ولكن طرق لبنان بين جبالها العالية أرتنا السحاب يمور حول سيارتنا ، وأرتنا اياه احياناً تحتنا يهبط نحو الوهاد ، فنطل اليه من عل كأننا نعتلي طائرة لا سيارة !

وكانت السيارة تقف بنا لفترات قصيرة على مصايف لبنان في تلك الجبال المونقة ونحن في طريقنا الى زحلة وكلها تموج بالسحر والروعة فلا تدري ايها أكثر روعة وافتن سحراً ، حتى بلغنا زحلة فبلغت الروعة ذروتها ..

وزحلة مدينة صغيرة أنيقة ، ذات حدائق لفّاء غناء ، ومصدر الروعة فيها يكمن في هذه المياه التي تنحدر من عدة جبال متلاصقة في هدير وخرير وقد قامت حولها في قطعة من الرياض عدة كازينوهات – ينساب الماء المنحدر من الجبال حول مقاعدها ويتخلل مناضدها ، ويسيل احياناً على قنوات تمتد فوق الجالسين ، فاينما اتجهت ترى الماء ينساب من الجداول والقنوات ، او تراه من هناك منحدراً من نبعه في الجبل كالشلال ماء صاف كالبلور ، عذب سائغ ، بارد جداً كأنما وضعت فيه مقادير ضخمة من الثلج ، تكاد لا تحتمله يداك لبرودته اذا امتدت اليه الا لفترة قصيرة ، واذكر ان بعض المصطافين من بيروت كانوا يعبون منه في شغف ، ويقولون انه ذو فائدة خاصة ، وبعضهم يملأ منه – آنية خاصة – ليعود به الى اهله .. وفي بعض الكازينوهات شهدتهم يضعون زجاج البيبسي كولا واضرابها في جداول هذا الماء المنساب فاذا طلب احدهم زجاجة منها أخرجها النادل من الجدول وقد اكتسبت برودة طبيعية أشد مما يكتسب من الثلاجات .

وجلسنا في كازينو زحلة تحف به الأمواه المنسابة والمتدفقة حول مقاعدنا في فن رائع ، والزهر النضر يحف بنا من كل جانب ، والوجوه الصباح تطالعنا من هنا وهنا تهدي لامثالنا سحراً فوق سحر ! وأخذت أتملى هذا الجمال الفاتن الذي يتجلى في كل شيء من حولنـا – واضفى على سحر المكان سحراً آخر هو مـا كان يردده مسجل الالحان من قصيـدة شوقي في كازينو أطلق عليه – جـارة الوادي – وكان الغناء لفيروز ..

وتجمع السحر في تلك البقعة الرائعة ، صوت فيروز يغني لزحلة ، والجمـال بمختلف الوانه يحيط بنـا من كل جانب ، وأنا مأخوذ بهـذا ، وانظر تارة الى ديوان شوقي الذي لم يفارقني طوال هذه الرحلة وأقف عند قصيدتـه (جـارة الوادي) التي كان صوت فيروز الحلو العـذب يشجينا ببعض ابياتها ، وانظر الى حيث كان يجلس شوقي في هذا المكان مستوحياً روائع شعره ويشدو لزحلة :

يا جارة الوادي طربت وعـادني ما يشبه الاحـلام من ذكراك
مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى والذكريات صدى السنين الحاكي

الى ان يقول :

قسما لو انتمت الجداول والربى لتهلل الفردوس ثم نماك
مرآك مرآة وعينك عينـه لمَ يا زحيلة لا يكون اباك ؟!
تلك الكروم بقية من بابل هيهـات ينسى البابلي جناك
فكرت في لبن الجنان وخمرها لمـا رأيت المـاء مس طلاك

واشهد اني لم أتذوق المعنى الذي يريده شوقي من هذا البيت الاخير (فكرت في لبن الجنان وخمرها ...) الا يوم زرت زحـلة التي اشتهرت بلون خاص من الخمر (العرق) وكان المتحدثون عن زحلة – هم يعددون محاسنهـا – ويذكرون من بين ما يذكرون – عرق زحلة – ونظرت الى المناضد من حولنا حيث كان

النادلون يطوفون به على الشاربين ، وكنا نتأملهم ، وهم يصبون الماء على كؤوس العرق فتبدو بيضاء كأنها كؤوس من اللبن الحلب . وهنـا ادركت ماذا يعني شوقي بقوله :

فكرت في لبن الجنان وخمرها   لما رأيت الماء مسّ طلاك !

وقد ظل صديقي وزميـلي في الرحـلة السيد ابو سن يردد هـذا البيت منتشياً به ، وهو رجل لا يقارف الخمر بحمد الله ، وقد راعه المعنى بعد ان شهد - عرق زحلة - الذي شبهه شوقي (بلبن الجنان) وأخذ يردده طوال اليوم بعد ان عدنا الى نزلنا - فتذكرت شيخاً فقيهاً ورعاً روت عنه كتب الادب القديم قصة تشبه موقف هذا الصديق من بيت شوقي ، ولا بأس من ان أورد هذه القصة التي أوردها ابو الفرج في كتابه المعروف (الأغاني) .

(تحدث مصعب بن عبد الله عن ابيه قال : أتاني ابو السائب المخزومي ليـلة بعد ما رقد السامر ، فأشرفت عليه ، فقال : سهرت ، وذكرت أخاً لي استمتع به فلم أجد سواك ، فلو مضينا الى العقيق[1] تناشدنا وتحدثنا ... فمضينا فأنشدته في بعض ذلك بيتين للعرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح تلوّن كالأغر الأشقر
فتلازما عند الصباح صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

فقال : أعده علي ، فأعدته .. فقال : أحسن والله ، امرأته طالق ان نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته !

فلقينا عبد الله بن حسن ، فلما صرنا اليه وقف بنا وسلم ، ثم قال لصاحبي : كيف انت يا ابا السائب ؟.. فقال له :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

---

(١) واد حول المدينة - كانوا يسمرون فيه ويعقدون مجالس الانس والطرب .

فالتفت الي فقال : متى أنكرت صاحبك ؟! فقلت منذ الليلة ! فقال : انا لله ! اي كهل أصيبت منه قريش !

ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التميمي قاضي المدينة على بغلة له ، ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسلم ، ثم قال : يا أبا السائب ؟ فرد عليه قائلاً :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

فالتفت الي وقال : متى أنكرت صاحبك ؟! فقلت آنفاً ، فلما أراد المضي قلت له : أفتدعه هكذا ؟! والله ما آمن ان يتهور في بعض آبار العقيق.. قال: صدقت.. يا غلام!.. قيدَ البغلة !. فأخذ القيد فوضعه في رجله، ثم قال لغلامه: يا غلام ، احمله على بغلتي وألحقه بأهله !.

فلما كان بحيث علمت انه قد فاته ، أخبرته بخبره، فقال: قبحك الله ماجناً! فضحت شيخاً من قريش وغررتني !.

وقد أوشك الصديق ان يفعل هذا !

وقضينا في زحلة لحظات لا أدري كيف أصفها ، فهي الخلد مصغراً والنعيم مصوراً .. صوت فيروز العذب ما زال يغني جارة الوادي، وانا أتطلع بناظري الى الطبيعة الساحرة والوجوه الناضرة من حولي .. وأتخيل شوقي على بعد المدى حيث كان يستملي هذا الجمال الذي أوحى اليه بهذا الشعر الرائع الآسر ، وتمثلته ايضاً في ذلك اليوم المشؤوم الذي فجع فيه الشرق بوفاة أبي الوطنية سعد زغلول، وكان شوقي يوم النعي في مكانه هذا من زحلة ، حيث كنا نجلس ، فيرى زحلة وقد تمرت من جمالها حزناً ، فان الناعي قد مشى الى أعراسها فمحاها ، وعطل المصطاف من سمارة ، والحسان الفاتنـــات قد جلون عن ضفة الوادي ، وفتح الدير أبوابه ليلاً ، وكان لا يفعل هذا ، ودقت نواقيس البيع (الكنائس) تنعي

سعداً .. صورة حية للحزن الذي عرى زحلة في ذلك اليوم الكئيب :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

ويلتفت الى (زحلة) مصوراً اثر النعي عليها :

سائلوا (زحلة) عن أعراسها هل مشى الناعي عليها فمحاها ؟
عطل المصطاف من سماره وجلا عن ضفة الوادي دماها
فتح الابواب ليلاً (ديرها) والى الناقوس قامت بيمناها

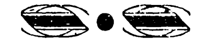
ان الحياة لا تقدم الصفو خالصاً فهي تكدره احياناً لتعلي من شأنه .. فقد فجع شوقي بنعي سعد والصفاء يغمره في هذا المكان الفاتن !.

وغادرنا زحلة وكم وددنا لو بقينا فيها اكثر ما يتاح لنا من الزمن – وان كانت زحلة قد غمرتنا بجمالها وسحرها ، فقد اهدتني فائدة لغوية كانت تشغل فكري من لدن اخذت اكتب عن « بادية الكبابيش » في بلادي ، وقد يبدو غريباً ان تهديني زحلة فائدة لغوية تتصل بعرب الكبابيش ، اذ ما كدنا نعود الى نزلنا في بحمدون حتى تلقتنا السيدة صاحبة النزل وهي امرأة مهذبة ككل اهل لبنان ، في خريف العمر ، وقالت بلهجة اهل لبنان المذبة : عجبتكم (زحلي) ؟ وتعني بزحلي – زحلة – فتذكرت الأمالة في لهجة الكبابيش ، فقلت لها : كم مرة شهدت زحلة ؟ وكأنما استفزها سؤالي ، فقالت في استنكار : آني ؟ (بمد يسير للألف وامالة النون نحو الكسرة) .. وكأنما ظفرت بطرفة عزيزة ، فقلت متلهفاً : أتقولون هنا (آني) وتعنون بها (أنا) ؟ فأجابت : نعم !

وطربت لهذا ، وتذكرت عدداً من القبائل السودانية في كردفان ودارفور خاصة تدور الأمالة هذه على السنتهم ، ولا يكاد أحدهم يقول (انا) لضمير المتكلم الا بالأمالة .. أني .. وارهفت التقط هذه (الأني) تنساب بين احاديث

الكثيرين في لبنان وسوريا والأردن حيث قدر لي ان اقضي فترة ممتعة في هذه البقاع العربية .

لقد جادت الطبيعة في سخاء نادر بكل مفاتنها على زحلة ، فكان حرياً بها ان تخلب ألباب زوارها وان توحي للشعراء منهم اروع ما يهديه الجمال منوعا للشاعر والفنان .



مغارة جعيتا

لم اكن ادري أن لبنان يدخر لنـــا في كهوفه ومغاوره صوراً أخرى من السحر والروعة ، فقد ظننت -- وبعض الظن اثم - أن جمال لبنان يتجلى فـيما يتراءى للعيون واضحاً على سطح أرضه ، حتى أخذ من حولنا يسألوننا في الحاح، هل شهدتم مغارة جعيتا ؟ فأقول متسائلاً ، وما تكون مغارة جعيتا هـذه ؟ وتبدو الدهشة واضحة على وجه محدثي ويقول :

ولم جئت لبنان اذن ان كنت لا ترى المغارة ؟ !

وكان لا بد أن نسرع لنراها ولكن اصدقاءنا هناك ، ينصحوننا الا نذهب اليها الا في يوم الاحد . ولم يخف عنا سر هـذا التوجيه ، فمنذ أن وصلت لبنان ويوم الاحد يوم عيد تخرج فيه الناس كلها شيباً وشباباً وأطفالاً في أبهى الزينات ليملأوا الحدائق والمروج وكل أماكن اللهو البريء وغير البريء، ويفيض مرحهم وطربهم على كل هذه الاماكن فتشيع فيها الفرحة والبهجة ..

ويبدو أن مرح الاحد لم يعـد قاصراً على المسيحيين وحدهم فقد أعدى المسلمين من حولهم وسحرهم فشاركوا فيه ..

وجاء الاحد ونحن نعد السويعات لمجيئه تلهفا لزيارة مغارة جعيتا التي لم يبق

احد من الذين اتصلوا بنا الا وأغرانا بالذهاب اليها .. وانطلقت بنا السيارة من فندقنا بجبل بحمدون صوب بيروت في طريقنا الى المغارة ، وعندما أقول — انطلقت بنا السيارة — فأني اعبر تعبيراً غير دقيق فالسيارات هناك يمكن القول بانها تسابق الريح ! .. فما ركبنا سيارة الا وشعرنا بانها توشك أن تطير فالسائق هناك - كل سائق — مولع بالسرعة كأنما هو في سباق جنوني بالرغم من انه يمر بجبال عالية والطريق عليها يضيق حتى يكاد لا يتسع لسيارتين وفي منعطفات خطرة تحفها في أكثر الأحايين هاوية عميقة لا سبيل الى نجاة من يتردى فيها .. ولكم تحدثنا اليهم في رفق وفي غير رفق ان يخففوا من غلواء تلك السرعة الجنونية ، فينظرون الينا باسمين ، ويتلطفون بكلمات رقيقة تعني الامتثال لرأينا ! ، ولكن السائق ما يكاد يهدأ قليلاً ونطمئن اليه حتى يعاوده جنون السرعة فيطير بسيارته ونسلم امرنا لله ! .. وأشهدُ أنهم على جنون سرعتهم ومغالاتهم في الاجور التي يتقاضونها يتمتعون بمستوى عال من الادب والتهذيب ، ويتمثل هذا في اسلوبهم في التعامل وفي حديثهم معك ، وهذه الظاهرة واضحة بين كل افراد الشعب أينما اتجهت . ومن عباراتهم المألوفة كلمة (تُكْرَم) بضم التاء واسكان الكاف وفتح الراء تقال لك من البائع والسائق والنادل والتاجر كلما طلبت شيئاً ، او سألت عن شيء ...

وطارت بنا السيارة من بيروت الى مغارة جعيتا متخذة من سيف البحر الابيض طريقاً ، وما أروعه من طريق ، عن يمينك الرياض ، والمنازل الانيقة والميادين الرائعة ، وعن شمالك البحر المديد بهديره وموجه ، وفي جوانب منه — وكنا في طلائع الصيف - الشباب من الجنسين ، بلباس البحر الذي لا يستر الا قليلاً — سابحين في الماء ، وجالسين على رمال الشاطىء لاعبين ولاهين في مرح الشباب وصخبه وسحره وفتونه .

وانحرفت السيارة عن الشاطىء لتعلو طريقاً جبلياً وعراً ، لا لأن الطريق غير معبد ، بل لأنه يضيق ويضيق حتى لا يتسع الا لمرور سيارة واحدة بين

جبال شديدة الارتفاع تطل على هوات سحيقة مخيفة تذكرني بطريق كرن في اسمرا ، ومع هذه الوعورة والخطورة فان السائق يأبى الا ان يطير ، ولكم كادت قلوبنا تقف في منحنيات ومنعطفات تلك الجبال ، فلو جاءت سيارة من الطريق الآخر والتقت بنا في احدى تلك المنعطفات لحدثت كارثة !..

ولكن يبدو ان السائقين قد مرنوا على تلك الطرق وألفوا أخطارها، وصارت لهم حاسة سادسة تهديهم وسط تلك المخاطر التي كانت تحف بنا .. لقد سمعنا من الكثيرين هنا أن سائقي التاكسي في لبنان يعتبرون من امهر سائقي السيارات في العالم ، ويبدو لي انه قول صحيح .

ومع ما كنا نحس به من خطر الطريق ، فقد راعنا منظر الجبال العالية والماء يتدفق منها هادراً او منساباً . لقد بدت بعض الجبال كالجنان خضرة ونضرة ..

واشرفنا على نهر – الكلب – اشهر انهر لبنان – وكنت مشتاقاً لرؤيته مثل غيره من معالم لبنان التي كنت اتوق لرؤيتها ، ولكن نهر الكلب بدا لي وكأنه جدول صغير لا يعدو مظهره احدى قنوات الري في أرض الجزيرة ، ربما كان ادنى قليلاً من الترعة الرئيسية في مشروع الجزيرة ، ولكن جماله يكمن في هذه الطبيعة الرائعة من حوله ، وفي هذه الجبال العالية تمتد في طريقه . فهو وليد من ولائدها الكثر ينبع من بعضها ويحتضنه بعضها – وانهر لبنان كلها تنبع من الجبال فتراها منحدرة من القمم او دون القمم في هدير وخرير ، وتمتد اليها يد الفن والعلم فتسيرها كما تريد وتزيد من روعتها وجمالها ولتنتفع بها في كل وجوه النفع ، منها ما يمد ما حوله بالكهرباء وما يسقي ويروي ، ومـا يجمل (الكازينوهات) فيطوّع ليطوف في قنوات وجداول بين مناضدها وحدائقها ليمتع روادها ويزيد من بهجتهم ومسراتهم !

ودنونا من المغارة التي تحيط بها سلسلة من الجبال العالية ذات الاشجار

المورقة الخضرة وقد قامت بجانبها كازينوهات لطيفة يجري الماء حول مقاعدها كالكثير من أمثالها في هذه البقاع ، وحول مدخلها سيارات عديدة جاء بها رواد المغارة ، فقد كنا كما قلت في يوم الاحد ونزلنا من السيارة ، وكنا اربعة، السيد محمد احمد ابو سن والصحفي السوداني عبد الكريم مهدي وقد لقيناه هناك وقد ترك الصحافة جانباً ليعمل في ميدان جديد ، هو ميدان التجارة وصديق اردني يعمل تاجراً في الكويت دمث الخلق يشاركنا السكن حيث نزل في بحمدون ، وبلغنا مدخل المغارة تحت جبل اشم عالي الذرى ، ودفعنا الموظف المختص رسوم الزيارة ، وسمح لنا بالدخول لنجد امامنا مدراج يتجه الى اسفل نسير عليه لنبلغ بداية المغارة عند سفح الجبل وهناك طالعتنا لوحة رخامية عند المدخل تنبىء ان مغارة جعيتا قد افتتحها الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٦ م وأحسب ان القراء حتى الآن قد حسبوا ان المغارة تحوي رسوماً أثرية وتماثيل وهياكل لتاريخ قديم – كلا ! لا شيء من ذلك اطلاقاً ، انها نهر ضخم يهدر تحت الجبل في تلك المغارة الى مدى بعيد قدر بأكثر من عدة كيلو مترات ، وقد قدر العلماء عمر هذه المغارة التي كونتها الطبيعة بأكثر من مليون سنة ، ولم تفتح الا مؤخراً في عهد كميل شمعون حيث تم افتتاحها بعد ان اعدتها حكومة لبنان اعداداً اضفى على جمال الطبيعة فيها سحر الصناعة والفن[1] .

وتلقتنا في اول المغارة وعند بداية النهر الذي يسمع له هدير العاصفة ، عدة قوارب لتعبر بنا النهر الممتد في جوف الجبل ، وركبنا احدها ، وأخذ ملاحه يجدف بكلتا يديه ، ونحن نغوص في اعماق الجبل رويداً رويداً وبالرغم من اننا في منتصف النهار ، الا ان الظلام أوشك ان يلفنا لولا تلك الانوار الساطعة التي ركبت على جانبي المغارة بطريقة فنية ملفتة . وانساب القارب بنا في هدوء في

(١) اكتشفها بطريق الصدفة شخص يدعى طومسون عام ١٨٣٦ وكان في رحلة صيد بهذه المنطقة ، فوجد نفسه فجأة عند مدخل المغارة ، ودخلها بالواح خشبية في عام ١٨٧٣ الاخوان ماكسويل وويلسون ، وهكذا توالى مكتشفوها حتى افتتحت اخيراً .



الصخور المائية
داخل مغارة جعيتا

طريق ضيقة ، لا تتسع لقاربين في بعض مضايقهـا ، وعلى جانبي النهر ، كانت الصخور المائية التي تكونت على مدى العصور خلال مليون عام تبدو في مناظر عجيبة مذهلة ، بعضها تبدو في هيئة عنـاقيد ، وبعضها في مثل الزهر المختلف المؤتلف ، وبعضها يتراءى على هيئة حيوان ما ، كل ذلك كونته الطبيعة وحدها وأتمت صنعه وما زالت توالي صنع هذه البدائع !.. وهناك ما يشبه القناديل او أثواب القماش الملونة ، وهناك ما هو على هيئة أعمدة ، سموا بعضهـا « برج بيزا المائل » ، وهناك تمثال يشبه النسر وآخر يشبه « يوليوس قيصر » الى آخر هذه البدائع المدهشة التي افتنت فيها الطبيعة وحدها .

وقال محدثونا، نقلاً عن علمـــاء الطبيعة الذين درسوا هذا المكان العجيب وكتبوا عنه، ان بضعة سنتمترات من هذه الصخور المائية تتكون في مدى الف سنة ! وأخذنا نتأمل هذه الصخور المائيــة التي بدت لنا في هيئة هيــاكل متعددة الصور تحيط بنا من كل جانب، وقاربنا يشق الماء من حولها في جوف الجبل، وخيل الي انها تهزأ بنا ! — وماذا نكون بجانب هيكل تجاوز المليون سنة من عمره وما زال في شرخ الشباب يرقب المزيد من هذه القطرات المائيةالتي تترسب على جوانبه ليتكون السنتمتر الواحد منها في عشرات او لمئات الأعوام؟. الا ما أجل وأروع !!

وانساب القــارب على النهر والأضواء الكهربائيــة تلتقي مع صفاء الماء من حولنا لتجعله يشع كالبلور، ولم يكتفِ اهل لبنان بالنور على جوانب الكهف، بل وضعوا بعض الثريات الكهربائية الملونة تحت الماء، فاذا ما دنا القارب منها بدا الماء في منظر ساحر خلاب وقد اكتسى من أضواء الثريات الملونة تحته ألواناً زاهية رائعة .

قلت : كنا في يوم الاحد، وقد نصحنا خلصاؤنا ألا نذهب للمغارة الا في يوم الاحد، ولقد أحسنوا الينا بهذا النصح كل الاحسان !.. لقد شغلت القراء حتى الآن بالحديث عن الصخور المائية والأضواء والنهر الذي يهدر في جوف الجبــل ولم احدثهم بعد عن هذا المرح الدافق الذي كانت تزخر به القوارب من حولنا وهي تعبر النهر، وهل في مقدور قلمي ان ينقل هذا المرح كما هو ؟.. اني عاجز والله !.. فمنذ ان انساب بنا قاربنــا داخل المغارة، والتقينــا بأول زورق في النهر وأصوات الغناء لا تنقطع عن آذاننا، ومنظر الشباب المرح على القوارب يصفق ويغنّي ويضحك في مرح صاخب لا يختفي عن أعيننا !.. وكان القــارب الوحيد الذي لا ينبعث منه غناء ولا تصفيق هو قاربنا . وكان هو ايضاً الوحيد الذي خلا من الوجوه الحسان التي تفيض بالفتنة والسحر !! ولكن الصديق السيد محمد احمــد ابوسن استطاع ان يملأ قاربنــا مرحاً ولطفاً بما كان يرسله من

تعليقاته الحلوة ونكاته الرائعة ، كلما التقينا بقارب يزخر بالطرب والجمال ، ولا غرو فالسيد ابوسن من الشكرية [1] بل ومن « السناب » الذين اشتهروا بسرعة الخاطر وبراعة النكتة ، وقد استطاع بأحاديثه العذبة ان يعوضنا بعض الشيء من حياة المرح التي كانت تضج من حولنا في القوارب الرائحة الغادية والتي كانت تلتصق بقاربنـــا في اكثر الاحايين حيث يضيق النهر فلا يكاد يتسع لزورقين متعارضين . الا اذا تقاربا وتلاصقا ، ولكم أطلت علينا الوجوه المشرقة الوضاءة وأصواتها الندية تشدو بالغناء ، والايدي تصفق ، في توقيع حار ، والقارب كله حياة مرحة صاخبة !.

لقد كانت المغارة تجمع بين روعة الطبيعة التي بنت في رفق وأناة عبر مليون سنة هذا الجلال السامق ، وبين جمال الشباب الصادح الطروب يمرح في القوارب منتشياً بزهو الصبا مفتوناً بسحره !

وبلغنا نهاية الجانب المضيء من المغارة على بعد يقارب الكيلومتر من بدايتها ، وبدا الجانب المظلم اشبه بالقبر الموحش ، خلا من الاضواء فتحامته قوارب الزوار ، وقيل انه يمتد الى اكثر من سبعة كيلومترات ، وعاد بنا القارب متجهاً نحو باب المغارة في مثل الجو الذي بدأنا به ، وانتظمنا خلف عدد من القوارب العـائدة اشبه بقافلة من السفن ، وكانت كلها لاهية صاخبة تغني وتصفق ونحن نشاركها بقلوبنا ، وكل مشاعرنا ، آذاننا مرهفة لسماع الاصوات الندية ، وعيوننـا تلتهم كل ما حولها من روائع وفتن ، وتعلو ضحكاتنا آناً بعد آن على تعليقات ونكات -- شيخ العرب -- ابوسن -- كلما استبدت به وبنا النشوة ، وأحسسنا بأننـــا رجعنا للوراء عدة سنوات .. لقد كان وهماً جميلاً ليته لو دام !.. وخرجنا من المغارة ، وانا أردد ما قاله المتنبي على لسان حصانه وهو يفارق شعب -- بوان الساحر النضر :

---

(١) الشكرية قبيلة مشهورة في السودان ، و « السناب » هم الاسرة الحاكمة لهذه القبيلة .

يقول بشعب بوان حصاني　　أعن هذا يسار الى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي　　وعلمكم مفارقة الجنان

وفي باب المغارة ، شهدنا لوناً آخر من ألوان التحايل على الرزق ، فقد استرق لنا احد الفتية صورة ونحن داخلون الى المغارة وكانت تلك وسيلته للرزق فلما عدنا خارجين تلقانا بصور بعددنا ومدها الينا طالباً فيها مبلغاً يسيراً ، ولم نتردد في ان نعطيه ما أراد ، وقد حمدنا له ان سجل لنا تلك الزيارة في صورة لطيفة. وعدنا الى بحمدون بعد يوم حافل في مغارة جعيتا التي كونتها الطبيعة خلال مليون عام تغيرت فيها معالم الحياة وذهب أناس وأناس لم يبق منهم اثر ، وتضاءلت انفسنا حيال بضعة سنتمترات تبنيها الطبيعة هناك خلال الف عام. وماذا يكون الالف والمليون ازاء عمر الزمان ؟.

وغفرت للشباب في نهر المغارة ما كان فيه من مرح وصخب ونشوة في حياة لا تطول الى جزء يسير من عمر بضعة سنتمترات للطبيعة في مغارة جعيتا !

ألا ما أضأل شأننا في هذا الوجود !!



صيدا وصور واخوان بصبوص

اما هذه المرة فان رحلتنا تبدأ من الجامعة الامريكية في بيروت وقد جئتها موفداً من قبل وزارة التربية والتعليم مع رفاق اعزاء لحضور احدى دوراتهـا الصيفية التي تعقدها عادة لمناقشة الشؤون التربوية والتعليمية وتدعو اليهـا وفود المعلمين من كل البلاد العربية وغير العربية على مختلف المستويات التعليمية .

وقد نعمت بالتعرف الى نخبة ممتازة من معلمي الاقطار العربية الذين اشتركوا في هذه الدورة وكانت فترة التقائنا في بيروت دافعاً قوياً لتوثيق الروابط بيننا وتقوية الاواصر .

وكانت رحلتنا التي اتحدث عنها الى مدينة (صيدا) احدى المدن التاريخية القديمة العهد والتي تقوم فيها (قلعة) حربية تعد من اقدم القلاع .

وانطلقت بنا السيارات في طريق يمتد على شاطيء البحر الابيض المتوسط الذي سقطت عليه اشعة الشمس صباح ذلك اليوم اللطيف الجو ، فأحالت منظر مياهه الهادئة الثائرة الى ما يشبه الوان قوس قزح فتنة وروعة .. وعن شمالنـا ارض لبنان التي يهديك كل شبر منها تمر به اروع ما تهديه الطبيعة الخلابة .

وهتف بنا احد الرفاق السودانيين وهو يشير بيده الى بقعة مونقـــة ..

كردفان[1] !.. كردفان !.. وكان صادقاً في هتافه الذي صدر من اعماق قلبه وقد رأى تشابهاً فريداً بين مظهر الطبيعة في تلك البقعة وبعض اجزاء كردفان عندنا .. نبتها.. وأشجارها التي لا تعلو عن الارض كثيراً ولون ارضها السمراء..

وقفنا عند منطقة اثرية قرب بيروت تجري فيها حفريات لكشف مدينة رومانية قدر عمرها بنحو ثلاثة آلاف من السنوات !.. واتجهنا الى مقبرة هذه المدينة الأثرية حيث ازيح التراب عن عظام الموتى ، وكان منظراً محزناً حقاً ان نشاهد تلك الهياكل الادمية متلصقة بالارض في اوضاع مختلفة ولم يبق من اجسادها غير هذه العظام النخرة تحدث عن مصير الانسان مهما عظم امره في هذه الحياة الفانية .

واستأنفنا رحلتنا نحو مدينة صيدا ، وتراءت لنا ونحن نقترب منها لطيفة تهش النفوس لرؤيتها وقد احتضنها البحر تمتد مياهه الى جوانبها في تعاريج وتضاريس وتذكرت عند رؤيتها مدينة (سواكن[2]) فهي شديدة الشبه بها من حيث الوضع الطبيعي ، وكم تمنيت لسواكن مثل هذا العمران والحيوية التي تمج بها رصيفتها صيدا ..

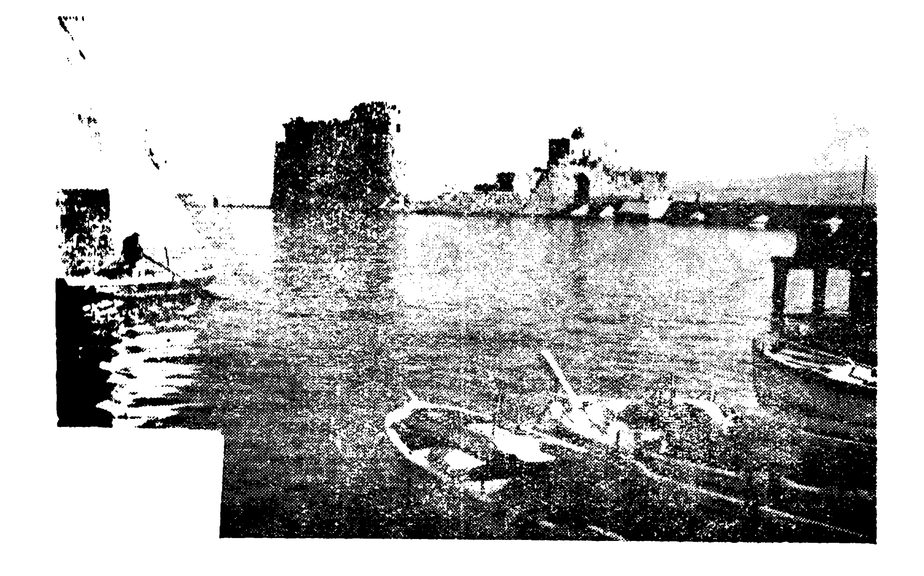
(وصيدا) و (صور) و (جبيل) هذه المدن اللبنانية الثلاث تعد من اقدم المدن التاريخية في العالم ، وفي كل منها آثار تشهد بأنها موغلة في القدم ، وكان طبيعياً ان نتجه اول ما نتجه الى القلعة التاريخية التي تقوم على شط البحر في صيدا .. القلعة التي تشهد بقدم عهد المدينة وبتلك الحقب التاريخية التي تعاقبت عليها وطبعت كل منها آثارها على قلعتها .

والقلعة ضخمة تتكون من طابقين تاريخيين ، كان حماة المدينة يتحصنون بها

---

(١) كردفان مديرية في غرب السودان .

(٢) سواكن ميناء سودانية على شاطىء البحر الاحمر تجاه « جده » .



قلعة صيدا البحرية التاريخية

عند ملاقاة العدو ، من البحر والبر .. ودخلنا من بابها الضخم الى الطابق الاول وقد امتد البحر امامنا ، وتلوّت ألسنته العديدة من حول الطابية فزادت من روعتها — ومن هذا المكان ومن طريق هذا البحر خرجت سفن الفينيقيين لأول مرة تجوب شواطىء اوربا وشمال افريقيا لا لتغزو البلاد غزواً حربياً وانما لتفتح آفاقاً جديدة في عالم التجارة ، فقد انبعث من هذا المكان اول اسطول تجاري يقوده الفينيقيون اصحاب هذه الارض الأوائل ، لهذا لم اعجب قط ان عرفت في تجوالي ان أبرع التجار وأقدرهم على اجتذاب الناس للشراء هم تجار لبنـان ، ولعل مرد هذا الى ان التجارة تجري في دمائهم منذ آماد بعيدة .. منذ ان خرجت سفنهم منذ آلاف السنين تغزو العالم غزواً تجارياً محضاً ، فلم تُبق مكاناً على الشواطىء الافريقية والاوربية حتى غزته ، وبلغت في سيرها شمـالاً حتى الجزائر البريطانية التي لم تكن آنذاك شيئاً يذكر في التاريخ .

كان محدثنا يسوق الينا تفـــاصيل كثيرة عن الفينيقيين الذين كانوا اول من وضع اساس هذه القلعة منذ خمسة آلاف من السنين، ثم تعاقب عليها الاشوريون ابان أمجادهم ثم اليونان فالرومان فالعهد المسيحي ، وكل من هؤلاء أضاف اليهـا شيئاً جديداً يتحدث عنه عبر القرون - ان الفينيقيين لم يقفوا عند نشر التجارة وان التاريخ يسجل لهم مفخرة فريدة فقد كانوا اول من أهدى أحرف الكتابة للعالم ..

وجـــاء العهد العربي الاسلامي ليضع طابعه الخاص ايضاً . فتلك الأعمدة الضخمة جدد بناءها يزيد بن معاوية ثاني خلفاء بني أمية .

وعندما انتصر مجدد الاسلام صلاح الدين الايوبي في موقعــة (حطين) تلك الموقعة الفاصلة التي قضت على عهد الصليبيين في الشام كله والتي كان يقودهــا في عهد صلاح الدين ريتشارد المشهور (بقلب الأسد) ورضي بعد ان خسر المعركة امام صلاح الدين ان يغادر الشام نهائياً بمن بقي له من قوة ، جاء صلاح الدين الى قلعة صور هذه وترك طابعه المجيد على آثارها ، ومنها خرج ريتشارد مقهوراً ..

وصعدنا بالسلم الحجري الأثري الى الطابق الثاني ، والجدران السميكة تحيط بنا حتى كدنا نحسب الوقت ليلاً لفرط الظلام لولا بعض الضوء الذي كان ينبعث من فجوات صغيرة متباعدة كان المحاربون في القلعة ينظرون منها الى مواقع العدو.

وتذكرت وأنا أصعد الدرج في هذا الممر الحجري المظلم اولئك الرجال الذين سلكوه من قبلنا .. وخيل الي أني أضع رجلي حيث كان يضع رجليه ابو عبيدة من قبل وصلاح الدين الايوبي من بعد وهما يصعدان هذا الدرج ..

فيا لرهبة التاريخ !..

وبلغنا أعلى القلعة ، وتراءت صيدا تحتنـــا كحمامة بيضاء ترقد عند سيف البحر .. وقوارب الصيادين تجوب البحر فلا ينقطع مرآها أينما اتجهت .

وقضينا ساعة ممتعة في هذا المكان الجميل، نتنقل بين عطاءات التاريخ ومآثره، بين جمال البحر وسحر المدينة البيضاء .

وقالوا هيا الى نهر (الدامور) حيث يلتقي بنهر آخر – وهفـا القلب الى (المقرن) في الخرطوم وما اكثر مـا يهفو الفؤاد الى الوطن مهما كان النعيم الذي يعيش فيه !.

وارتفع بنا الطريق فوق قنن الجبال ، وما اكثر ما ترتقي الطرق قنن الجبال في لبنـــان ويتبدل الجو فيكون بارداً منعشاً في الصيف ، وفي الشتاء تكلمي هامات الجبال بالثلوج ويهرب سكانها الى بيروت فراراً من قسوة الشتاء كما يهرب سكان بيروت الى الجبال في الصيف فراراً من قيظ الحر .

وجبال لبنان قد أشقت من قبلنا (أبا الطيب المتنبي) عندما اجتـازها في رحلة من رحلاته فقال :

بيني وبين أبي على مثله شم الجبال ، ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء ، وصيفهن شتاء
ليس الثلوج بها على مسالـكي فكأنها ببيـــاضها سوداء

لقد شبه المتنبي بياض ثلوج جبال لبنان بظلمة الليل التي يتعذر السير فيهـا كتعذره في هذه الجبال المكللة الهامات بالثلوج .

وبلغنا ملتقى النهرين الموعود ! وهو موضع طبيعي فاتن .. ولكن النهرين لم يكونا غير جدولين صغيرين تعبرهما في لحظات ولا يعدو ماؤها منتصف الساق في أعمق مكان منهما !

ولكن اهل لبنان – كالعهد بهم – مهروا في تجميل الطبيعة وافتنوا في ذلك اجتذاباً للناس ، ففي هذا المكان كازينو أنيق لطيف، قام حوله النبت والشجر والزهر ، ما كان منه طبيعياً وما زينته يد الانسان ، فطاب المقام ولذ الطعام..

وانطلق رفاق الرحلة يغنون وينشدون الأناشيد ، وافتن الزملاء العرب في اسماعنا وإطرابنا . وافتقدنا نحن السودانيين نشيدنا الوطني ! ولكم أحرجنا في هذه الرحلات عندما كانت ترتفع أصوات الأساتذة من كل بلد عربي بنشيدهم الوطني وبالأناشيد الاخرى التي تتدفق بالمشاعر الوطنية السامية .. وكم طلبوا الينا ان نسمعهم نشيدنا الوطني ونحن نخلق الاعذار دفعاً للحرج !

الى جبيل

وكان لا بد وقد شهدنا مدينة (صور) التاريخية ان نلم بأختها (جبيل) والتي يزعم من أرخوا لها انها ليست أقدم من صور فحسب بل أقدم مدن العالم!

وكما سرنا على سيف البحر الى صور ، فقد امتعنا الطريق الى جبيل وهو يسير بنا حذاء هذا البحر ثم يصعد بنا الجبال التي هي طابع لبنان الاصيل ، فالحياة في هذه الجبال هي التي تمثل وجه لبنان الحقيقي .. وارجو الا يظن القارىء انها جبال جرداء موحشة ، بل هي جنات تجري من تحتها وحولها الانهار وتتفجر الينابيع وتبدو الحياة عليها زاخرة بكل ما هو حي وجميل وفاتن .

وفي (جبيل) نصعد ايضاً الى قلعتها التاريخية .. وجبيل تحمل تاريخياً اسم (بيبلوس) وآثارها تمتد الى العهد الحجري ، ثم تتصل فيها الحضارات الانسانية على النحو الذي ذكرنا موجزه عن قلعة (صيدا) .. ولكنهم هنا يستدلون على قدم عهد بيبلوس بالعثور على اضراس انسان وحجر معروف قال علماء الآثار عنهما انهما يرجعان الى العصر الحجري ، وقدروا عمرهما بأكثر من تسعة آلاف سنة ! وهو عمر بيبلوس حتى الآن ما لم يكشف عن اثر آخر يعود بها الى اكثر من هذا !..

لم أجد في بيبلوس ما وجدته في صيدا من روعة وسحر ، الا ما يوحيه التاريخ الماثل في احجارها وقبورها الدارسة والمدن التي لم يبق منها غير ركام من الاحجار.

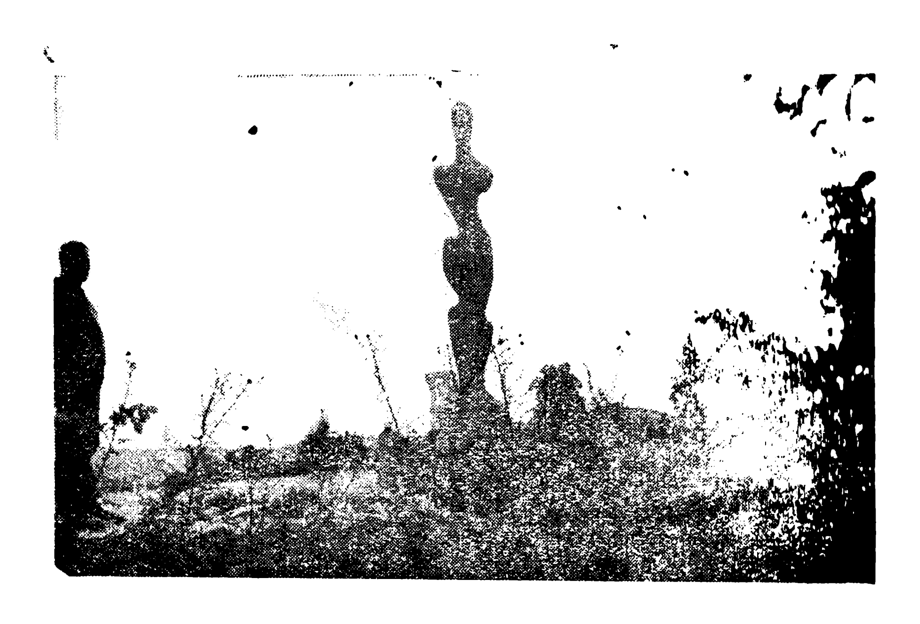


من الفن التجريدي للفنانين
على جانب من المسرح الصيفي

اخوان بصبوص

ومثلما عدنا من صيدا لنجد تلك الجنة الصغيرة عند نهر الدامور ، فقد كان القدر يدخر لنا ايضاً مفاجأة لطيفة عند قرية راشانا ، وهي قرية تعتلي الجبال ملتصقة بالبحر ، فنالت من سحر كليهما ما يمتع الرائي .

وفي هذه القرية اللطيفة يسكن فنانان لبنانيان نالا شهرة عالمية واسعة في فن الرسم والنحت ، تعرفهما كل الاوساط الفنية ، وعرض انتاجهما في اكبر المعارض العالمية وتحدثت عنهما كبريات الصحف هما الشقيقان — الفريد وميشيل — وقد اشتهرا باخوان (بصبوص) .



في حديقة دار الفنانين

وقد قام هذان الشقيقان بعمل فني فريد سيسجله لهما تاريخ هذه القرية، فعلى جانبي الطريق المؤدي الى راشانا وضع الفنانان التماثيل الرائعة التي يحمل كل منها فكرة ما على مسافات متقاربة ، فأنت مأخوذ بجمال الطبيعة المتجلي في حدائق الفاكهة والزهر ، وبهذه التماثيل على جانبي الطريق للشقيقين الفنانين تأخذ باللب، ولكم تمنينا أن لو طال طريقنا الى راشانا !

وما زال الطريق يعبق بالزهر والفن والفاكهة حتى دخلنا دار الفنـانين في القرية الجميلة حقاً .

وفتنتنا دار الفنانين أضعاف ما فتننا الطريق ، ولا عجب فالذي يدفعـــه حب الفن ليزين الطريق الى قريته بهذه التماثيل الرائعـة ، خليق به ان يجعل من داره جنة من الفن والجمال .

كانت الدار واسعة الفناء ، زين كل شبر منها بزهر جميل او شجرة فاكهة دانية الثمار يتخلل ذلك في اوضاع منسقة التماثيل الرائعة في اوضاع تجذبك قسراً.

ودخلنا الى الغرف التي خصصها الفنانان للعمل، وقد امتلأت بمختلف التماثيل وأنواع الرسم ، منها ما تم انجازه وعلق على الجدران او ثبت على شيء ما ربما يتم نقله الى حيث يراد به .. وكان واضحاً ان الفنانين من انصار الفن التجريدي فقد تعذر علينا تفهم المعنى المراد لبعض الرسوم والتماثيل التجريدية الا بعد الاستعانة بأحدهما .

ولا اريد ان اقف هنا عند هذه المدرسة التجريدية الحديثة التي غزت الفن والأدب معاً ، ولكني اسجل صادقاً اني شعرت بكثير من المتعة وانا انتقل بين الاعمال الفنية لاخوان بصبوص رغم جنوحها للتجريد .

ودار الفنانين تطل على البحر وتشرف عليه من عل ، وقد استغل الفنانان هذا الوضع أحسن استغلال فأقاما خلف الدار – في الجانب الذي يطل على البحر – مسرحاً صيفياً لطيفاً للغاية يقدمان فيه بعض الفرق التمثيلية ويهرع اليه عشاق الفن من كل انحاء لبنان – وهو مسرح مكشوف زينت جوانبه بقطع فنية من التماثيل التي صنعها الفنانان فأضفت على المسرح جواً فنياً مزدجاً .

كان امامي في احدى غرف الفنانين التي حوت عدداً من اعمالها الفنية الرائعة دفتراً كبيراً اعد ليسجل فيه الزوار ما شاءوا من كلمات ، اخذت اقلبه واقرأ لأشتات من الناس من مختلف البلاد عبارات التقدير والثناء واستهواني من بينها ما خطه بعض الشعراء ، واذكر هنا ما سجله شاعر اسمة (انطونيوس عطية) قال :

هذي رسالة اجداد لنا سلفوا   من بعد ان بَلْوَروا المجهول والقدرا
زالوا وقد تركوا الامجاد حاملة   وقام من ولْدِهم من انطق الحجرا

وكتب (انطوان اديب) :

ان يشتكي الصخر للازميل يجرحه فالروح قد بعثت من مهدها فيه
يكفي (لبصبوص) امجادا ومفخرة فالمجد في الفن ان الصخر يحييه

وكتب آخر لم استطع ان اتبين اسمه :

لبنان ينبغ دائما برجاله والفن لازم ارضه ازمانا
وكذا بعصر العلم جدد عهده ، من لم يصدق فليزرْ (راشانا)
فيرى (لبصبوص)الروائع تنجلي بجمام قـــائمة له برهانا

وفي الكراسة روائع اخرى نثرية وشعرية حتى غدت وحدها قطعة فنية ادبية تستحق الوقوف عندها مثلها مثل هذه الروائع التي تحفل بها الدار .

هل انسى تلك البشاشة والايناس والتواضع الجم من الفنـــانين الكبيرين الكريمين وهما يستقبلاننا ويودعاننا بكل ما في قلبيهما من مشاعر نبيلة صادقة ؟

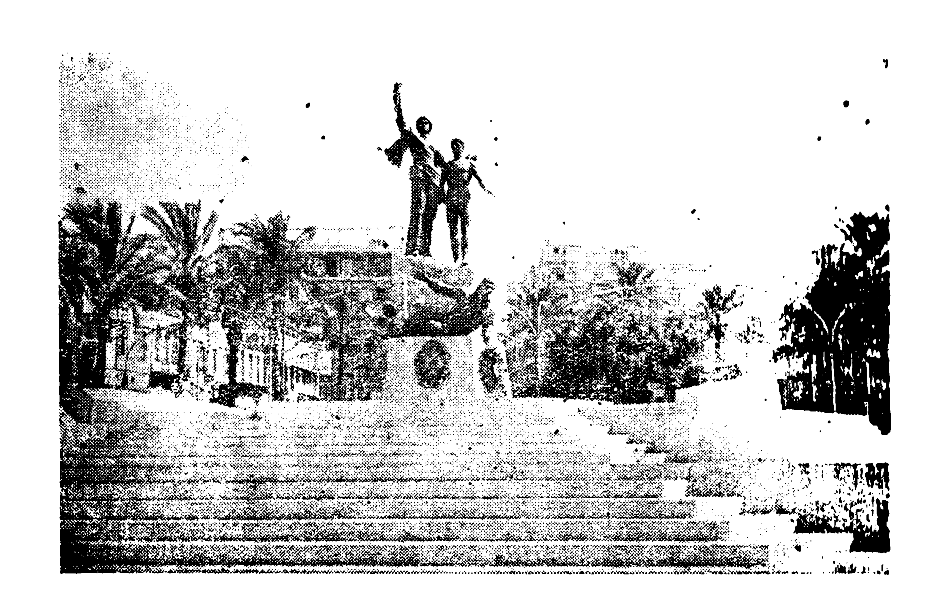
وقبل ان اغادر دار الفنانين أدرت بصري استجلي هذا الجمال الفاتن في راشانا والى دار الفنانين العالية المطلة على البحر ، والزهر والشجر وروائع الفن تحيط بنا من كل جانب ، والشمس تنحدر الى المغيب واضواؤها الشاحبة تلون المكان كله ، وتنعكس على مياه البحر لتكسبها سحراً وفتنـــة .. وقلت في نفسي ، كيف لا يكون مبدعاً خلاقاً في فنه من يعيش في مثل هذا المكان الساحر ؟!

جولة حول بيروت

شهداء العروبة

الذين زاروا بيروت لا بد ان يكونوا قد وقفوا – كما وقفت اكثر من مرة – عند ذلك التمثال الضخم الذي تحمل قاعدته عدداً من الشباب الابرار في اوضاع مختلفة تثير الحمية في النفوس ، اولئك هم شهداء القومية العربية ، عندما كانت فكرة القومية العربية في المهد يعمل لها هؤلاء الشبان وشيوخ اجلاء في جمعيات سرية في مختلف البلاد العربية – كان ذلك عندما كانت تركيا تسيطر على العرب وتحتل بلادهم ، ويجلس على عرشها خليفة المسلمين الذي كانت تدعو له مساجد المسلمين في كل مكان .. ومـا زلت الى عهد قريب استمع الى بعض ائمتنا هنا يختمون خطبة الجمعة في المسجد بالدعاء لخليفة المسلمين بعد مـا زال اثره من الوجود بعشرات السنين .

وفي قلب بيروت ، حيث تقوم الاسواق العامرة وتتدفق الحياة حـارة صاخبة ، يقوم ميدان الشهداء يتوسطه هذا التمثال الضخم يوحي للشعب العربي جيلاً بعد جيل ما بذله من فداء وتضحية الجيل العربي الذي واجه تحدي الاتراك للقومية العربية وعمل على سحق قادتها ومؤيديها اينما ظفر بهم .



تمثال الشهداء ببيروت

ففي اليوم السادس من شهر مايو عام ١٩١٧ استطاع السفاح التركي المشهور في التاريخ – جمال باشا – وكان حاكماً لكل من سوريا ولبنان باسم خليفة المسلمين في تركيا ، ان يصدر حكمه بالاعدام شنقاً على عدد من قـــادة القومية العربية في لبنان ، الذين كانت تنتظمهم جمعية سرية ، بعد ان اكتشف امرهم هم واخوة لهم في دمشق كرمتهم سوريا ايضاً واعـــدت لذكراهم ميداناً للشهداء كهذا الذي يتوسط اجمل مناطق بيروت واكثرها حيوية وحركة ..

وقد جعلت حكومة لبنان – منذ ان نالت استقلالها – اليوم السادس من شهر مايو (ايار) من كل عـــام عيداً وطنياً تحيي فيه شهداء العروبة والحرية والاستقلال .

وتحتفل لبنان بهـــذا اليوم التاريخي احتفالاً رسمياً وشعبياً اذ تمتلىء ساحة

الشهداء بمواكب المواطنين يتقدمهم كبار رجـال الدولة ، ويلقي السيد رئيس الوزراء كلمـة تفيض بالوطنية والتمجيد للشهداء ، وذلـك باسم السيد رئيس جمهورية لبنان ويتحدث ايضاً السيد رئيس مجلس النواب عـن مجلس النواب ، ويتحدث مندوب عـن لجنة (عصبة) تكريم الشهداء ، ويتحدث ممثل لاسر الشهداء .

وهذا تقليد سنوي يؤدى في مثل هذا اليوم من كل عام، يتحدث فيه رئيس الوزراء نائباً عن فخامة رئيس الجمهورية ، ويتحدث رئيس مجلس النواب عـن الامة التي يمثلها المجلس ، ومندوب عن عصبة تكريم الشهداء ، ومتحدث عـن اسر الشهداء ، وتتعالى هتافات الشعب تحيي الشهداء وتشيد بدورهم البطولي في تحرير لبنان .

ولا يقف تكريم الشهداء في هذا اليوم عند حـد هذا الحفل الرسمي الشعبي الذي يختتم عادة بعرض عسكري كبير ، بل ما يكاد ينتهي العرض العسكري الفخم حـتى تتجه مواكب جميع طلاب المدارس – فتية وفتيات – وجميع الكشافة وجماهير غفيرة من الشعب تتقدمها اسر الشهداء وتسير هذه المواكب الحاشدة الى مقبرة الشهداء ، حتى اذا ما بلغوها نثروا عليها اكاليل الزهر النضر وحيوهم بالهاتف والدعاء ، وبهذا ينتهي الاحتفال بذكرى الشهداء .

صورة للوفاء النبيـــل هزت مشاعري ، وذكرت عندها شهداء الحرية في بلادي، منذ عام ١٩٢٤ حتى خرج الاستعمار مدحوراً .. ماذا فعلنا من اجلهم؟ بل من اجل انفسنا ، ومن اجل غرس روح التضحية والفداء في نفوسنا ونفوس أبنائنا والأجيال التي تأتي من بعدنا ؟

ان الشهداء لن يفيدوا شيئاً بهذا الذي نفعل عنـــدما نكرم ذكراهم ونمجد بطولتهم ، ولكننا – نحن الأحياء – نفيد من هـذا التكريم ، اذ نستوحي من تضحياتهم ما نخلق به جيلاً من البطولات التي نتغنى بها ..

واخيراً.. من هم شهداء لبنان الذين يحتفى بذكراهم كلما أشرقت شمس اليوم السادس من شهر مايو ؟

وما هو الدور البطولي الذي اضطلعوا به في معركة التحرير ومعركة القومية العربية عندما انبعثت من القادة العرب للخلاص من نير حكم الأتراك ؟

ان لهذا قصة تاريخية لا بد ان نقف عندها ملياً ، وسأرويها فيما بعد هذه الجولة .

الثقافة في بيروت

كنت كلما أخذت حظي من التجوال في ساحة الشهداء ، أنتقل الى الاسواق المجاورة لها الحاشدة بالناس وبكل ما يباع ويشترى ، ولا بد من ان اشير هنا الى أخطاء صغيرة كنت ارتكبتها دون وعي ، ولكنها تثير سائقي التاكسي خاصة – والتاكسي هناك يسمونه (سرفيس) .. فقد كنت على عادتنا هنا لا أدفع له اجره الا بعد ان أنزل من السيارة فأدخل يدي في جيبي واخرج له اجره متمهلا . وكان هذا يثيره حقاً ، فقد اعتاد الناس هناك ان يدفعوا لسائق السيارة اجره بمجرد ان تتحرك بهم السيارة . ولحظت ان السائق يستلم اجره بيد ، بينما تكون يده الاخرى على عجلة القيادة والسيارة منطلقة بسرعة تتجاوز المائة كيلومتر !.. وقد يرد لبعض الركاب (الفكة) .. كل هذا والسيارة في اقصى سرعتها ، حتى اذا ما بلغت نهاية المطاف ، نزل الركاب وتفرقوا في سرعة مذهلة وانطلق السائق بسيارته بحثاً عن رزق جديد !.. وليس هناك من احد يدفع الاجر بعد نهاية المشوار الا انا !.. وقد اضطررت بعد ان شعرت بنظرات الدهشة تحيط بي كلما فعلت هذا ، ان افعل مثلهم فما أكاد اجلس على مقعد السيارة حتى أدس في يد السائق اجره كما يفعل الآخرون .

ظاهرة اخرى كانت تسترعي انتباهي كلما تجولت في شوارع بيروت التي

تخترق اسواقها العديدة ، هي انتشار المكتبــات ، وأكاد اجزم اني لم أخترق شارعاً لم تعترضني فيه عدة مكتبات مكتظة بالكتب والناس ولا عجب فان نسبة التعليم في لبنان قد بلغت ٩٣٪ .

وفي اكثر من مرة كنت أتحدى مرافقي من زملائي السودانيين عندما كنا في اجتماع بالجامعة الامريكية – بأنا لن ننتهي من جولتنـا في شارع ما دون ان تعترضنا اكثر من مكتبة فيه ، ولم يحدث قط ان فشلت في هذا التحدي .

ان مستوى الثقافة مرتفع جداً في لبنان ، والاهتمام بها بلغ الذروة ، وتكاد مطابع لبنان تكون الآن قبلة الادباء والمفكرين العرب من كل الاقطار العربية ولعل من اهم اسباب الاندفاع نحو المطبعة اللبنانية ما يتمتع به لبنان من حرية فكرية مثالية ، فلا أحد هناك يتدخل في حرية الفكر موجهاً او معترضا .

وما زلت اذكر الهجوم العنيف ، الذي شنه ادباء لبنان على وزير الداخلية عندما امر بمصادرة قصه للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي بحجة ان فيها ادباً جنسياً فاضحاً .. وقد كان هجوم ادباء لبنان وصحافتها يرتكز اساساً على رفض ان يكون هناك حجر فكري من قبل السلطات على انتاج المؤلفين ، فان القارىء وحده هو الحكم على هذا الانتاج .. وعندما عرضت قضية مصادرة كتاب ليلى بعلبكي على القضاء ، ناصرها وامر باطلاق سراح الكتــاب فوراً .. وكانت حيثيات الحكم انتصاراً لحرية الفكر ودحراً لاسلوب المصادرة الذي انتهجـه وزير الداخلية .

لقد حاولت عبثاً – رغم حرصي البالغ – ان اقرأ كل ما يصدر من صحف ومجلات في لبنان ، واعتقد ان لبنان ينفرد بنسبة عاليــة في اصدار الصحف والمجلات ، فقد بلغ عدد الصحف التي تصدر يومياً اكثر من ستين صحيفة .. اما المجلات الاسبوعية ونصف الاسبوعية والشهرية فقـد تجاوزت المائة وفي احصاء بعثة فرنسية تدرس اوضاع لبنان ذكر ان الصحف المختارة التي تصدر في لبنان هي ٣٦٧ !!!

وكل هذه الصحف والمجلات تتمتع بحرية تامة .. وما من فكرة او مذهب سياسي الا وله نصير من صحافة لبنان حتى تشومبي قرأت مرة في احدى الصحف حديثاً عاطفاً عليه !.. والسفارات في لبنان تغذي الصحافة بالافكار وبالمال .

ولبنان يعتبر ملجأ اميناً لكل الذين لم يطيقوا العيش في بلادهم بسبب خلافهم السياسي مع حكوماتهم — من ساسة وادباء وشعراء وفنانين من مختلف البلاد العربية يعيشون في امان هناك ، كلاجئين سياسيين .

وحركة الترجمة في لبنان نشطة الى حد مذهل ، فما يكاد يصدر كتاب هام في اي لغة من اللغات الا قدمته في حينه المطبعة في بيروت باللغة العربيـة وفي طباعة انيقة مغرية ، ولهذا فان مطابع لبنان ترفد الثقافة العربية بأحدث ما يجد في الثقافات الأخرى دون ابطاء ، وتعمل بهذا على توثيق الصلات بين الفكر الأنساني ، بجانب ما تحققه من كسب مادي .

الدولة والادب :

بجانب هذه الجهود التي يبذلها الادباء ودور النشر نجد ان الدولة في لبـنان تدرس طريقة العناية برعاية الآداب والفنون .

مثل ذلك ان في لبنان خمس محافظات (مديريات)، تقوم في بعض المحافظات جمعية ادبية تحت رعاية المحافظ احياناً الذي يمثل الدولة في تلك الجمعية ، وتضم الجمعية كل الادباء والشعراء والمثقفين في تلك المحافظة ، ويختار عادة المحافظ كرئيس فخري لهذه الجمعية .

ويرتإي بعض الادباء ان تجتمع الجمعيات الخمس في هيئـة مؤتمر ادبي عام تحت رعاية الدولة .

ان شؤون الفكر تحظى في لبنـان بتأييد وتشجيع بالغ سواء من الدولة أم من ناحية توفر وسائل الطبع والنشر .

ان مركز الثقل للثقافة العربية قد انتقل الى لبنان كما شهد بذلك عميد الادب العربي الدكتور طه حسين .

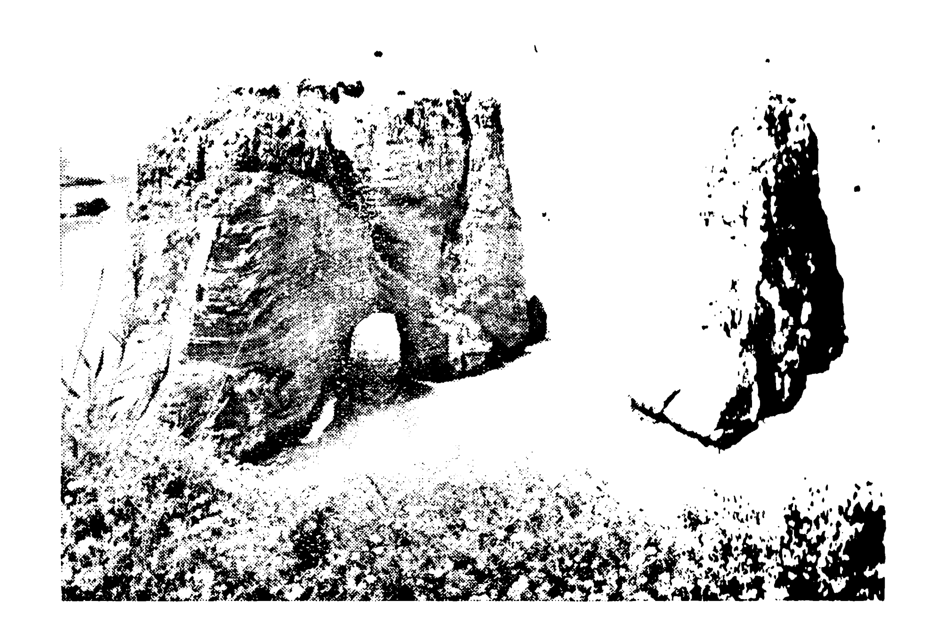
الروشة صخرة العشاق :

أيمكن لزائر لبنـان ان يغفل زيارة هذه الصخرة — الروشة – التي اشتهرت بأنها صخرة العشاق – الصخرة التي ينتحر عندها كل عاشق فشل في حبه وآثر مغادرة الحياة ؟

والروشة تقع في اجمل أحياء بيروت على الاطلاق فهي تطل على البحر الابيض المتوسط في بقعة قامت فيها أجمل المباني ، افتن المهندسون أيما افتنان في تصميمها فلا تقع العين الا على كل منظر خلاب ، ويكاد لا يكون هناك مبنى يشبه الآخر في تصميمه وانك لتحـار حيرة بالغة في الحكم على أيها اجمل منظراً .. فهي كما قال شوقي .. كل مليحة بمذاق .

والشوارع في منطقة الروشة جميلة واسعة على غير العهد بأكثر أحياء لبنان التي يلاحظ ضيق شوارعها ، ولعل مبعث هـذا ضيق مساحة لبنان واحتيـاج الناس الى كل شبر من الأراضي مما اضطر الى عدم التوسع الكبـير في مساحات الشوارع .

والروشة صخرة ناتئة على طرف البحر تحيط بها من جوانب قريبـة أروع الكازينوهات التي يرتفع بعضها في البنـاء حتى يجعلك تطل على البحر من عل ، ويهبط بعضها في البناء سفلاً في أناقة وجمال حتى يجعلك تلامس البحر وتعيش بين أمواجه الهادرة .



الروشة .. حيث ينتحر العشاق !

وفي هذا المكان الساحر سمعت قصصاً عجيبة عن فتية وفتيات قفزوا من صخرة الروشة الى البحر بعد ان فشلوا في دنيا الحب !

ولقد تساءلت لماذا اختاروا هذا الموقع الساحر لنهاية الحياة ..

قال لي بعضهم ، ان هذا المكان من اكثر الأماكن التي يرتادها العشاق لحسن موقعه وجمال مناظره .. ولعل الذين يضيقون ذرعاً بالحياة بسبب فشلهم في الحب يقصدونه للانتحار لما له من ذكريات غالية في نفوسهم ، ولعلهم يؤثرون ان يشهدوا للمرة الاخيرة البقعة التي شهدت ذكريات حبهم وانطبعت على ارضها خطى أرجلهم يتنقلون مع الأحبة هنا وهناك .

ربما كان هذا حقاً .. ولكني ما زلت حائراً كيف يفارق الانسان الحياة راضياً في اجمل مكان في الحياة .

حرية المال :

ولا تقف لبنان عند حد اطلاق حرية الفكر فهي تبيح ايضاً حرية تداول النقد ، وكما تنتشر المكتبات في كل شوارع اسواقها ، كذلك تنتشر الحوانيت التي تبيع اليك كل انواع العملة المتداولة في العالم .

وتنشر الصحف اللبنانية في مكان بارز كل يوم اسعار بيع هذه العملة بالنسبة لليرة اللبنانية ، فأنت لا تجد مشقة في استبدال العملة التي تحملها بأية عملة اخرى تحتاج اليها .

وتنتشر المصارف « البنوك » وتقوم بكل التسهيلات المصرفيـــة في سهولة ويسر . وهي بالمثل تقدم اليك ما تشاء من العملة التي تريدها .

ويقولون ان عدد البنوك في لبنان لا يقاربه عدد آخر في اي بلد من العــالم . ولا غرو فلبنان بلد التجارة الحرة فأسواقه مفتوحة للتعامل مع كل بلد يجد فيه فائدة مادية .

وتجار لبنان كما اشرت اكثر من مرة من ابرع تجار العـــالم وأقدرهم على التعامل .

وهذه النكتة التي تروى عن لبنــان تعبر عن براعة التاجر اللبناني وحرصه على الفائدة ، فقــد سأل مدرس تلميذاً لبنانياً : كم تساوي ٢+٢ ؟.. فأجاب : هل انا مشتر ام بائع ؟.

مع شهداء العروبة والحرية في بيروت ودمشق

تحدثت في الفصل السابق عن شهداء العروبة والحرية في لبنان ، وذكرت شيئاً عن ذلك التمثال الضخم الذي يتوسط ميدان الشهداء في بيروت والذي اقيم لذكرى اولئك الشهداء الابرار ، ووعدت القراء بأن اتحدث اليهم عن قصة هؤلاء الشهداء من هم ؟ وما الدور الذي اضطلعوا بـه حتى استحقوا هذا التكريم ؟.

لا بـد من ان نعود الى الوراء قليلاً ، الى عام ١٨٦٠ ، حيث يحدثنا التاريخ عن مجزرة مخيفة حدثت في لبنان بين الطوائف الدينية ، ولبنان من البلاد التي تتعدد فيها الطوائف الدينية ، ليس بين دين ودين فحسب ، بل بين معتنقي الدين الواحد ، فالمسلمون ينقسمون طائفياً الى شيعة وسنيين ودروز ، والمسيحيون ينقسمون الى مارونيين — وهم الاغلبية — وارثوذكس وكاثوليك ..

كان لبنان آنذاك تحت الحكم التركي ، يخضع لخليفة المسلمين في الاستانة .

وانتهزت الدول الكبرى فرصة الحرب الاهلية الناشبة في لبنان لكي تستلبها من تركيا .

فأعلنت فرنسا حمايتها للمسيحيين في لبنان ، وكانت من اكثر الدول التي لها روابط ثقافية وفكرية بمسيحيي لبنان منذ القرن السادس عشر .

وأسرعت روسيا القيصرية وأعلنت بدورها حمايتها لطائفة الروم الارثوذكس في لبنان !.



ساحة الشهداء ببيروت

وكان من المحال ان تقف انجلترا بمعزل من الغنيمة فأعلنت بدورها حمايتهـا للدروز المسلمين !.

واتسعت المعركة الدبلوماسية حول لبنان فشملت سبع دول كبرى منها النمسا والمانيا .

واجتمع ممثلو الدول التي وجدت كل منهـا فرصة لحماية طائفة من الطوائف الدينية المتقاتلة في لبنان بخليفة المسلمين في تركيا ، واتفقوا على منح لبنان الحكم الذاتي ، وأن يعين عليها حاكماً تختاره الدول السبع بالاتفاق مع تركيا .

وهو اتفاق يذكرنا بعهد الحكم الثنائي في السودان واتفاقية ١٨٩٨ بـين انجلترا ومصر ، اذ نص فيهـا على تعيـين حاكم عـام للسودان تختاره انجلترا وتعينه مصر !.

وقد اختير اول حاكم للبنان بموجب هـذا الاتفاق من بولونيا ، وكان اسمه فرانكو .. ولكن خليفة المسلمين في الاستانة عندما اصدر امر تعيينه خلع عليه اسماً عربياً مسلماً.. فلقبه بيوسف باشا !.. وعرف في تاريخ لبنان بهذا الاسم.. يوسف باشا .. واختفى اسم فرانكو !..

وظل لبنان خاضعاً للحكم التركي منذ عام ١٨٦٠ حتى نشوب الحرب العالمية الكبرى ١٩١٤ - ١٩١٩ حيث جرت احداث خطيرة في هذه الرقعة من الارض كان من أهمها النشاط السري العربي الذي كان يقوده جماعة في سوريا ولبنـان ثم امتد أثرهم الى القاهرة ، ينادون بالقومية العربية وبالاستقلال عن تركيا .

ونشأت جمعيـــات سرية تهدف لتنظيم النشاط وبث الوعي بين العرب لكي يحققوا توحيد كلمتهم والخروج على سلطان تركيا .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، نشط المسيحيون اللبنـانيون في حمل رسالة الدعوة للقومية العربية والتحرر من نير الاتراك .

وكان طبيعياً ان يحمل هؤلاء لواء الدعوة ، وان يكون دورهم أوضح مكاناً، اذ ان المسيحيين في لبنان كانوا أسبق من المسلمين الى الاحتكاك بالثقـافة الغربية والفرنسية بوجه خاص – وعن طريق هذه الثقـافة الغربية تعرفوا الى هذه الافكار الجديدة عن الوطنية والقومية فتأثروا بهـا وحملوا بدورهم لواء الدعوة لها ، فنادوا بالقومية العربية والاستقلال عن تركيا .

ويذكر التاريخ ان من أوائل الدعاة كان اليازجيان المشهوران في التـاريخ العربي ، وما زال المنقبون عن تاريخ هذه الفترة يذكرون الأثر الذي أحدثه ابراهيم اليازجي وقصائده التي كانت تنتقل بين الناس سراً ، اذ ان الاتراك كانوا يحاكمون في قسوة واستبداد كل متهم بالدعوة للقومية العربية ..

أنشد ابراهيم اليازجي قصيدة ما زالت تروى منذ ان أنشدها في الجـــامعة الامريكية ببيروت عام ١٨٧٥ وكان مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا ايهـــا العرب

لقد طما الخطب حتى غاصت الركب

وقد حفظها العرب آنذاك عن ظهر قلب ، وضاعف من أهميتهـا ملاحقة الاتراك لكل متهم بنشرها وحفظها .

وانتشرت الجمعيات السرية التي تدعو للقومية العربية في سائر لبنان وسوريا والقاهرة ، بل تخطت البلاد العربية الى اوربا ، حيث أسس اللبنانيون النازحون في فرنسا فروعاً لهذه الجمعيات ، بل ان الشباب العربي الذي كان يعمل في تركيا او يدرس في مدارسها اشترك في تكوين هذه الجمعيات السرية العربية .

والمتتبع لتاريخ هذه الفترة يحمد للمسيحيين في لبنان — وهم عرب — النشاط الثقافي الضخم الذي بذلوه في سبيل اللغة العربية .

فهناك المعلم بطرس البستاني الذي وضع اول معجم للغة العربية في العصر الحديث ، وقد وضع ستة اجزاء من دائرة المعارف كما ساعده فيهـا ابنه سليم ، ونجد ايضاً سليمان البستاني يقوم بترجمة روائع الآثار الادبيـة عن اللغات الاجنبية ، فهو اول من ترجم الملحمة اليونانية المعروفة (الإلياذة) للغة العربية .

وعندما اشتد ضغط الحكام الاتراك على دعاة القوميـة العربية في لبنان وسوريا ، هرب بعضهم الى القـاهرة وصار يوالي نشاطه من هناك . ومن ذلك جرجي زيدان مؤسس دار الهلال وأمين تقي الدين الذي أنشأ مع زميله انطون الجميل مجلة الزهور التي اشتهرت بدعوتها للقومية العربية ومهاجمة الاتراك .

والسيد امين تقي الدين هذا هو عم السيد منير تقي الدين سفير لبنـان في السودان .

ويذكر القراء ان جرجي زيدان أنشأ سلسلة من الروايات العربية أراد بهـا نشر التاريخ العربي بطريقة محببة وذلك بهدف دعم الروابط العربية بين الشعوب العربية .

وخلال الحرب العظمى الاولى ١٩١٤ — ١٩١٩ نشطت الدعوة للقوميـة

العربية والخروج على حكم الاتراك وقامت في مصر جمعيـة الاتحاد والترقي تعمل جهرة ، وسار لها مؤيدون في سائر البلاد العربية ومن بينها لبنـــان ، الا ان العاملين في هذا الاتجاه كانوا يعملون من خلال جمعيـاتهم السرية خوفاً من بطش الاتراك . وفي تركيا نفسها نشأت جمعيتان سريتان قوامها الشباب العربي الذي كانت تضمه مدارس تركيا وجيشها الذي كان فيه بعض الضباط العرب ، وهما جمعية الفتاة وجمعية العهد . .

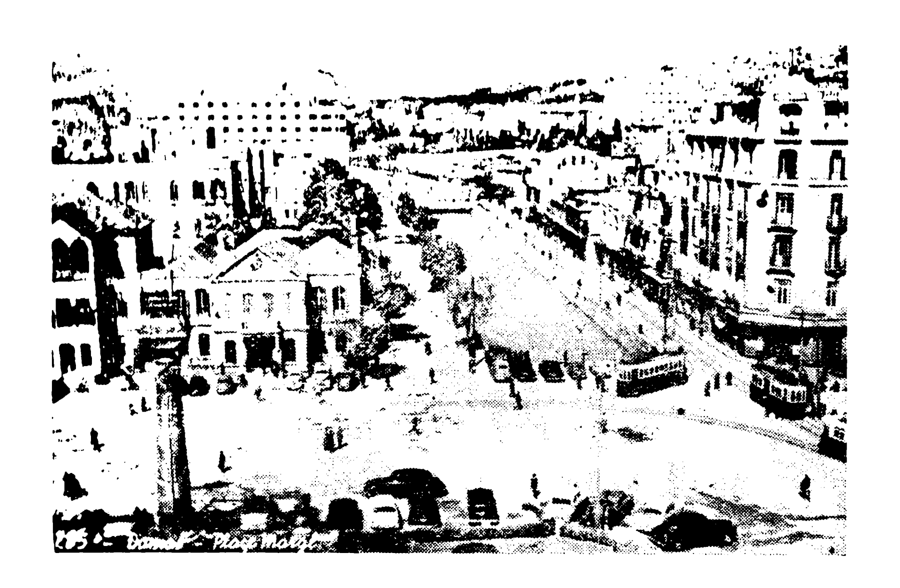
وكان على لبنان في فترة الحرب العالمية الاولى السفاح التركي المعروف — جمال باشا . وقد خلق جواً ارهابياً مخيفاً في هذه البلاد .

وعندما نشبت الحرب المذكورة وكانت فرنسا طرفاً فيها في جانب معسكر انجلترا ، وكانت تركيا في جانب معسكر المانيـــا ، أخلت السفارة الفرنسية مكانها في سوريا ولبنان . وشاء سوء الحظ ان يبقى بين المخلفات التي عثر عليها الاتراك في مكاتب سفارة فرنسا في بيروت ، مذكرات سرية كانت تحمل أسماء الجمعيات السرية العربية وأعضاءها في كل من لبنان وسوريا ، وسرعان ما حملت المذكرات الى الطاغية جمال باشا الذي أمر بالقـــاء القبض على كل الذين وردت أسماؤهم كأعضاء في هذه الجمعيات العربية السرية .

وحكم عليهم جميعهم بالاعدام شنقاً حتى الموت ، وقد تم اعتقـالهم في شهر يونيو ١٩١٥ ، وفي صباح ليلة ٢١ اغسطس ١٩١٥ نفذ حكم الاعدام في الدفعـة الاولى من اولئك الابطال في ساحة البرج ، التي سميت بساحة الشهداء وهم :

عبد الكريم الخليل — صالح حيدر — مسلم عابدين - نايف تللو — محمـــد المحمصاني — محمود المحمصاني (شقيقان) — عبد القادر الخرسا — محمود العجم — سليم عبد الهادي — نور الدين القاضي — علي الارمنازي .

وقد استقبلوا الموت في بسالة فذة .



ساحة الشهداء بدمشق

واستمرت المحاكمات ، وفي اليوم الخامس من شهر ابريل ١٩١٦ نفـذ حكم الاعدام في الشهيد يوسف الهاني .

وفي اليوم السادس من شهر مايو نفذ حكم الاعدام في وقت واحد على ابطال العروبة والحرية في كل من بيروت ودمشق .. ففي بيروت أعدم كل من :

عمر حمد -- محمـد الشنطي — عبد الغني العريس — الامير عارف الشهابي — توفيق البساط — سيف الدين الخطيب — سعيـد فاضل عقل — بابترو باولي — جرجي حداد — سليم الجزائري — علي حاج عمر — أمين لطفي حافظ — جلال البخاري .

وفي دمشق نفذ حكم الاعدام شنقاً في نفس اليوم والوقت في الابطال :

شفيق المظم — الامـير عمر الجزائري — شكري العسلي — عبد الوهاب

الانكليزي . رشدي الشمعة - رفيق رزق سلوم . وغيرهم وقـد بلغ عددهم واحـداً وثلاثين شهيداً كلهم من اعيان دمشق وبيروت وكانوا ينادون بتحرير العرب من يد الاتراك وانشاء دولة عربية واحدة .

ولم يكتف السفاح جمال التركي بكل هؤلاء الضحايا فالحق بهم في الخامس من يونيو ١٩١٦ الشقيقين فيليب وفريد الخازن وهمـا ابنا خالة الرئيس السابق لجمهورية لبنان فؤاد شهاب .

وقد حكم بالاعدام ايضاً على السيد امين تقي الدين الذي سبقت الاشارة اليه في هذه الكلمة الا انه تمكن من الهرب للقاهرة وانشأ مجـلة الزهور للدعوة لمبدأ القومية العربية ومناهضة الحكم التركي .

وقد ابدى هؤلاء الشهداء الذين اعدموا على دفعات شجاعة فائقة في لحظاتهم الاخيرة وحفظت عنهم مآثر رائعة .

من ذلك ان الشهيد عمر حمـد اصر - قبل اعدامه - ان يعدم مـع صديقه الحميم الامير عارف الشهابي في وقت واحد وهمـا متماسكان !.. ورفضت السلطات اولاً هـذا المطلب .. ولكنه اصر عليه والح الحاحاً عنيفاً .. وقبلت السلطات ، واعدم الصديقان الحميمان في لحظة واحدة وهما متماسكان ..

وكان الشهيد عمر حمد شاعرا مجيداً ، وما كاد يعلو المشنقة حتى اخذ ينشد قصيدة وطنية حماسية استهلها بقوله :

نحن ابناء الاولى   شادوا مجداً وعلا

ولكن الجلادين لم يمهلوه ، اذ جروا كرس المشنقة من تحتـه ليهوى ودوي كلماته الوطنية ما زال يزحم الاجواء من حولهم .

لقد ذهب هؤلاء الشهداء في دمشق وبيروت الى لقاء ربهم سعداء بمـا ادوا لمبادئهم ولبلادهم ، وبقيت مبادئهم حية في مشاعر العرب .

فالحرية التي بذلوا في سبيلها ارواحهم قد عمت كل البلاد العربية .

والقومية العربية التي حمـــلوا شعلتها منذ ذلك الوقت ، وفدوها بدمائهم الزكية ، حمل لواءها اليوم رجال اوفياء ، ولا بـد من ان تتحقق بالصورة التي تريدها الشعوب تأميناً لاهدافها في الحياة .

وآنذاك سيكون لهـؤلاء الشهداء الذين يرقدون في ثرى بيروت ودمشق ، وتتوسط المدينتين ساحتان تحملان ذكراهم ، سيكون لهم في كل بلد عربي ذكر ومكان .



الى دار بني أميّة

الى سوريا .... الى دمشق او جلق كما كانت تسمى في أزهى عصورهـا الى دار بني امية حيث التاريخ العربي الناصع ....

وفي الصباح الباكر غادرنا نزلنا في بحمدون (لتطير) بنا السيارة كالعهد بها صوب سوريا لنلقي الرحال عند عاصمتها دمشق الفيحاء .

وشقت السيارة بنا جبال لبنان التي أطلت الوقوف عند جمالهـا الساحر وروعتها الفاتنة وهي ما تنفك كلما طفنا بها تمنحنا سحراً جديداً وفيضاً زاخراً من الروعة والفتنة حتى بلغنا نهاية لبـنان عنـد وادي الحرير – ومن حقهم ان يسموه وادي الحرير ... وكان آخر ما شهدنا من قرى لبنان قرية يسكنهـا قوم من الارمن – اسمها عنجر – قيل انهم جاءوا من تركيا عندما جلاهم عنها خالق تركيا الحديثة كمال اتاتورك. وقد رأينا بعضهم يعمل في حقول القرية رجالاً ونساء واطفالا ، وقد بدت قريتهم بيضاء الدور في صفوف مستقيمة شبيهـة بثكنات الجنود .. ووقفنا هنيهة عند نقطة جمارك لبنان حيث قدمنا للمسؤولين هوياتنا – كما يسمون بطاقات اثبات الشخصية وهي كما ترى تسمية عربية سليمة حبذا لو استعملناها في كل بلد عربي .

ولم نجد عنتاً في دار الجمارك وطارت بنا السيارة ليلقـانا وادي القرن في

الحدود السورية وهو واد يقع بين سلسلة من الجبـال الممتدة على طول الطريق . ليس في مظهره ما يدل على وجود سكان به الا ما يطالعنـا الحين بعد الحين من بيوت الشعر للبدويين التي لا فرق بينها في المظهر وبين ما الفنا من مثيلاتهـا في السودان حتى لتكاد تظن انك في سهول كردفان حيث تنتشر الاحيـاء البدوية المماثلة ، الا انها هنا قليلة متناثرة .

وبدت من بعيد قرية صغيرة ، وقيل ميسلون !..... فخفق القلب وطافت بي ذكريات أمجاد البطل العربي يوسف العظمه وتمثلته في ميسلون هذه يصارع في بسالة فذة وبطولة تتحدث عنها الاجيال ، القوات الفرنسية وهي تتجه لاحتلال بلاده عقب انتهاء الحرب الاولى وقد تكشفت المؤامرات الاستعمارية عن تقسيم املاك تركيا — او الرجل المريض — بين انجلترا وفرنسا — (اتفاقية سايكس بيكو) — وغيرها رغم ما بذل من عهود لعاهل الحجاز الشريف حسين وابنائه وكان المعتقد ان تؤول البلاد العربية التي كانت تحت الحكم التركي الى العرب بقيادة الشريف حسين وابنائه الذين حاربوا في صفوف الحلفاء ضد الخلافة في تركيا املا في تحقيق حلمهم الجميل ، قيام الامبراطورية العربية .

وجاء فيصل بن الحسين الى سوريا حيث نصبه أهلها ملكاً عليها في عاصفة من البهجة والفرح ولكنها فرحة لم تدم الا قليلا حيث تكشف المستعمرون على حقيقتهم وكشرت فرنسا عن نابها وقالت ان سوريا لهـا ، وتنكر الانجليز لوعودهم مع الحسين وابنائه ، وذهب فيصل الى انجلترا يستنجزها وعدها فردته الى فرنسا التي اصرت ان سوريا لها — وعـاد فيصل الى سوريا واعدت فرنسا جيوشها لتحتلها عنوة اذا ابى رجالها ان يستسلموا صغارا !. وقـال وزراء فيصل ان لا سبيل الى المقاومة واهدار الدماء فالقوة غير متكافئـة . وانبرى يوسف العظمه وزير الحربية والقائد البطل واقسم الا يدخـل الفرنسيون سوريا الا على اشلائه . وقاد رجاله الفدائيين والتحم بالقوات الفرنسية في منطقة ميسلون هذه ، وصبوا عليـه ناراً من الطائرات وناراً من مدافعهم الثقيلة وصب عليهم

مثلها مما يملك من عتاد حربي غير متكافيء ولم تكن في قوته طائرة واحدة وكان عتاده الحربي قليلا ، ونازلهم في عنف واوقع بهم من الخسائر ما ذهلوا له !...
واستشهد البطل ودفن حيث استشهد في ميسلون هذه في ٢٤ يوليو ١٩٢٠ .

وقد ثبت ان قوات البطل لم يتجاوز عددها الفي جندي بما في ذلك عدد غير يسير من المتطوعين وكانت قوات فرنسا تتكون من عدد ضخم من الجنود مزودة بالأسلحة الفتاكة تساندهم قوة من الطيران .

واقتربت السيارة بنا من ضريح البطل ، وقلت للسائق : استأن بنا بالله ولا تعجلْ ، فهنا يرقد نبي من انبياء الوطنية .

ووقفنا عند قبر يوسف العظمة ، وهو بناء لطيف أحيط بسور جميل وقامت حول القبر حديقة فيحاء وفي أعلى القبر رمز طائرة تخليداً لما لقي في المعركة غير المتكافئة من الطائرات الفرنسية التي قضت على البطل ولولاها لما وجد الفرنسيون الطريق الى دمشق سهلاً ... واحسست بالرهبة والجلال وأنا اتأمل ضريح البطل ، وفاضت مشاعري وكدت أشرق بالدمع ووجدتني اردد ما كنت أحفظه لشوقي – ومن غير شوقي يخلد البطولات في شعره ؟ :

سأذكر ما حييت جدار قبر	بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت – ميسلونٌ	يذكر مصرع الأسد الشبالا
لقد أوحى اليَّ بما شجاني	كما توحي القبورُ الى الثكالى
تغيَّبَ – عظمةُ العظمات – فيه	وأول سيد لقيَ النبالا
كأنْ بناته رفعوا مناراً	من الأخلاص أو نصبوا مثالا
سراج الحقِّ في ثبجِ الصَّحَارَى	تهاب العاصفات له ذبالا
ترى نور العقيدة في ثراهُ	وتنشق من جوانبه الخلالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا

ملأن الجوَّ اسلحةً خفافاً ووجه الأرض أسلحةً ثقالا
وارسلنَ الرياح عليه ناراً فما حفل الجنوب ولا الشمالا
سلوه ؟ ! هل ترجل في هبوب من النيران أرجلت الجبالا ؟ !
أقام نهاره ُيلقى ويَلقى فلما زال قرص الشمس زالا !
وطاح ترى به قيدَ المنايا ولست ترى الشكيم ولا الشكالا
َفكفُنَّ بالصوارم والعوالي وُغيّبَ حيث جال، وحيث صالا !
اذا مرت به الأجيالُ تترى سمعت لها أزيزاً وابتهالا
تعلق في ضمائرهم صليبا وحلق في سرائرهم هلالا !

ووقفنا ملياً وأبصارنا وقلوبنا عالقة بضريح البطل عظمة العظمات كما سماه شوقي بحق ، ومن البر بانفسنا ان نقف عند الابطال الخالدين في خشية وخشوع وان نوفيهم حقهم من التمجيد فذلك أقل ما يجب أن يؤدى .

وتحركنا منميسلون وأنا ما زلت ممتلىء الجوانح بذكرى ــ عظمة العظمات ــ أحدق النظر في ضريحه حتى غاب عن ناظري .

وانطلقت السيارة في طريق ليس فيه ما يلفت ، اكثره جبال وأودية خالية من القرى ، ومن بعيد كان يتراءى لنا منذ ان دخلنا حدود سوريا «جبلالشيخ» وهو نفسه جبل حرمون الذي لقينا ونحن في طريقنا الى بعلبك ، ولكنهم هنا لا يطلقون عليه غير جبلالشيخ لأن رأسه مكلل دائماً بالثلوج تلوح عليه من بعيد كسحب بيضاء لا تريم عنه ، ان جبليْ « صنين والحرمون » لتمتد على جانبيهما كل من سوريا ولبنان .

وقبل ان نصل مشارف دمشق لقينا طريق جانبي مرصوف يتجه شمالاً الى بعض مصايف سوريا وأشهرها بلودان .

ومن الطرائف التاريخية ان في هذا الطريق الجانبي ، وعلى بعد يسير من

طريقنا الرئيسي ترقد قرية كان يسميها الرومان عندما كانوا يعمرون هذه الاراضي « آبيلا » ، وفي آبيلا هذه قبر يبلغ طوله الاربعة امتار يزعم الناس حتى اليوم انه لهابيل احد أبناء سيدنا آدم واول قتيل أريق دمه في الارض !

ولا يدري احد هل اسم القرية « آبيلا » يعني كلمة « هابيل » أم ان تشابه الاسمين أدى الى هذا المفهوم ؟!

ثم .. هل وجود قبر يزعم انه لهابيل في هذه المنطقة هو مبعث الاسطورة التي تقول ان آدم وحواء عندما هبطا الارض كانت دمشق اول بقعة وطئتها أقدامهما ؟ وبهذا يحق ان يقال ان دمشق أقدم مدن العالم تمشياً مع هذه الاسطورة ؟!

وأوشكنا ان نبلغ مشارف دمشق وأحاطت بنا سلسلتان من الجبال على جانبي الطريق ، وبدت لنا من بعيد جنات دمشق الفيحاء حتى بلغناها وبلغ الجمال ذروته عندما تراءت لنا حدائق « دمر » فجنات « الربوة » التي قال بعض المؤرخين ان سيدنا عيسى قد أوى اليها في فترة حياته !.

والربوة تعد من أجمل ما ترى في دمشق ، وهي ربوة عالية تنحدر المياه من عيون عديدة من جوانبها مثلما رأينا في جبال لبنان . والحدائق الفيحاء بل الجنان التي قل ان ترى لها شبيهاً . قامت هناك في دمر والربوة الفيحاء . وقد أنشئت خلالها الكازينوهات العديدة لتزيد من تنعم الانسان بهذه الجنان وتسيل بينها الأمواه المنحدرة من الربوات في خرير وهدير فهي كما وصفها شوقي :

« وربوة الواد » في جلباب راقصة   الساق كاسية والنحر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها   وللعيون كما للطير ألحان
وأقبلت بالنبات الارض مختلفاً   أفوافه فهو أصباغ وألوان

فسبحان من اهدى كل هذا الجمال لهذه البقعة من الارض .

ودخلنا دمشق وكنت مشوقاً لأرى نهرها الذي ظفر بأروع مـــا قيل في الانهار من الشعر ... بردى !.... ومن ذا الذي يجهل بردى ؟ واينا لم يردد .. سلام من صبا بردى أرق !!.

وكنت أرجو ان يلقانا بردى كما تلقى قبلنا شوقي :

جرى وصفق يلقانا بها بردى   كما تلقاك دون الخلد رضوان

ولكن بردى خيب ظني ! وجعلني اقف عنـده مذهولا وانا اردد : أهذا بردى ؟ والقيت السؤال اكثر من مرة على من معي .. فقـــد ظننتهم خدعوني وجاءوا بي الى جدول رقراق ، وقالوا : هذا هو بردى !... عفــا الله عنك يا شوقي ، فما خدعني شعرك قط في كل ما شهدت وعرفت واحسست الا هنا في بردى .. وزاد من خيبة ظني ان كان هناك صبية صغار يقطعون بردى وثبا بين ضفتيه ويمرحون في مائه الضحل .. واراد من معي — ومنهم قائد سيارتنا وهو من سوريا — ان يخففوا ما رأوه مرتسما على وجهي من علائم الاسى كمن فجع في عزيز لديه .. فقالوا ان بردى يفيض احياناً ويمتلىء حتى يتعذر عبوره على الراجلين في بعض جوانبه .. وان هذا الذي اشهده انما هو فرع من فروع بردى السبع .. ولكني كنت استمع اليهم ببعض اذني وعينـــاي تجوسان بردى الحبيب الذي تبدى لي وكأنه أحد جداول الماء عندنا . وتذكرت — النيل — « أبا الانهار » وتضاعفت عظمته وسموقه في نفسي .. وماذا يكون بردى بجانب النيل ؟ اي نعمة وهبتنا اياها يا رب ممثلة في هذا النيل !.. ولكن بردى قـد استنفدت كل قطرة منه لتهب الناس هناك جنات وارفة الظلال وفاكهة سهلة المنال ، وليتنا استطعنا ان نجعل النيل يهبنا بعض ما وهب بردى !

ولئن خيب ظني بردى فان دمشق كانت فوق ظني.. دمشق القديمة بآثارها

وتاريخها العربي الحافل ، ودمشق الحديثة بفخامتها وروعة مبانيها وخـاصة في الأحياء الجديدة . ويطول الحديث اذا ما أفضت في وصف مظاهر الحياة فيها . وقد وصلتها ابان حوادث القائد – زياد الحريري[1] – وكان الرفاق في بيروت قد نصحونا الا نذهب اليها في ذلك الحين خشية ان تغلق الحدود بين سوريا ولبنان وبين سوريا والاردن .. ولكننا لم نأبه لذلك وبالرغم من حدة الازمة آنذاك ، فقد وجدنا اهل دمشق يؤدون اعمالهم في هدوء وكأن الامر لا يعنيهم كثيراً .. هكذا بدا لنا .. فالأسواق عامرة حاشدة بالناس، والمقاهي والمنتزهات تفيض بهم ..ودور اللهو عامرة .. وخيل اليّ أن أهل دمشق لفرط تمرسهم بمثل هذه الأحداث وتواليها عليهم أصابهم ما يمكن ان نسميه – باللامبالاة – وخيل اليّ ان قصة الحريري – تجد عند الشعب في لبنان من الاهمية وترداد الحديث عنها في كل مكان تجلس اليه ، أكثر مما وضح لي في دمشق موطن القضية – وحمدت لأهل دمشق هذا الهدوء وضبط الاعصاب ، وان كان من العسير ان تحكم على شعب بملاحظات عابرة .

واستهوانا الجلوس في مقهى صغير انيق يكشف عن ساحة – المرجـة – التي تحيط بها دور تجارية فخمة، والمرجة هي ساحة الشهداء الذين وهبوا حياتهم للقضية العربية كاخوانهم الذين شهدنا تماثيلهم تتوسط ساحة الشهداء ببيروت – ولكن الضجة في تلك الساحة والفخامة التي تحيط بها لا تصرفني عن الفكرة التي كانت تستحوذ عليّ منذ ان اتجهت بنا السيارة صوب دمشق – ان اشهد سوق الحميدية السوق الشعبي الذي يعكس للمشاهد صوراً صادقة للحياة الشعبية ، وأنا شديد الولع بزيارة هذه الاسواق الشعبية في كل بلد ازوره ، ففي القاهرة كان أصدقائي يستهويهم التجول في شارع ٢٣ يوليو وهو افخم شوارع القـــاهرة التجارية ، ولكنني كنت أفلت منهم ساعات ممتعة في أسواق الموسكي والغورية

---

(١) كان احد كبار الضباط في الجيش السوري وكان يحاول القيام بانقلاب – آنذاك – .

حيث تتجلى خصائص الشعب بما فيها من سيء وحسن ، وما زلت أذكر الفرحة التي غمرتني عندما وجدت نفسي فجأة وانا أجوب الاحياء الشعبية في القاهرة امام – زقاق المدق – وقد هدتني اليه لافتة صغيرة وضعت عند مدخله فخيل اليّ اني اكاد أعرف كل شبر منه .. ومن ذا الذي قرأ قصة نجيب محفوظ الرائعة التي أجرى أهم حوادثها في هذا الزقاق ولا يشعر بمتعة فائقة وهو يطوف به !؟ ... بل خيل اليّ ايضاً انني أعرف الجالسين في مقهى صغير لقيته في اول الزقاق ، وكدت أهز احدهم من كتفه وأسائله ألست – عباس الحلو[1] ؟!



زقاق من سوق الحميدية بدمشق

وفي بيروت كان أول ما سألت عنه أين يقع أهم سوق شعبي ؟ فدلوني عليه وقالوا : ان اسمه سوق – سرسق – ولست أدري هل سرسق تنهى بالقاف أم بالألف كما ينطقونها ؟.. ونعمت بساعات عديدة ظللت أتجول فيها خلال هذا

(١) احد ابطال قصة زقاق المدق .

السوق اللبناني الشعبي ، ووجدته لا يختلف عن مثيله في الموسكي والغورية — وأهم طابع هذه الاسواق الشعبية المغالاة في تقدير ثمن السلعة وخاصة للرجل الغريب ولكن هـذه المغالاة تذوب سريعاً إزاء اصرارهم على البيع — وكم كان يذهلني الفارق الضخم بين السعر الذي يبدأ به البائع تقدير سلعته والذي ينتهي بـه . فقد يبدأ بالجنيه وينتهي بربع الجنيه ! أو بعشر ليرات وينتهي بثلاث أو خمس على أحسن تقدير ! والتجار في هـذه الاحياء الشعبية أذكياء لهم حيل واسعة لصيد الزبون واقتناصه وقسره على الشراء وفي ذلك من المتعة ما يستحق مـا تصرف عليه من وقت ثمين .

واتجهنا الى سوق — الحميدية — وهو يتكون من عدة أزقـة مسقوفة كلها ، وتقوم الحوانيت المختلفة على جانبي الزقاق المسقوف ولكل سلعة زقـاق معلوم أو جانب من الزقاق ، فللمصنوعات الجلدية من أحذية وشنط وغيرها — زقاق خاص ، ومثله لمـن يبيعون الأقمشة الحريرية ، أو القطنية ، أو المصنوعات الحديدية ، وقد تجدها مختلطة في بعض الازقة وقد عجزت من ان اطوف بكل الازقة ، وقد اعطتني بعضها صورة ناطقة لكل السوق. واعتقد ان تجار الحميدية أقل جشعا من غيرهم في الاسواق التي زرتها في القاهرة ولبنان وإن لم يتخلوا عن عادة الغلو الى حد مـا في تقدير سلعهم للزائر الغريب وقد برعوا في الاحاديث المعسولة يدسونها خلال مساوماتهم بتلك اللهجة السورية العذبة بما فيها من أمالة لأواخر حروف الكلمات.. اتفضل َخيّ !... ما بتعز عليك ... بخاَطرك !. زي ما بتريد َخيّ !.. وكلمة — َخيّ — أي أخي : تتصل بكل جملة مـن احاديثهم فتشحنها بعاطفة الود والصلة الخاصة مما يقرب الشقة بـين الغريب وبينهم .. وبين البائع والمشتري بصفة خاصة . وخرجنا من الحميدية بعد جولة ممتعة ، لنأخذ سيارة أجرة تطوف بنـا حول دمشق لنرى مآثرها الخالدة التي رواها التاريخ ونمتع النظر بجناتها الفيحاء وبمظاهر الحضارة التي استحدثت ، ولنقف في خشوع واجلال عند قـبر صلاح الدين الايوبي ونؤدي صلاة الظهر في

المسجد الاموي الذي تروي أعمدته وسقوفه قصة أروع تاريخ عربي ، ونحن نردد مع شوقي :

آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق : وقد هبت خمائلها ... الارض دار لها الفيحاء بستان !

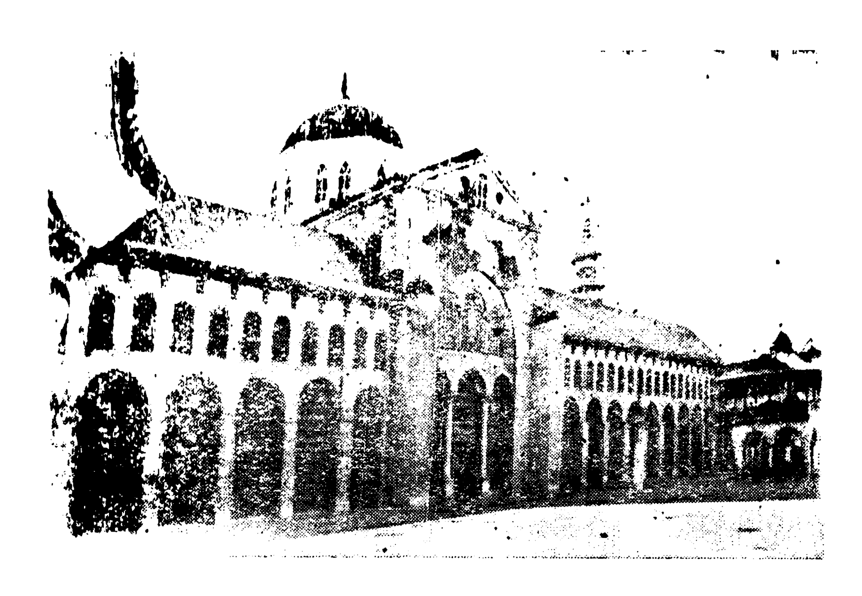


في المسجد الأموي

بنو أميه للابناء مـا فتحوا — وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم — فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ؟
عالين كالشمس في أطراف دولتها — في كل ناحية ملك وسلطان
في الارض منهم سماوات وألوية — ونيرات ، وأنواء ، وعقبـان
معادنَ العزّ قد مال الرغامُ بهم — لو هانَ في تربه الأبريزُ ما هانوا
لولا دمشقُ لمـا كانت طليطلة — ولا زهت ببني العباس بغـدان

بهذا كنت أتمثل وأنا أنقل بصري بين مشاهد دمشق وأسير بـين قصورها الشامخة وجنّاتها الفيحاء تطالعني عبر القرون مواكب بني أمية وهم في أبهـة الخلافة -- وقد صارت ملكاً عضوضاً -- كما حدثوا عن النبي الكريم . ومواكب العلماء والشعراء يزينون دور الخلافة ويعطرون دور السمر ويسمون بالحيـاة في جلق ، وخيل لي ان كل شبر وطئته قدماي من ارض دمشق مشت عليـه تلك المواكب ، وسارت عليه أقدام شعراء وعلماء وقواد وأمراء كانت الحيـاة طوع مرادهم والدهر كما شاءوا لِيناً وطيباً !

وقلت لصاحبي : هيا الى المسجد الاموي الاثر الحي الباقي ليتحدث عنهم .. وقادنا دليلنا بسيارته الفارهة بين أزقة سوق الحميدية ، أزقـة بعضها معتم ،



المسجد الأموي من الخارج

حاشدة بالناس ليست في مستوى دمشق من حيث النظافة والجمال . وكانت السيارة تشق طريقها في صعوبة بالغة فالناس يملأون الأزقة الضيقة التي قامت على جانبيها حوانيت شعبية فيها كل شيء .

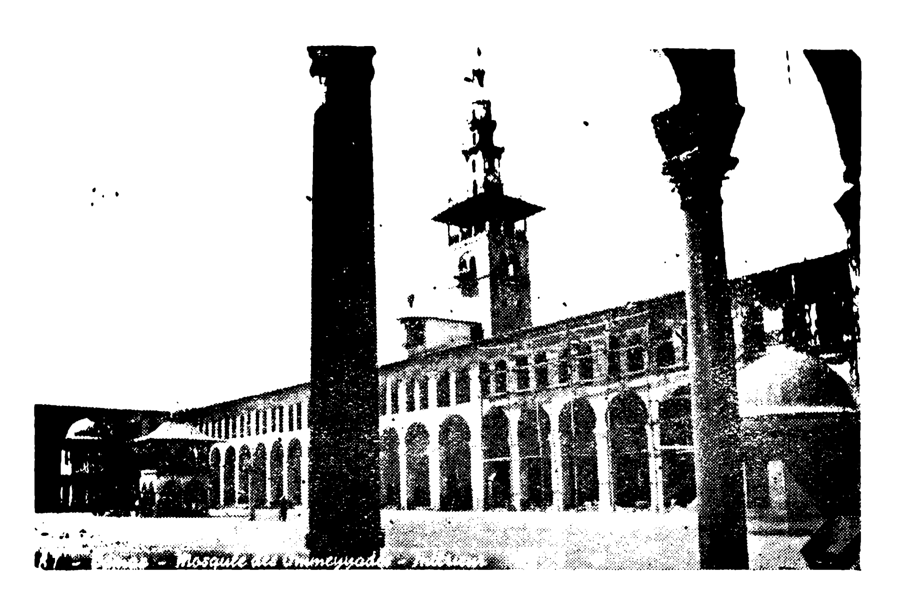
وبلغنا بعد لأي مدخل المسجد الأموي فترجلنا من السيارة ودخلنا ساحة المسجد والاجلال يحدونا ، فطالعنا بجلاله المهيب وبنائه الشامخ الرهيب. ودلفنا الى داخله وأدينا تحية المسجد وأخذنا نجول بين جوانبه . يا الروعة ويا للجمال أعمدته الضخمة الفخمة ، وأرضه التي كسيت بفاخر السجاد، ومساحته الشاسعة فهو يتسع لآلاف المصلين وقناديله الرائعة تزين سقفه الذي أبدع رسمه وتكوينه وراعني ان بالمسجد اربعة محاريب ، فسألت عنها ، فقيل كل محراب لرجال مذهب من المذاهب الاربعة، محراب الشافعية يليه الحنابلة فالمالكية فالاحناف

وجزعت ، فقد ظننت ان الفرقة المذهبية عبثت بالعقول وان أياً من الناس لن يصلي في هذا المسجد الا خلف امام من مذهبه وعند المحراب الخاص به !..
ولكن محدثيّ طمأنوني ، وقالوا ان المصلين لا يتقيدون اليوم بهذا ، فاذا ما تجمعوا للصلاة ، وقفوا جميعهم – أياً كانت مذاهبهم – في صفوف متراصة وصلى بهم احد أئمة المذاهب الاربعة ، وغالباً ما يصلي بهم امام المذهب الشافعي اولاً ، ذلك لأن أغلب اهل سوريا ينتمون لهذا المذهب ، فاذا ما قضيت الصلاة ، جاء آخرون ممن فاتتهم الصلاة مع الجماعة الاولى ، أدوها ايضاً جماعة وصلى بهم احد الأئمة الثلاثة وقد يكون – غالباً – امام المذهب الحنفي – ويبدو ان المالكية والحنابلة قلة هناك .

وأثلج صدري ان شهدت حلقات العلماء حول أعمدة المسجد والرجال يلتفون حولهم فتذكرت العلماء الأجلاء ومدارسهم العلمية التي كانت تزخر بها المساجد وطلاب المعرفة يقصدونهم من كل فج يتلقون منهم ولا ينقطعون عن مجالسهم حتى يبلغوا الشأو الذي يطمحون اليه من العلم وكانت المساجد مدارس للعلم ومنابر للارشاد والتوجيه ، وقوة روحية لا حد لها تمد المجاهدين بتلك الطاقة التي امتلكوا بها العالم ونشروا رسالة الحق والعدالة والنور .

وقد اقتربت من بعض الحلقات مسترشداً ، وطربت اذ رأيت بعضها يضم جماعة من غير العرب كان استاذهم يقرأ عليهم من كتاب عربي ثم يفيض في الشرح بلغتهم ، وأظنهم من ايران .

وفي مكان آخر شهدت جماعة من الشباب في ايديهم كتب وكراسات وهم يتدارسون ويكتبون ويتنافسون ، فاقتربت منهم واستمعت اليهم ، وادركت من حديثي معهم انهم من طلبة جامعة دمشق جعلوا من المسجد حلقة لمذاكرة دروسهم . فهم يؤدون الصلاة مع الجماعة ثم يستأنفون مذاكرتهم ، وهكذا وصل المسجد الأموي في رحابه بين القديم والحديث ، فهنا حلقات تدرس الفقه



الجامع الأموي من الخارج

الاسلامي من اصوله ومراجعه على شيوخ اجلاء ، وهنا فتيــة وردوا مناهل العلم الحديث في جامعة دمشق وجعلوا من رحاب المسجد مكاناً للمذاكرة والمراجعـة مع اداء الصلوات في جماعة .

والمسجد الأموي بناه الوليد بن عبد الملك عام ٩٦ هـ ، وقد كان في موضعه معهد روماني تحول الى كنيسة ما زال اثرها قائماً في قلب المسجد ، بئر مغلقـة عليها غطاء صغير مربع ، والغطاء مرتفع الى قرابة المتر ، وقيل ان اطفـــال المسيحيين كانوا يعمدون في هذه البئر ، ويعد محراب الشافعية المحراب الرئيس للمسجد وهو آية في الروعة ، وقد طعم المنبر الخشبي بنقوش بديعة وكتب على واجهته بخط جميل «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – اذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا سلام » .

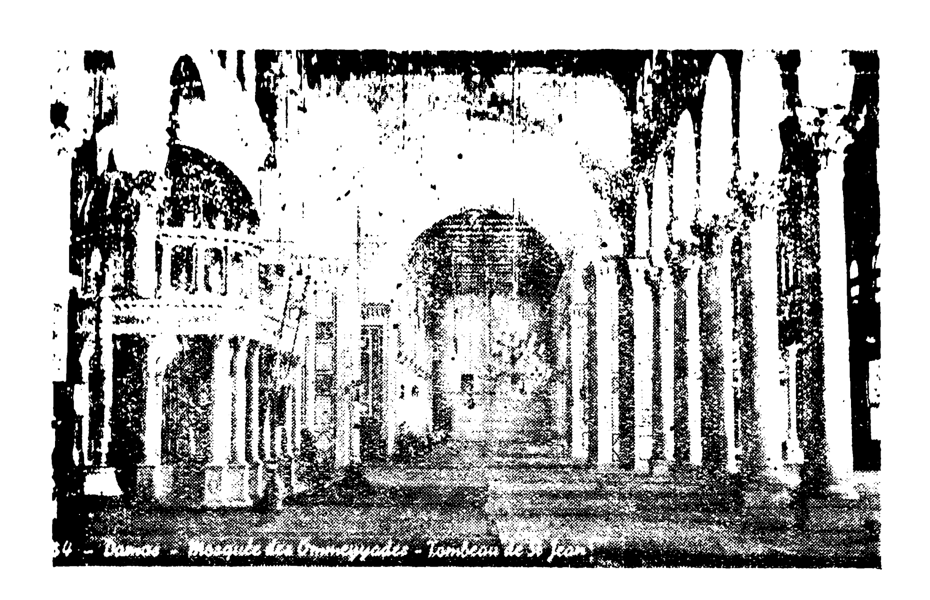
والمسجد نحو المائة وعشرين عموداً من الرخام الأبيض اللطيف المنظر في صفوف ثلاثة متراصة تمتد بامتداد المسجد الذي يبلغ طوله ١٣٧ متراً وعرضه ٣٧، هذا عدا صحنه وملحقاته .

ان كل ما في المسجد يومىء بجلال الذكرى ، وكل عمود من أعمدته الاخرى يتحدث عن مجالس للعلم وعن خلفاء وامراء وقواد عفّروا جباههم في أرضه خشية وامتثالاً لله وهم الاعزة الاشداء كأنما عناهم شوقي عندما طاف بآثار أخوة لهم أقاموا مجداً خالداً في الأندلس :

رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له	تجيش بالدمع والاجلال يثنينا
لفتية ما تنال الارض ادمعهم	ولا مفارقهم الا مصلّينا
لو لم يدينوا بدينٍ فيه منبهةٌ	للناسِ ،كانت لهم أخلاقهم دينا !

وصرت انتقل رويداً رويداً أتأمل بدائع الفن في هذا المسجد التاريخي وفي ذهني ما كتبه ياقوت في كتابه التاريخي معجم البلدان عن المسجد الاموي اذ قال : « اما الجامع الأموي فهو جامع المحاسن كامل الغرائب معدود كإحدى العجائب ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الايام من حسن صنائعه واختلافها » .

ووقفت عند قبر في وسط المسجد ، وضع عليه تابوت مزخرف زخرفة رائعة وأحيط بسياج من حديد مزخرف ، وعلى جانبه أعلام مرتفعة واسدلت على جانب كبير من التابوت قطع من الجوخ ، كتب على التي تعلو التابوت بخط واضح « آية الكرسي » كاملة وفي الجوانب كتبت الآية « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » وآية «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب »وآيات قرآنية أخرى تحيط بكل جوانب التابوت كتبت بخطوط جميلة وعلى قطع من الجوخ تغطي التابوت من أعلى وتتدلى على جانبيه الى قاعدته .



الجامع الأموي من الداخل
ويرى قبر سيدنا يحيى او يوحنا المعمدان

كان ذلك قبر نبي الله سيدنا يحيى ، أو – يوحنا المعمدان – كما يسميه المسيحيون ، يقع في قلب المسجد ، يتوسط صفوف المصلين في كل صلاة يحتشدون لها .

لست ادري الى أي مدى يمكن التأكد من حقيقة هذا القبر ان كان لسيدنا يحيى حقاً ، فان بعضهم يقول ان القبر لرأس سيدنا يحيى فقط ، وبعضهم ينكر انه ليحيى ، وعندما يمتد بنا التاريخ بعيداً ، ونفقد النص الثابت المؤكد ، فان الجزم بالحقيقة يكون مستحيلا .

ومهما يكن فان قبر سيدنا يحيى ، أو يوحنا المعمدان – تحفة فنية صغيرة

أنيقة تتوسط المسجد الأموي تزيد من روعته وتضفي عليه جلالاً روحياً يحس به الزائر ، وهو يجوس خلاله مستشعراً ذلك التاريخ الذي يمشي عليه أو يتأمله فيما حوله ، وشيء آخر بجانب قبر سيدنا يحيى يسترعي انتباهي وأقف عنده هنيهة ، محراب صغير محفور في جدار المسجد كتب عليه بخط كبير « هذا مقام سيدنا الخضر » وأتساءل في حيرة ما معنى هذا ؟! أكان الخضر يتعبد هنا في هذه البقعة من الأرض ؟ . . . ان الاجابة كانت تأكيداً جازماً من اولئك الذين كانوا بالقرب مني في المسجد ! ولكن علماء الآثار الذين التقيت بهم فيما بعد في المتحف الوطني بدمشق يهزون رؤوسهم نفياً ! . . ولكن لا بأس ان نزيد من قوة هذا الجو الروحي لدى الناس ، بأن يكون للخضر مكان في هذا المسجد بجانب سيدنا يحيى .

ويأبى مرافقي الا أن يفسد عليّ هذا الصفاء الروحي الذي يوحيه جو المكان فهو يطلب اليّ أن أرافقه الى موضع آخر من المسجد ليريني أين دفن رأس الحسين ابن علي ! وأحس بانقباض شديد يعتريني ، فقد كنت اريد أن أتشرب هذه اللحظات التاريخية خالية من الشوائب ، وان أرى عبر العصور مواكب بني أمية تعمر هذه الأرض وتنشر فيها المدنية والحضارة والعلم . . وأن انحي عني بعيداً صور تلك المآسي التي أزهق فيها كرام المسلمين أرواح بعضهم بعضاً طمعاً في الخلافة أو الملك !

ولكن المسجد الاموي على جلاله الذي ينطق بجلال خلفاء بني أمية ، والذي يعد من حسنات عهدهم الباقية شاء له بعضهم أن يضم أيضاً رفاة رأس الحسين ليحدث عن مأساة اسلامية ما زال أثرها باقياً في قلوب الشيعة المسلمين الى اليوم ، فكلما جاء يوم مقتل الحسين من كل عام ، خرجوا الى الأماكن التي تحمل هذه الذكرى – وما أكثرها في كل بلد يضم عدداً من الشيعة – يبكون ويلطمون ويدمون أجسادهم حزناً على الحسين ، ويكون المشهد على اكمل روعة في كربلاء حيث قتل الحسين .

وخرجت من داخل المسجد متثاقلا غير منطلق النفس الى غرف ملتصقة بالمسجد على الجانب الشرقي منه حيث يمتد رواق طويل. وأدخلت الغرفة الاولى، وحسبت ان موضع الرأس هناك، إذ كانت الغرفة مفروشة بالسجاد، وعلى سقفها قناديل جميلة مدلاة، ولكن مرافقي يشير الى غرفة ملتصقة بهذه ولم تكن الاولى ألا معبراً لها. فدخلت، وقرب الباب الحديدي للغرفة طالعني تابوت فاخر من السلك الدقيق مربع الفتحات، والخشب الجميل المزخرف ويرتفع من التابوت من الداخل قاعدتان صغيرتان، لا يزيد ارتفاعها عن نصف المتر، لا ادري مما صنعتا، فقد غطيتا بالجوخ والقطيف، وأشار مرافقي الى واحدة منهما قائلا، تحت هذه يوجد رأس الحسين الذي حمل الى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بعد مقتله في كربلاء!... وظللت ساهماً فترة غير قليلة وقد صمت مرافقي عن الحديث... وتمثلت هذا الفتى الهاشمي حفيد النبي يخرج على خلافة بني أمية وهو يعرف المصير الذي سيلاقيه، أتراه - كما قال بعض المؤرخين اراد ان يحملهم وزر دمه ايقاناً منه بان المسلمين لن يرضوا عن قاتل حفيد النبي، وبهذا يزعزع عرش الخلافة الاموية؟ الخلافة التي انتزعها معاوية من والده بالحيلة والغدر عندما أوشك ان يخسر معركة صفين عندما تقابل الجيشان وكادت قوات علي ان تنتصر؟، وهنا لجأ معاوية للحيلة فأمر جنوده برفع المصاحف إيذاناً بالمسالمة وإيقاف القتال والاحتكام السلمي. وانتهت المعركة على النحو المعروف في التاريخ اذ احتال عمرو بن العاص ممثل معاوية على أبي موسى الاشعري ممثل علي، ان يخلع كل منهما صاحبه، فخلع صاحب عليٍّ علياً، وأثبت ابن العاص خلافة معاوية!، وانشق جيش علي، وضعفت قوته... وكان لمعاوية ما أراد!

هـا هو يزيد بن معاوية يصرع الحسين بن علي لكي يثبت من دائم ملكه... وأنا أقف اليوم عند رأس الحسين كما يزعمون تدور في رأسي هذه الذكريات وقد

ويشير مرافقي الى القاعدة الاخرى داخل التابوت التي تجاور رأس الحسين ويقول : داخل هذه توجد بعض شعيرات لسيدنا محمد « صلعم » محفوظة في علبة من الزجاج !.. وأخذ يسرد عليّ تاريخاً طويلاً لهـذه الشعيرات وكيف انتقلت من تركيا الى هنا !..

وعندما لقيت فيما بعد السيد أبو الفرج العش مدير المتحف الوطني بدمشق أكد لي أنه لا صحة لقصة هـذه الشعيرات ، كما ابدى ارتيابه ان يكون رأس الحسين مدفوناً في هـذا المكان . واقول في نفسي ، ان المسجد الأموي أصبح مقاماً بعدد من الأساطير . واتطلع الى الغرفة التي وضع فيها هذا الأثر فأجدها — كل شيء هنا تحفة فنية ، جدرانها الزاهية ، وقبتها المزخرفة المحلاة بالنقوش الجميلة والقناديل الرائعة .

وخرجت من داخل المسجد ليطالعني صحنه الواسع الذي يمكن ان يحتشد فيه عشرات الالوف من المسلمين — وهكذا كانوا يحتشدون فيه في الأعياد الدينية وتصورت جموعهم الزاخرة في هذا المكان تدوي بـ (الله أكبر) فتخشع لهـا قلوب وترتعد منها قلوب !.. ولقد صدق شوقي وهو يقف موقفي هـذا في المسجد الأموي ويجوس بين عمده ومنابره ، جيّاش العاطفة ، وقد خلت المنابر من آل مروان ومرت بالمسجد المحزون ما مرّ بالمسلمين من هونٍ وضعف :

مررت بالمسجد المحزون أسأله   هل في المصلّى أو المحراب مروان؟
تغير المسجد المحزون واختلفت   على المنـابر أحرار وعبدان
فـلا الأذانُ أذانٌ في منارته   إذا تعالى ، ولا الآذان آذان !

بلى والله ، لم يعد في المصلى أو المحراب مروان ، وقـــد اختلفت وما تزال تختلف عليه احرار وعبدان ، وبقي من مروان وآل مروان ذكرهم العطر يزداد طيباً كلما قدم عليه العهد ، وبقي من العبدان ريحهم النتن يزداد قبحاً كلما قدم عليه العهد !



عند صلاح الدّين الأيّوبي

قلنا لدليلنا ، الفتى المرح اللبق ، هيا بنا الى ضريح البطل الخالد الذي ترك في الدنيا دوياً لم ينقطع صداه الى صلاح الدين الايوبي .. ولم يكلفنا الوصول اليـه رهقاً فان ضريحه قريب من المسجد الاموي .

ودلفنا الى دار صغيرة انيقة ، وفتح حارسها لنا الباب في ترحاب بالغ وقد رأى في مظهرنا مـا يؤكد اننا من بلد غريب ، وانا جئنا نحج الى قبر محيي مجد الاسلام ومعيد بطولات رجاله الذين ناصروا الدعوة بقلوبهم وارواحهم حـتى عمت الخافقين .

ودخلنا الدار والخشوع يملأ جوانحنا ، وفي ساحتها الصغيرة القينا حديقة مونقة تتوسطها نافورة ، وفي هـذه الساحة وجدنا قبرين حسبتهما لصلاح الدين ووزيره الذي قيل انـه يرقد بجانبه ، فسعيت نحوهما ووقفت عندهما وامعنت النظر فيهما فوجدتهما للمجاهدين العربيين يسن الهاشمي المتوفي عـام ١٩٣٧ والدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اغتيل غدراً عام ١٩٤٠ .

ويسن الهاشمي من ابطال العروبة الذين جاهدوا في سبيلها حـق الجهاد كان احد الضباط العرب العاملين في الجيش التركي ، وكان من قـادة (جمعية الفتاة)

العربية السرية في تركيا ولما ثار العرب ضد تركيا في الحرب الاولى عام ١٩١٦ انضم اليهم وحارب في صفوف الملك فيصل ، وكان في مقدمة القواد الذين دخلوا دمشق مع (فيصل) ونادوا به ملكاً على سورية .

ولما انتقل فيصل الى العراق ملكاً عليها بعد ان استولى الفرنسيون على سورية صحبه الى هناك ، وعين اكثر من مرة رئيساً للوزارة ، وغادر العراق اثر انقلاب عسكري اطاح بحكومته الى دمشق حيث وافته منيته فيها .

اما عبد الرحمن الشهبندر ، فهو طبيب سوري معروف واحد العلماء والكتاب والخطباء المعروفين في كل البلاد العربية ، كان وزيراً للخارجية في اول حكومة اقامها الملك فيصل في سورية وكان من المع قواد الثورة السورية ضد فرنسا عام ٩٢٥ — ٩٢٨ حتى حكم عليه الفرنسيون بالاعدام . ولكنه تمكن من الهرب الى مصر وبقي فيها مدة طويلة . وفي العهد الوطني السوري عام ١٩٣٦ عاد الى وطنه ، ولم يعجبه الطريق الذي سلكه الحاكمون الوطنيون انذاك وكانوا من رفاقه في الثورة وينتمون الى الكتلة الوطنية، فهاجمهم . وكان معارضاً قوياً عميق الاثر ، فدبروا مؤامرة لاغتياله عام ١٩٤٠ ، وتم لهم ما ارادوا وهاهما البطلان يتوسدان الثرى جوار صلاح الدين ، ولا يرقد في ثرى ضم رفاته الا افذاذ الرجال ممن ساروا على نهجه وبذلوا ارواحهم الطاهرة فداء للعقيدة . وجعلوا من تضحياتهم منارة هادية لا تخبو شعلتها على مر القرون .

واجتزنا الساحة لردهة صغيرة اتخذها حارس المكان كما يبدو مستقراً لنجد امامنا غرفة مربعة يتوسطها قبران من الرخام الابيض الرائع ارتفعا عن الارض بنحو المتر ، وعلى أحدهما رمز عمامة خضراء كبيرة احكم لفها ، فما شككنا في ان هذا هو ضريحه الطيب العطر ، ووقفنا عنده نتلو الفاتحة وفي قلوبنا شتى المشاعر والانفعالات ، واخذت أتأمل القبر ، هذه القطعة الصغيرة من الارض ، وهذا البناء الذي لا يتجاوز المتر ارتفاعاً — كل نهاية البطل الذي كانت الارض

تهتز تحت اقدامه وتضيق دون احلامه !

وتجلى امامي تاريخه الحافل يقود الجيوش يطهر ارض الشام ومصر من الصليبيين ويوحد بين الشام ومصر عام ١١٨٤ ويسير جيوشه الى كثير من البلاد العربية الاسلامية ليوحد بينها ويحررها من الطغيان .

ولد في قلعة تكريت بالعراق عام ٥٣٣ هـ وتوفي بدمشق عام ٥٩٨ وبين مولده ووفاته تاريخ وأي تاريخ .

كنت القاه ماثلا امامي في اي بقعة طفت بها في ارض الشام ، وفي كل قلعة حربية تاريخية ، لقيته في بعلبك يطبع اثره الخالد على قلعتها وهو يطارد الصليبيين ، ووجدته في قلعة صيدا بلبنان عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين في معركة حطين[1] الشهيرة عام ١١٨٧ م يقضي فيها على نفوذ الصليبيين في الشام وسائر الامارات الصليبية بالشرق ، وتقول الروايات المسيحية ان مرتفع حطين هو الموضع الذي القى فيه المسيح موعظة الجبل ، ولقيته في قاعة صلاح الدين بالقاهرة وهو امير عليها ، وطالعني وجهه الصبوح في القدس يعيد اليها امجاد العروبة والاسلام ، ويذكرني فتحه للقدس بهذا الخطاب الذي يفيض بروح التقدير لآثارها الدينية المسيحية وقد بعث به الى فرنجة القدس يمنحهم فيها فرصة التسليم دون اراقة دماء .. قال في خطابه :

(.. انني انا نظيركم ايضاً واعرف ان اورشليم هي بيت الله ولست آتياً لكي ادنس قدسيتها بسفك الدماء فعليكم ان تدعوها وانا اكفيكم امركم وأهب لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون ان تعملوا فيه) .. ولكنهم ابوا واستكبروا .. فدخلها عنوة واقتداراً !

---

(١) تقع حطين على مسافة خمسة اميال من الشمال الغربي لمدينة طبرية وهي الآن ضمن القسم المغتصب من فلسطين .

ولقيني صلاح الدين في بلادي في فجر الصبا يتخذه الجيل الذي تتلمذنا عليه مثلا حيا لبعث الوعي الوطني واثارة الحمية في النفوس ، فقد عرف السودان المسرح لاول مرة عن طريق تمثيل رواية صلاح الدين الايوبي اذ وثب شباب جيل العشرينيات ، والاستعمار في اعتى حالاته ، وثبوا الى المسرح ليقدموا رواية صلاح الدين الأيوبي في نادي الخريجين بأم درمان عام ١٩٢١ ، ويعيدونها عام ١٩٢٣ والشعب يلتهب حماسا ويهتف معهم :

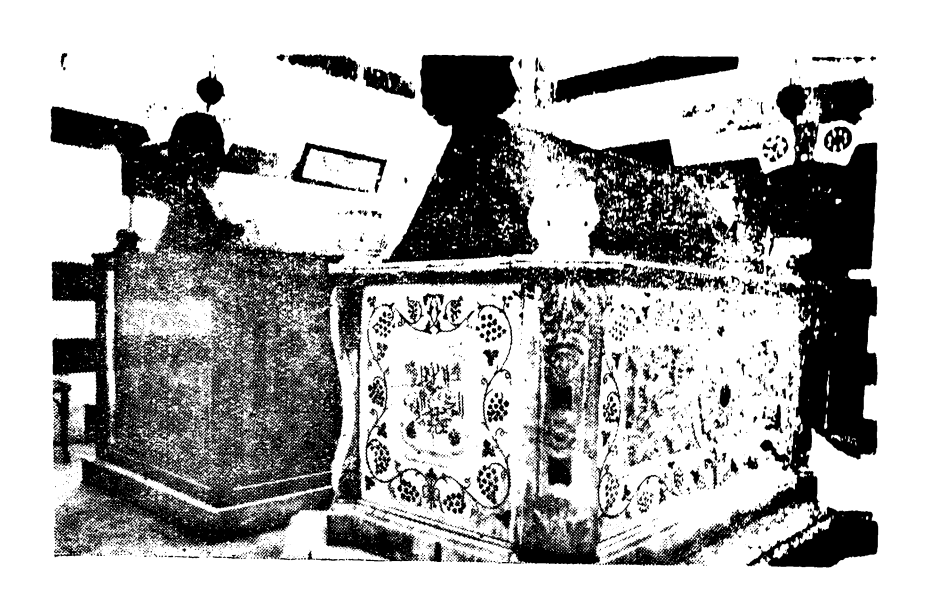
ان لم أصن بمهندي ويميني ملكي ، فلست اذن صلاح الدين !

تذكرت حول قبر صلاح الدين ، رواد النهضة في بلادي الذين قبسوا من وحي صلاح الدين الشرارة الأولى التي اشعلت النار التي احرقت المستعمرين .

وعدت أمعن النظر في البقعة الصغيرة التي ارتفع فوقها بناء صغير لا يتجاوز المتر على جانبه الغربي عمامة خضراء هي كل ما يرمز الى صلاح الدين الذي ظل ربع قرن من الزمان على متن فرسه مجاهداً .. قالوا عنه : انه كان اذا مرض وحملوه الى خيمة اشتد عليه المرض،حتى اذا شدوه الى ظهر حصانه عوفي أو نسيَ العلة !.. وقالوا : انه لم يخلع عنه لباس الجندي الا مرة واحدة في دمشق وكانت قبل وفاته بأيام !

لم يبن الدور ولم يقتن المال ولم يتعلق به ، كان ينفقه متعجلا التخلص منه حتى رموه بالاسراف وعابوه به !

وأخذت اجيل الطرف في الغرفة التي ضمت جدث البطل ، وفي الضريح الرخامي الذي قام على القبر والذي علت جانبه الغربي عمامة خضراء ضخمة ،كما كانت تعلو رأس صلاح الدين . وفي جانب آخر كتبت الشهادة الاسلامية - وفي جانب كتبت هذه الآية : (يا ايها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .



قبر صلاح الدين الايوبي
وبجانبه قبر وزيره عماد الدين

ولصق قبر صلاح الدين قبر صفيه وصديقة ويـده اليمنى وزيره عماد الدين ، لقد عاشا معاً متجاورين متلاصقين، وتوسدا الثرى متجاورين متلاصقين، ولعلهما في جنات الخلد متجاوران متلاصقان . وعندالله لا يضيع اجر من احسن عملا .

وعلى الجدار الشرقي من الحجرة اطار جميل كتب عليه نسب صلاح الدين ، وفي اطار ثان على الجدار الجنوبي كتبت الآية (يا ايهـا الذين آمنوا اذكروا الله كثيراً) .

وعلت اركان الضريح الرخامي اربع زهريات لطيفة المنظر الا انهـا كانت خالية من الزهر – اما ارض الحجرة فقد فرشت كلها بالسجاد الفاخر .

وطال بنا الوقوف نتأمل ونستوحي ، وقال صاحبي : اهذا هو صلاح الدين يثوي في قطعة صغيرة من الارض ؟. قلت : هناك الملايـين ضمهم الثرى ولم تبق حـتى قبورهم ، ولكن صلاح الدين وامثال صلاح الدين يعيشون احياء بذكراهم وامجادهم وان احتواهم الثرى وطواهم الامـد .. وكيف ينسى التاريخ الاسلامي رجلاً جاهد في سبيل الله ربع قرن من الزمان حتى اعوج ساقاه من كثرة ركوبه الخيل فكان اذا مشى على الارض عرج ! ، فلم ير ان يراه الناس الا راكباً ! ، كما قال رواة تاريخه ، وكان مسكنه الدائم خيمة متنقلة او صهوة جواد ، وكان عازفاً عن البناء والتشييد ، وكان اذا سئل عن هذا اجاب قائلاً : ومـا يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعي للسعادة وما جئنا لنقيم !

في ثامن صفر سنة (٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م) اشتدت وطأة المرض عليه وصار يغشى عليه احياناً ، فاشفق اهل دمشق وتجمعوا حول داره يتنسمون اخباره في قلق وحزن ، وتوفي بعد صلاة الصبح في مطلع نهار الاربعاء السابع والعشرين فكان يوماً عصيبا .

قال المؤرخ الحافظ شمس الدين يصف هذا اليوم في كتابه دول الاسلام :

(لقد غشى اهل دمشق يوم موته من البكاء والهول والضجيج ما لا يعبر عنه حتى كانت الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً ، وعظم الأسف واشتد القلق) .

وقال بهاء الدين بن شداد في كتابه (النوادر السلطانية) عن يوم صلاح الدين:

(وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بانفسهم ، ومـا سمعت هذا التمني الا على ضرب من التجوز والترخص ، الا في ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قيل الفداء لفدي بالنفوس) .

وفي خطى بطيئة عدنا ادراجنا وقد ودعنا صلاح الدين كأنمـا نحن ماثلون

بين يديه ولم اجد للمشاعر التي تملكتني انذاك متنفساً الا ان انشد اكثر من مرة وعلى طول طريق العودة قول شوقي :

ألستِ دمشق للأسلامِ ظئراً	ومرضعةُ الابوّة لا تعقُّ
(صلاح الدين) تاجك لم يُجَمَّل	ولم يُوسَمْ بأزين منه فرقُ



واهاً .. لك يا معاوية

عدت مرة اخرى الى دمشق الفيحاء الى جلق وبي شوق ملحٌ الى كل بقعة بها ، والى كل وجه عربي يطل علي من جوانبها ، تشدني اليهـــا ذكريات ماض سحيق ارتبطت به دمــائي ومشاعري احج الى ثراه ، واقف عنده متأملاً ومستوحياً فيمتلىء وجداني وتفيض خواطري .

وتستقبلني الفيحاء بذلك الوجه العربي السمات، وفي دورها وحدائقها واناسها وفي تاريخها الناطق في ثراها — وفي بردى نهرها الخالد، والذي خيب ظني عندما لقيته في عامي الماضي وهو يكاد يكون جدولاً رقراقاً ، ولكني احببته ، ربما كان لرنة اسمه في نفسي لما خلفته في اعماقها آيات الشعر العربي الذي شبب ببردى كأروع ما يكون التشبيب بالحسان الفاتنات !..

ولكن .. كيف يجوز لي هذه المرة ان أطوف بالفيحــاء قبل ان أزور قبر معاوية بن أبي سفيان مؤسس أمجاد دولة بني أمية ، وكاتب رسول الله ، والرجل الذي ملأ مسمعي الدهر وما زال حديثــاً يروى حتى اليوم ، وسيروى غداً وفي كل حين ما بقي التاريخ العربي .

واتجهت الى متحف دمشق ، هذا المتحف الرائع ، اما هذه المرة فاني أقصد

مكتب هذا المؤرخ الاستاذ ابو الفرج العش مدير المتـــاحف والآثار في دمشق لأسترشد به ، فقد طفت وحدي في العام الماضي ، في رفقة دليل عربي، اكتشفت ان المامه بمواقع الآثار لم يكن صحيحاً دائماً .

واستقبلني السيد المدير بترحاب بالغ وكنت احمل له رسالة صديق كريم في لبنان ، كان حلقة تعارف بيننا وتحدثنا ملياً عن تاريخ دمشق وعن الآثار العربية التي تزخر بها وعن مواقعها ، وهنا ابديت له رغبتي في زيارة هذه الآثار على أن استهلها بزيارة قبر معاوية .

وتهلل وجهه، وقال لي في اريحية بالغة ، لولا انه مرتبط بجلسة في المجمع العلمي في تلك الآونة لرافقني بنفسه ثم دعا بمدير مكتبه ، وهو شاب على قدر كبير من الثقافة ومن الأدب العالي، ولا غرو فقد عرفت فيما بعد انه حفيد البطل المعروف عبد القادر الجزائري الذي سنقف عنده أيضاً في حديث آخر — وبعد ان قدمه لي طلب اليه ان يرافقني في طوافي على الأماكن التاريخية — بل على الخالدين وان غيبهم الثرى .

وخرجت مع حفيد الجزائري ، وحمدت صحبته فقد كان فتى لطيف المعشر مهذب الطباع ، ودارت بنا السيارة متجهـة الى مكان في دمشق يسمى — الباب الصغير — حيث تقوم مقبرة تاريخية معروفة تقع في وسط المدينة بلغناها بعـد رحلة قصيرة ارتني جانباً من عمران دمشق .. وترجلنا واتجهنا الى المقبرة، وكان في حسباني ان قبر معاوية لا بد ان يكون معروفاً ، وانه سيكون ضريحاً فخماً يليق بابن هند ! .

ورأيت صاحبي . بعد ان دخلنا المقبرة — يلتفت هنا وهناك ، والحيرة بادية عليه — وتلفت لأرى العديد من المباني والقباب الضخمة وغير الضخمة تعلو بعض المقابر ، وخيل اليّ ان مرافقي يريد اختيار اقصر طريق للوصول الى أعلاهـا

قباباً واسخمها بناء ليقول لي : هنا يرقد معاوية ! .

وقر بصره اخيراً على ناحية من المقبرة واتجه اليها وتبعته لاقف عند ضريحين فخمين متجاورين قام عليهما مبنى ضخم ملفت للانظار وأطلت علينا حارسة في الحلقة السادسة من عمرها وهي تردد عبارات الترحيب في خفوت وخشية .. وهمّ مرافقي بالتحدث اليها ولكنني لم امهله . فاقتحمت البناء والمرأة تتبعني وهي تقول : اقرأ الفاتحة اولاً للسيدة سكينة ثم اتجه يميناً واقرأها على ضريح السيدة زينب !؟. والتفت اليها والدهشة تغمر وجهي وقلت أليس هنا قبر معاوية !؟.. وزوت المرأة ما بين حاجبيها وحاولت ان تكتم سورة الغضب التي أوشكت ان تعصف بها ، وهي محقة ! — فقد ادركت توا انها من الشيعة.. وموقف الشيعة من بني امية معروف بعد ان قتل يزيد بن معاوية الحسين بن الامام علي — ومن قبل جذب معاوية الخلافة من علي بسعة الحيلة والدهاء !.

وأسرع مرافقي ليجيب على تساؤلي وقد صمتت المرأة .. كلا !.. هنا مزار السيدتين الشريفتين سكينة وزينب حفيدتا الامام علي بن أبي طالب ، أدْخلْ وسلمْ عليهما !.

ودخلت الحجرة الاولى حيث ترقد السيدة سكينة لارى ضريحاً فخماً عالياً وغرفة مزخرفة بالآيات القرآنية العديدة . فرشت ارضها بسجاد فاخر وعلى الضريح الفخم تناثرت شتى انواع النقود منذهبية وفضية وورقية داخل التابوت المحاط بسياج دقيق ، وفي الاركان زهريات جميلة المنظر . وكان واضحاً من مظهر النقود المتناثرة ان بعض زوارها ينذرون وضع مال معين على الضريح متى ما بلغوه . وخرجت من ضريح السيدة سكينة لادخل ضريح السيدة زينب . وتفصل بينهما غرفة صغيرة — وقد كتب على واجهتها الآيات الكريمة — « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » — ويواجهني في الغرفة الثانية نفس المظهر في فخامته وروعته حتى النقود الكثيرة المختلفة

المتناثرة حول الضريح ! – وقد احيط ايضاً بسياج من الاسلاك الدقيقة الصنع .
والشيخة تتبعني وتشير الى صندوق نذور صغير مغلق فاضع فيه مـا شاء الله .
وأخرج الى مرافقي الذي ما زال ينتظرني خارج الضريحين ، ويهمس مترفقاً في اذن الشيخة لتدله على قبر معاوية !.. فلا تنطق وانمـا تشير بيدها الى ناحية القبر ! – وما كدنا نتقدم حتى قال لي : ان السيدتين سكينة وزينب ليستا مدفونتين في هذا المكان ، وانمـا هذان مزاران « بيانان » شاء الشيعة من عهد بعيد ان يقوما هنا تعميقاً لمشاعر اتباعهم ومريديهم . وحدثني عـن الهدايا والطنافس التي ترسل من مختلف بـلاد الشيعة – ومن ايران خاصة – لهذين المزارين – ولم اعجب لحديثه كثيراً ، فقد شهدت خلال تجوالي هذا العديد من امثال هذه المزارات الفخمة التي اقامها الشيعة لأئمتهم من ذراري علي ..

وفوجئت به يقف امام غرفة حقيرة من الطين ، ظننتها باديء بـدء لاحد حراس المقبرة . ان كان هناك حراس – ولكني عندما امعنت النظر فيها بدت لي احقر بكثير من ان تكون سكناً لآدمي مهما كان قدره !، ورأيته يدنو منها ويمعن النظر من خلال شباك صغير مهدم اشبه بالفجوة ، وقـد سد بقطع من الحديد – البالي – ثم يرفع وجهه ، وينادينى .. تعال !.. هنا قبر معاوية !.

وصعقت وظللت لفترة مشدوها وأكاد لا أصدقه .. ولكنه يكرر النداء ويرى الحيرة والدهشة والاسى ترتسم على وجهي .. أيمكن ان يكون قـبر معاوية في مثل هذه الحقارة ؟ ويقول مرافقي كأنه يعتذر عن حـال المقبرة .. اننا بصدد بناء ضريح يليق بمعاوية !.

وأدنو من القبر المهدم داخل غرفة حقيرة من الطين وانظر اليـه من خلال النافذة فلا أرى غير حجارة طال عليها القدم ، ارتفعت عـن الارض قليلاً ، وحجر كبير كتب عليه بخط واضح ما يفيد بان هنا فيهذه البقعة الموحشة يرقد معاوية بن ابي سفيان ! ، ولا شيء غير هذا إلا حجارة مكومة في غرفة حقيرة

مظلمة عليها باب خشبي مغلق رديء المظهر ، ونافذتان ثقبتا في البناء ثقباً تلوّت عليها صفائح من الحديد – هذا كل ما بقي لمعاوية من ملكه العريض . وهتف قلبي .. واهاً لك يا معاوية !.

وعـدت أنظر الى مزاريْ حفيدتيْ علي بن ابي طالب . سكينة وزينب . عاليين شامخين ، وتبدى من خلال بناءيهما الترف البالغ الذي يرقد فيه الضريحان الرمزيان ، وانظر مرة اخرى الى كومة الاحجار في الغرفة الحقيرة الخاويـــة المظلمة . ويهتف قلبي مراراً .. واهاً لك يا معاوية !. أهو انتصاف من الاقدار لعليٍّ وبنيه لمـــا فعله بهم معاوية وبنوه !؟ وفي نفس الارض التي شهدت أروع أمجاد معاوية ؟.. الارض التي سادها عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ؟. ومن غير معاوية في العهد الاسلامي كله بقي اربعين سنة اميراً وخليفة !؟. ولا عجب فقد كان في حكمه كما قـــال عن نفسه : – لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » .. ولقد ظلت شعرة معاوية هـذه مثلاً يضرب للحكمة ورحابة الصدر وسعة الحيلة .

قالوا : بعث معاوية الى رجل من الانصار بخمسمائة دينار ، فرأى الانصاري انها دون قدره فقال لابنه : خذها وامض الى معاوية واضرب بها وجهه وردها عليه ! – وأقسم على ابنه ان يفعل ذلك . فجاء ابنه الى معاوية فقال :

– يا امير المؤمنين ، ان أبي فيه حدة وسرعة وقد امرني بكيت وكيت ، واقسم عليّ وما أقدر أن أخالفه !.

فوضع معاوية يده على جبهته وقال :

– افعل ما أمرك به أبوك – وارفق بعمك !.

فاستحيا الصبي ورمى بالدراهم ، فضاعفها معاوية وحملها الى الانصاري .

وكان أحد ولاته قد كتب اليه محتجاً عندما لجأ شخص الى معاوية كان الوالي يريد القصاص منه لخطأ ارتكبه ، فعفا عنه معاوية ، كتب الوالي يقول لمعاوية : « ان هذا فساد لعملي اذا طلبت رجلاً فلجأ اليك وتحرّم بك » فرد عليه معاوية يقول : (لا ينبغي ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا) !.

واهاً لك يا معاوية .. رضيت بحقير ومـا كنت لترضى الا بامتلاك ناصية الدنيا لو كان الى ذلك اليوم من سبيل !.

الف وسبعمائة سفينة كاملة العدة والعدد، ذلكم هو الاسطول البحري الضخم الذي انشأه معاوية في عهده ، وهو اول اسطول عربي اسلامي يبلغ هـذه القوة الضاربة ، وبهـذا الاسطول فتح جيش معاوية جزيرة قبرص وبعض الجزر اليونانية ، وجزيرة رودس بقيادة جنادة بن ابي الازدي .

مـا أحسنك يا معاوية وانت تذكر للناس كيف انتصرت على علي بن ابي طالب فتقول :

(أعنت على عليّ بن ابي طالب بأربع خصال . كان رجلاً لا يكتم سراً وكنت كتوماً لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة ، وكنت أبادر الى ذلك ، وكان في اخبث جند وأشدهم خلافاً وكنت أحب الى قريش منه) .

وصفوه عندما اشتد عليه المرض واقتربت نهايته . قال لمن حوله : — (إن رسول الله صلعم) كساني قميصاً فرقعته ، وقلّمَ أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة ، فاذا مت فألبسوني ذلك القميص ، وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفمي فعسى الله يرحمني ببركتها !.. ثم تمثل بشعر الاشهب بن رملة :

اذا مت مات الجود وانقطع الندى من الناس الا من قليل مصرَّدِ
وردت أكف السائلين وامسكوا من الدين والدنيا بخلف مجدّدِ

فقالت احدى بناته : كلا يا أمير المؤمنين، بل يدفع الله عنك، فقال متمثلاً :

واذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

ثم اغمي عليه ، ثم افاق فقال :

(اتقوا الله عز وجل فان الله سبحانه وتعالى يقي من اتقاه ، ولا واقي لمن لا يتقي الله .) ثم قضى ..

كانت وفاته في الشهر السابع من سنة ٦٠ هجرية ٦٨٠ م – وهـا هو يرقد الآن بعد ان ارتدى قميص رسول الله و كحل بقلامة ظفره (في مكان حقير من الارض مجهول لدى الناس الا قلة منهم !

وكأن الأقدار لم تشأ ان تقدم الى معاوية وحـده عظة وعبرة ، فقد اشار مرافقي الى قبر آخر قرب معاوية اشد وحشة واندثاراً وقال: هنا يرقد الخليفة عبد الملك بن مروان !.. يا لله !... عبد الملك الذي عمر المسجد الاقصى وبنى قبة الصخرة اروع مـا بنى في القدس وانفق عليهما خراج مصر ست سنوات ، يرقد في قبر مهدم موحش لا معلم عليه ولا زخرف ، ولا بناء ولا طنافس !؟.

قالوا : مر عبدالله بن مروان بقبر معاوية فوقف وترحم عليه، فقال رجل: قبر من هذا يا أمير المؤمنين ؟ .. قال : قبر رجل كان والله فيما علمته ، ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم ، كان اذا اعطى اغنى ، واذا حارب افنى !

فمـا عساك تقول يا ابن مروان لو قدر لك ان تعود وترى قبر معاوية اليوم ؟ وها انتما قد تجاورتما وتشابهتما في المصير ؟

وجاءت الثالثة لتكمل للرواية فصولها المؤسية ، اذ يشير مرافقي الى قبر ثالث ليس بأحسن حظاً من صاحبيه ويقول: ربما كان هذا القبر للخليفة الوليد!. ولم أعد انطق بشيء ، واخذت اتحدث مع نفسي ، لِمَ كان حظ بناة امجاد بني أمية من تكريم قبورهم كهذا الذي رأيت من حقارة الشأن ؟!.. ربما كانت السياسة اصلاً هي الباعث الاول عندما خلفهم بنو العباس على الحكم فطمسوا كل اثر لبني امية امكنهم طمسه ، وكان من المحال ان تعلو مقابرهم آثار تدل عليهم وتعظّم امرهم .. ولكن ماذا جرى بعد زوال حكم بني العباس ؟ لِمَ قامت مزارات وقباب على كثير من قبور الذين كان لهم شأن وذكر في الحياة من غير بني امية ؟ وظلت قبور معاوية وعبدالملك والوليد موحشة خربة !؟. هل لانهم لم يهتدوا اليها الا منذ عهد قريب ؟

ودنوت من قبر معاوية لالقي عليه النظرة الأخيرة وأودعه ، ونظرت من النافذة المهدمة الى الحجارة المكومة في الغرفة الصغيرة المظلمة الموحشة ، فانقبضت نفسي !.. أفي هذا المكان نهاية معاوية ؟!

وغادرت المكان بخطى بطيئة وقلبي مثقل بالاسى وفي ذهني ان اذهب مع مرافقي الى قصر الخضراء ، القصر الذي بناه معاوية وكان من اروع القصور التي شهدتها دمشق ، وقد قيل لي في بيروت ان هناك اثراً من القصر ما زال قائماً ولكن مرافقي يؤكد لي ان القصر – وكان قائماً بالقرب من المسجد الأموي – ليس له من اثر ، وانه الآن على عمق ثلاثة امتار تحت الأرض !. وترحمت على الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري اذ سأله معاوية بعد ان تم بناء القصر – وكان به مزهواً معجباً : سأل أبا ذر قائلاً :

– كيف ترى هذا ؟

فقال ابو ذر :

– ان كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين، وان كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين !.

رحمك الله يا أبا ذر ما كان اقواك على قولة الحق !..

لقد غاص قصر الخضراء تحت الارض ، وضمت معاوية رقعة صغيرة موحشة خربة ، ولم تبق منه مآثر حية خالدة يرويها التاريخ !.



عند داعي السماء

بلال بن رباح

قلت لصاحبي ، ونحن ما زلنا نسير عند مقبرة البـاب الصغير ، سِرْ بي نحو (داعي السماء) . كما سماه العقاد رحمـه الله — بلال بن رباح — وكنت قد علمت ان قبره هنا .

وفي هذه المرة لم يلتفت باحثاً ، ولم يسأل مسترشداً كما فعل وهو يبحث عن قبر معاوية ، فقد كان المسجد الذي أقيم على القبر الذي يضم رفـاة بلال الطاهرة اوضح من أن يسأل عنه .

وبلغنا في يسر ، وتلقانا مسجد رائع المظهر والمخبر ، ومن غير بلال في هذه البقعة جدير بمثل هذا المسجد العظيم وهو اول من دعا للصلاة مؤذناً ؟

ودلفنا الى المسجد وأدينا التحيـة وأخذت أتأمله من الداخل وقد توسطت سقفه قبة عظيمة مزخرفـة بنقوش جميلة وتدلت ثريات الكهرباء أشبه بالتحف النادرة ، وأرض المسجد فرشت كلها بالسجاد الفخم ودخلنا من باب لطيف الى قبر بلال في جانب من ارض المسجد ، لقد أعز المسلمون بلالا فجعلوا قبره تحفة في الجمال والجلال ، فالجدران مزينة بالفسيفساء الرائعة ولوحات القيشاني النادر ،

وعلى القبر تابوت ضخم من الخشب المزخرف زخرفة دقيقة أنيقة ، وقد غطى من أعلى بالجوخ المطرز بالآيات القرآنية وعلى واجهة الهيكل الفـــاخر الذي ارتفع فوق التابوت كتب :

هذا مقام سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنـــه مؤذن رسول الله ، ثم سورة الفاتحة كاملة ، ثم الآيات :

(يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي) .. ثم (هو الحي الذي لا يموت) .

لقد شفا نفسي قبر بلال ! فهتفت : لقد أعزك الاسلام يا بلال فطبت بـــه حياً وميتاً !.

قالوا : رآه سيدنا ابو بكر الصديق يعاني ما يعاني من تعذيب اسياده له لما اعتنق الاسلام فاشتراه منهم بخمس اواق من ذهب ، ثم اعتقه .

كان بلال أحد الثمانيـــة الذين سبقوا الى الاسلام وشرح الله صدورهم له قبل غيرهم من الناس وهم خديجة وأبو بكر ، وعلي وعمار ، وأمه سميـــة وصهيب وبلال والمقداد .

ولما كان بلال مستضعفاً بسبب عبوديته فقد اشتد ايذاء المشركين له حتى بعد عتقه فعذب عذاباً مبرحاً صمد له في ايمان راسخ وكانوا كلما اشتدوا في ايذائـــه وتعذيبه ردد .. أحد .. أحد .. ولا تضعف عقيدته ولاتهن نفسه .

أحب محمداً وتفانى في الاخلاص له وأحبه محمد وقربه اليه ووكل اليه شؤون بيته ، وكان يرافقه في حله وترحاله ، فهو معه في الصلوات الخمس وفي كل مجالسه وهو معه ان خرج غازياً .

ان كل هذا الزخرف الذي جمل به قبر بلال ليس بشيء بجانب الجنة التي سمع النبي دَفَّ نعلَيْ بلال عليها ، فقد أرِيَ النبي عليه السلام انه سمع دف نعلي بلال بين

يديه في الجنة فسأله بعد الصلاة - يا بلال ! - حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة ، فاني سمعت ليلة دفّ نعليك بين يديّ في الجنة ?.

فقال بلال : (ما عملت عملاً في الاسلام أرجى عندي منفعة من اني لا اتطهر طهوراً تاما في ساعة من ليل أو نهـار الا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي) .

قالوا[1] : كانت مودة بلال لمولاه وهاديه محمد (صلعم) تبدو من حيث يريد او لا يريد ، فاذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع الى تظليله بثيـاب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، واذا تهيأوا للقتال ضرب له قبـة من أدم يرقب الموقعة منها ، وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الامر منـه فلم يفرقهما موقف ضنك ولا موقف خطر ولم ينقض يوم الا جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ما لم يكن في غيبـة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذي لم يكن له شأن سواه .

قصة الآذان

ان قبر بلال يعيد الى ذهني قصة الآذان كيف بدأ في الاسلام .. كانوا قبل الآذان ينادي منادي النبي عليه السلام (الصلاة جامعة) فيجتمع الناس ، فلمـا صرفت القبلة الى الكعبة وكانت نحو المسجد الاقصى بالقدس تذكر المسلمون الامر ، فذكر بعضهم البوق ، وذكر بعضهم النـاقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأي ، ومنهم عبدالله بن زيد ، فلمـا دخل على أهله قالوا له : الا نعشيك ? قال : لا اذوق طعاماً فاني قد رأيت رسول الله قد أهمه امر الصلاة ، ونام ، فرأى ان رجلاً مر ، عليـه ثوبان اخضران وفي يده

(١) العقاد — داعي السماء .

ناقوس فسأله اتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ فقال : اريد ان ابتاعه لكي اضرب به للصلاة لجماعة الناس ، فأجابه الرجل . بل احدثك بخير لكم من ذلك ، تقول الله اكبر ، اشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمداً رسول الله حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الله اكبر الله اكبر ، لا اله الا الله — ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ، ثم قعد قعدة ، ثم نهض فأقام الصلاة.

فلما استيقظ عبدالله بن زيد من منامه ، ذهب الى النبي فقص عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك .. وجاء الفاروق عمر بن الخطاب بعد هذا فقص على النبي مناماً يشبه ذلك المنام .

وجرى الامر في الدعوة للصلاة منذ ذلك اليوم على الآذان كما تسمعه الآن وزاد بلال في آذان الصبح الصلاة خير من النوم) فأقرها النبي عليه السلام .

ان بلالاً العبد الحبشي المستضعف والذي لقي من المشركين ما لقي من صنوف العذاب ، يكرمه النبي ويخصه بما لم يخص بـه احداً من جلة صحابه فعندما فتح النبي مكة ودخل الكعبة كان في صحبته ثلاثة رجال فقط هم : عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ابن النبي بالتبني ، وبلال وقد امر النبي بلالاً ان يعلو الكعبة ويؤذن فيفعل ، وكان ذلك اول أذان على الكعبة .

ويختار الله محمداً الى جواره فيحزن بلال حزناً ممضاً . كان يملأ القربة بالماء ويذهب الى قبر النبي ليرطبه بالماء .. وبدموعه !

ثم طلب من سيدنا ابي بكر ، بعد ان ولى الخلافة — ان يعفيه من الاذان اذ لم يطق ان يردده بعد ان لحق النبي بالرفيق الاعلى ، فقد كان اذا ما ألحوا عليه ان يؤذن للصلاة وبلغ في الاذان الى قوله .. أشهد ان محمداً رسول الله ، اجهش بالبكاء في حرقة ، وحزن ، وبكى كل من يسمعه .

اعتزال الحياة

واراد ان يبتعد عن كل اثر يذكره بحبيبه محمد ولم يطق الحياة في المدينة إذ ان كل شبر فيها يذكره بمحمد ، فأذن له ابو بكر ان يذهب للشام كما اراد ، وجاء الى دمشق واعتزل الناس والحياة العامة مكتفيا بقطعة ارض صغيرة يزرعها ويعيش عليها — وسكن صوت بلال فلم يعد يرتفع بالاذان .

وجاء سيدنا عمر بن الخطاب الى دمشق في عهد خلافته متفقداً — ولقيه بلال ، وحول عمر كبار اصحاب رسول الله ممن ما زالوا على قيد الحياة فألحوا على بلال ان يؤذن للصلاة اكراماً لعمر . ويقبل بلال ويسري الخبر الى المدينة فيحتشد اهلها في المسجد وقد ارهفوا اذانهم لسماع بلال، ويصعد بلال الى حيث يؤدي الاذان ويرتفع صوته الندي العذب .. مثلما كان يرتفع ايام محمد .

الله اكبر ، الله اكبر .. ويحمل هذا الصوت العذب الى عمر وأصحاب عمر ذكرى أطيب ايام العمر ، عندما كانوا يتحلقون حول النبي ، وعندما كانوا يؤدون الصلاة خلفه بعد ان يؤذن بلال ... ويرتفع الصوت الحبيب بالاذان مسترسلا فيه مستأنياً !.. فلا يقوى عمر واصحابه على مغالبة عواطفهم ، وتجيش في نفوسهم الذكريات الحلوة . وقد بعثها من الاعماق صوت بلال : فيبكي عمر وتتحدر مدامعه ! — عمر القوي الثبت الجنان ! — وبكى صحابه حتى ارتفع نشيجهم وزفراتهم ، وغطى البكاء وارتفاع الزفرات والنشيج على دعاء الاذان الاخير !.

وينزل بلال ولحيته مخضلة بالدموع وكان ذلك آخر اذان اداه .

بهذا التآخي ، وبهذا الحب العميق لصاحب الرسالة والايمان بها سادوا العالم.

وتمثل لي بلال وقد حانت منيته والى جانبه زوجه وتصيح صيحة حزن وألم .. واحزناه !.. واحزناه !.. فيجيبها بلال في كل مرة :

بـل وافرحتاه !.. غداً نلقى الاحبة .. محمداً وصحبه ! رضي الله عنك يا بلال ، هأنذا اقف عند قبرك فيستهويني هـذا الزخرف الباطل الذي اقاموه حولك – ترى ماذا يكون وإن عظم ، وقد سمع محمد دفّ نعليْك في الجنة ؟! وما عند الله خير وابقى .



في رحاب جامعة دمشق

احتوانا شارع بغداد الذي يعد من اكبر وأروع شوارع دمشق الفيحاء وقد ازدان جانباه بالمباني الحديثة الجميلة بعد ان دلفنــا اليه مخترقين شارع بورسعيد ، وانها لألفة عربيـــة حبيبة الى النفس ان تطلق دمشق على شارعين من احسن شوارعها « بغداد » العاصمة العربية العريقة و « بورسعيد » المدينــة الباسلة التي تحدت العدوان الثلاثي وانتصرت عليه !.

وفي تعانق هذين الشارعين في قلب عاصمة سوريا أسمى معاني الاخوة العربية التي من اجلها شهد العالم العربي مؤتمرات قادته في القاهرة .

اني أتجه الآن صوب جامعة دمشق ملتقى هذا الشباب العربي المتطلع للمعرفة والذي تقع عليه مسؤولية بناء هذا الوطن العربي الكبير .

وجامعة دمشق عظيمة البنيان أخذت أجوس خلال مبـانيها الضخمة التي تعالت الى اكثر من طابق تتخللها الميادين المخضرة يحفهـا الزهر المونق النضر . وكانت الجامعة هادئة بغير ضجة اذ ان الطلبة كانوا في اجازتهم الصيفية .

ولكننا نسير بين ميادينها نتملى محاسنها ولنبلغ مكاناً خاصاً بين رحابهـــا الواسعة المخضرة . جئنا نلتمس عالمين جليلين احتضنهما ثرى الجامعة يوحيان الى

جيل اليوم والغد في هذه الجامعة اسمى ما يوحيه العقل البشري المتطلع للمعرفة ، العقل الشجاع في قولة الحق الواهب في سبيلها حياته دون رهبة او جزع .

جئنا الى رحاب الجامعة لنحيّي في ثراها شيخ الاسلام ابن تيمية الذائد عن عقيدة التوحيد والمؤمن الحق ، ولنحيي تلميذه الذي آثر ان يرقد جثمانه الطاهر بجانب استاذه العظيم ذلكم هو الحافظ بن كثير الذي قالوا عنه :

— « انتهت اليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير » .

لم نسر اليهما في طرق موحشة تثير الانقباض ، ولم ينزو قبراهما في مقبرة عامة متراصة المقابر ، فقد كرم الله ذكراهما الطيبة واحتضنت القبرين جامعة دمشق بحدائقها الفيحاء وميادينها الرائعة ومبانيها الشامخة التي تعج بألوف الطلاب فما كنا نخطو خطوة نحو القبرين الا ويأخذ بمجامع القلب دار مشرقة او حديقة مونقة او بساط سندسي حليت به الارض ، حتى بلغناهما يرقدان في ميدان سندسي صغير امام مبنى فخم وحفت بهما حديقة صغيرة بهجة .

ووقفت خاشعاً أتلو الفاتحة وأمعن النظر في قبر شيخ الاسلام ابن تيمية وقد ارتفع عن الارض نحو المترين . وبني من الرخام الابيض ووزعت عليه ألوان لطيفة من الزهر والنبات الاخضر وكتب على جوانب القبر اسمه الكريم وتاريخ مولده ووفاته .

ولصق قبره قبر العالم الجليل والمؤرخ الكبير الحافظ بن كثير (المتوفى عام ٧٧٤ هـ) وبناء قبره أقل ارتفاعاً من قبر ابن تيمية وعليه ايضاً زهر ونبات اخضر ، ويضم القبرين سياج لطيف من قضبان رقيقة من الحديد .

والقبران متواضعان لا زخرف عليهما ولا قباب ولا بناء ، الا هذا السياج الحديدي القصير والنبت والزهر الذي زرع عليهما ولعله زرع لكي لا يبدو القبران

في وحشة وليسجما مع منظر الميادين المخضرة والحدائق من حولها والتي تلقاك من لدن دخولك حرم الجامعة حتى تقف عليهما بل يمتـد المنظر الاخضر امامك حيثما نقلت بصرك .

وحَري بقبر ابن تيمية رجل العقيدة والتوحيد وصاحب الرأي المعروف في القبور والمزارات والقباب ، ان يكون في مثل هذه البساطة بعيداً عن الزخرف وعن تطاول البناء . لقد شغل ابن تيمية علمـــاء عصره ومن جاء بعدهم بخلوص تفكيره وسموه وايمانه بعقيدة التوحيد ومحاربته لكل عمـل او رأي او بدعة تبتعد قليلاً او كثيراً عن عقيدة التوحيد الخالصة متخذاً من القرآن والأحاديث المؤكدة دليله الصـادق ، فهو مثلاً يمنع التوسل لله بأي كائن من البشر ، وله في ذلك أحاديث قيمة بثها كتبه وتضمنتها مناظراته التي كان يقيمها له العلماء بأمر من حكام ذلك العهد وقد اشتهر بقوة الحجة وسعة الأفق وغزارة المعرفة فلم يكن يثبت امامه واحد من مناظريه .

وايمان ابن تيمية العميق بعقيدة التوحيد جعله يجاهر المسلمين وعلماءهم بأن الاستغاثة بالنبي لا تجوز شرعاً ويسوق الدليل تلو الدليـل من القرآن والحديث وافعال اصحاب النبي الأوائل فيقول عنهم مستشهداً بهم في كتـابه — التوسل والوسيلة — .

لو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابته ثبوتها في الحيـاة لطلب من النبي صلى الله عليه وسلم ان يقول بالامامة في الصلاة والامارة في الغزو وارسال البعوث وعقد الألوية والشعائر في الحرب واقامة الحدود وايصال الحقوق الخ . .

ويضيف ابن تيمية قائلاً :

— ان الصحابة الكرام تنـاظروا بعد النبي في امر الخلافة وجمع القرآن وفي المعارك الدامية . الخ ولم يستغيثوا به في الشدائد . وموقف ابن تيمية هـذا من

التوسل والاستغاثة قاده الى معارضة ما يقوم به المسلمون من زيارة لقبور الأنبياء والصالحين بغرض التوسل بهم لقضاء الحوائج الدنيوية او التشفع بهم لنيل رضاء الله عنهم .

وهنا نجد ان ابن تيمية لا يمنع زيارة القبور اصلا اذا كانت للعظة والتأسي ولكنها تمنع اذا كانت مقصودة لذاتها للتوسل الى الله بالشخص الميت . ويقول في كتابه — الجواب الباهر في زوار المقابر :

— ان السفر الى مسجده — يعني سيدنا محمد صلعم — وزيارة قبره كما يذكر أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب بل هذا من افضل الاعمال الصالحة ولا في كلامي وكلام غيري نهي عن ذلك ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور كما كان النبي يزور سكان البقيع وشهداء أُحد — واذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى — .

وقد ذكر في كتابه — الوسيلة والتوسل — كيفية الزيارة وآدابها فمنع من أمرين اثنين هما : الزيارة الشركية المبتدعة وشد الرحال لمجرد الزيارة . وحديث الرسول — لا تشد الرحال الا لثلاث — مشهور بين المسلمين .

وابن تيمية يقسم الاستغاثة الى قسمين قسم يتعلق بهذه الامور الكسبية التي يمكن طلبها باسبابها ومن القادرين عليها وهذه لا يرى فيها شيئاً .

وقسم يتعلق بالامور الغيبية فهي عنده عبادة لا تكون الا لله وحده .

ولد ابن تيمية في دمشق عام ٦٦١ هـ واقبل على دراسة العلوم بنهم منذ حداثته ولم يقف عند حد علوم الفقه والقرآن بل امعن في دراسة الحساب والجبر

و المقابلة والكلام والفلسفة وفي كل الوان المعرفة التي اشتهر بها عصره ولا عجب ان تراه يتأهب للفتوى والتدريس وهو دون العشرين من عمره ، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا – كما اورد الشيخ محمد بهجت البيطار في كتابه عنه – قالوا : ان كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث .

واتجه الى التأليف والبحث لافـــادة الناس ، وقال عنه الذهبي احد العلماء الاجلاء ممن عاصروا ابن تيمية – مـــا أبعد ان تصانيفه الى الآن تبلغ « خمسمائة مجلد » !

وتعرض ابن تيمية المحنة التي لا بد من ان يتعرض لها رجل صادق الايمان شجاع الرأي يحارب البدع التي الصقت بالدين ووجدت لهـــا سنداً من كثير من العلماء فكان ان اعتقل واودع سجن مصر اولاً فصار المسجونون يلتفون حـــوله ليعلمهم وكان بعضهم اذا اطلق سراحه آثر البقاء في السجن التماساً لاخذ العـــلم منه ! – فنقل الى قلعة دمشق ليحبس فيها فقال قولته المشهورة :

– ما يصنع اعدائي بي ? انا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني ?.. أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة !– وقال ايضاً :

« المحبوس من حبس قلبه عن ربه » ! – ولمـــا وصل القلعة في دمشق وصار داخل سورها نظر اليها وقال مستشهداً :

« فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .

وظل سجين القلعة في دمشق سادس شعبان سنة ٧٢٦ هـ مقيماً في قاعتها الى ان كانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي العقدة سنة ٧٢٨ هـ .

ولم تشهد دمشق في تاريخها مثل مشهد جنازته – وسأروي هنا مـــا حدث

بـه الاستاذ الجليل الشيخ محمد بهجت البيطار وقد صور هذا المشهد بعد الرجوع الى كل المصادر التي يوثق بها ممن حضروا جنازة ابن تيمية فقال :

« دخلت جنازة الامام جامع بـني امية – المسجد الاموي – وصلى عليه عقب صلاة الظهر ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه الا حضر لذلـك حتى اغلقت الاسواق في دمشق وعطلت معايشها وحصل للناس بمصابه امر شغلهم عن غالب امورهم واسبابهم وخرج الامراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والاتراك والاجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام .

قال بعض من حضر : لم يتخلف فيما اعلم الا ثلاثة انفس كانوا قـد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على انفسهم بحيث غلب على ظنهم انهم متى خرجوا رجمهم الناس !

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه انهم يزيدون على نحو من خمسمائة الف وحضرها نساء يحزرن بنحو خمسة عشر الفاً !.

قال اهل التاريخ :

– لم يسمع بجنازة تمثل هـذا الجمع الا جنازة الامام احمد بن حنبل قال الدارقطني :

سمعت ابي يقول :

قولوا لاهل البدع ، بيننا وبينكم الجنائز !

حقـاً لقد كانت جنازة شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي الذي اشتهر بابن تيمية استفتاء اجاب عليه اهـل دمشق قاطبة عندما توفاه الله بما يؤكد قوة تعاليمه ويعزز صدق بلائه في تنقية الدين من الشوائب .

وابن تيمية - كما هو معروف هو النبع الذي استقى منـه الشيخ محمد بن

عبد الوهاب مؤسس المذهب الذي عرف بالوهابية والذي يسود الآن في المملكة العربية السعودية .

ما زلت حتى الآن – والى ان تنطفىء هذه الذبالة– اذكر ذلك القبر الصغير الخالي من الزخارف والقباب القابع في العراء وبجانبه تلميذه وحبيبه الحافظ بن كثير المؤرخ العربي المشهور صاحب كتاب – البداية والنهاية – الذي يقع في ٢٤ مجلداً والذي ما يزال من المصادر الهامة للمؤرخين وصاحب تفسير القرآن الذي يعد من اقيم التفاسير – تطل عليهما سامقة جامعة دمشق وهي تموج بافواج الشباب فوج بعد فوج .. ، وأين كان يمكن ان تقام جامعة دمشق ان لم تقم هنا بجانب رجلي العقيدة الصادقة الخالية من الشوائب المتفانيين في سبيل العلم والمعرفة والبذل في سبيل الحق بالروح ؟

لقد غبطت شباب جامعة دمشق وهم ينهلون من موارد المعرفة في جامعتهم ويتطلعون الى عملاقين من عمالقة الفكر العربي الاسلامي في رحاب جامعتهم يستوحون ويستلهمون وتمتلىء نفوسهم بعظمة التراث الذي خلفه لهم هؤلاء العمالقة ويشتد اعتزازهم بانهم احفاد هؤلاء الرجال الافذاذ ! .

طيب الله ثراكما يا ابن تيمية وابن كثير لشد ما تأثرت وانا اودعكما بعد هذه اللحظات التي قضيتها بجانبكما استلهم ماضي العزة ، عزة الفكر المجاهد وهو اشد مضاء وابقى على الزمن من السيف المجاهد !

أهلاً بمن عاتبني فيه ربي

ماذا بعد هذا ايها الرفيق ؟ انك ما زلت تطوف بي بين أحيـاء دمشق وما زلت أتوق للمزيد فما وقفت بي مع أثر الا أثرت مشاعري وبعثت خواطري دافقة جياشة . فماذا بعد ايها الرفيق ؟!

ها نحن نقف مرة اخرى عند مقبرة الباب الصغير لنحيي رجلاً عرفته وأنا صغير السن في المدرسة الأولية ، عرفني به ذلك الشيخ الجليل الذي كان يقرئنا القرآن في مدرسة سنجة الأولية ويحاول ان يبصرنا ببعض معانيه التي يمكن ان تستوعبها عقولنا آنذاك ، وخاصة قصص القرآن .

حدثنا ذلك الشيخ الجليل وهو يقرئنـا سورة عبس وتولى عن ذلك الأعمى الذي أعرض عنه الرسول الكريم في مجلسه منصرفاً الى بعض سراة العرب ومنذ ذلك العهد قرت قصته في أعمـاق مشاعري وأحببته ولم أكن أدري ان الايام ستجعلني أقف يوماً على قبره حيث يرقد .

وهاأنذا عند الصحابي الجليل عبد الله بن ام كلثوم أهتف من كل مشاعري له بتحية الاسلام وأتأمل هذه الغرفة المستطيلة التي قام عليها بنـاء من الرخام ارتفع نحو المترين ، وعلى باب الغرفة مكتوب : « هذا ضريح الصحابي الجليـل

عبد الله بن ام كلثوم مؤذن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أنشأ هذا المقـــام السلطان الغازي عبد الحميد سنة ١٣٢٧ هـ » .

ولعلي لم أذكر من قبل ما عرفته من مآثر هـذا السلطان عبد الحميد سلطان تركيا وخليفة المسلمين ، فكثير من المساجد التي أقيمت على قبور كرام الصحابة وآثارهم من صنيع هذا الرجل .

وقفنا ملياً عند قبر الأعمى الذي عاتب الله نبيه الكريم من اجله .. وقيل لي وهو يسعى الى مجلس رسول الله وقلبه مفعم بالايمان ، فاذا ما بلغه وجد الرسول قد شغل بالحديث الى صفوة من سراة قريش عسى ان يهـديهم الله الى الاسلام . وقالوا : انهم كانوا عتبة بن ربيعة وأخويه شيبة وأبي جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وأخيه أمية .

وجلس ابن ام كلثوم بينهم وهو لا يعلم من امرهم شيئاً ، وماذا يريد بهم وقد جاء الى الرسول الذي شرح الله قلبه الى دينه ليقرئه ويعلمه ؟.. فهو يناديه وبه شوق ملح لتعاليمه وأحاديثه .. يا رسول الله ! : أقرئني وعلمني مما علمك الله ! ولكن النبي يعرض عنه وينصرف الى سراة قريش يتحدث اليهم عساهم يفيئون الى كلمة الحق .

ويرتفع صوت عبـد الله بن شريح بن مالك ، الذي اشتهر بابن ام كلثوم ، يرتفع صوته ليقول مرة اخرى .. يا رسول الله ! .. أقرئني وعلمني مما علمك الله ! .. ولا يرد عليه النبي وانما ينصرف الى صناديد قريش يتحدث اليهم لعلهم يسلمون ..

ويكرر ابن ام كلثوم نـداءه ، فهو أعمى لا يبصر ، ولا يتبـيـن له اهتمام الرسول بالذين حوله يهديهم الى الاسلام . ويكره النبي من ابن ام كلثوم مـا فعل حتى ظهرت الكراهة على وجهـه الحبيب لقطع كلامه .. وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد انما اتباعه العميان والعبيد والسفلة ! ..

فأعرض عنه وأقبل على القوم يكلمهم وصمت ابن ام كلثوم !.

ولكن الله الذي أدب نبيه فأحسن تأديبه حتى قال عنه في كتـابه المنزل : (وانك لعلى خلق عظيم) يعاتبه جهرة وينزل عليه قوله :

— « عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذّكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جـاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » .

وتهلل وجه النبي وقرأ الآيات على صحبه ، ولمـا رأى ابن ام كلثوم مقبلاً قال : اهلاً بمن عاتبني فيه ربي !. وكان يقولها له كلما رآه مقبلاً عليه، ويكرمه ويقول : هل لك من حاجة ?!

اي معانٍ نبيلة تهديها لنا هذه القصة ?.. هذا النبي الصـادق الأمين حقاً ، يعلن عن خطئه عندما أعرض عن رجل جاء يسعى وهو يخشى ، ويتلو على الناس الآيات التي عاتبه فيها ربه ، ولو كان يستهدف غير الحق لما تلاها ولما حدث من عتاب ربه له ، ولما علم بذلك احد ..

اي درس رفيع يهديه النبي لهؤلاء الذين يترفعون عن الاعتراف بالخطأ ?!

ويكرم النبي ابن ام كلثوم ويشرفه بأن يستخلفه على المدينـــة مرتين في غزوتين غزاهما صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يستخلف على المدينة الا الثقـاة من جلة اصحابه، وحسبك ان يكون ممن خلفهم مرة على المدينة علي بن ابي طالب.. فجعل ابن ام كلثوم في مثل هذه المنزلة .

وكان يؤذن مع بلال ، وفي حديث للنبي صلى الله عليـه وسلم انه قال يحدث الناس في شهر رمضان المبارك :

— ان بلالاً يؤذن بليلٍ فكـُلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن ام كلثوم ،

ذلك لأنه كان أعمى فلم يكن يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون الى بزوغ الفجر .. أذّن ... فيؤذّن !.

هل كان ابن ام كلثوم على فقـدان بصره يجـــاهد مع المجاهدين في الحروب الاسلامية ؟.

قال انس بن مالك : رأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء !.

ألا ما أكرمك على الله وعلى نبيه يا ابن ام كلثوم !.

ويقول مرافقي حفيد البطل الجزائري: ان في دمشق جمعية خيرية للمكفوفين تحمل اسم ابن ام كلثوم .

ونعود أدراجنا متجهين صوب قلعة دمشق ، ولكنـــا مع الأسف نجدها مغلقة الابواب فقد كنت حريصاً على زيارة الصحابي الجليل الذي ولاه سيدنا عمر ابن الخطاب القضاء في دمشق في عهد ولاية معاوية عليها، عويمر ابن عامر الخزرجي , الذي اشتهر « بأبي الدرداء » ، وقد كان اول قاضي في العهد الاسلامي لهـذه المدينة التاريخية وكنت عندما زرت متحف دمشق رأيت – شاهديْ – قبره وقبر زوجته وقد خط اسماهما عليهما بالكتابة الكوفية ، ويرجع ذلك الى القرن الرابع الهجري .

ونحيّي قاضي الاسلام الاول لمدينة دمشق على البعد وننصرف عائدين .

مع الخالدين في التاريخ

وقف بي صاحبي عند مسجد جميل المظهر في حي شعبي يشبه حي الميدان في مظهره حين زرنا قبر صهيب الرومي ولقيني عند باب المسجد - ونحن نهم بالدخول شيخ مهيب قد استدارت لحيته وارتدى الزي الشامي الاصيل ومد يده إلي مصافحا في بشر وايناس وهو يقول : الاخ من السودان ؟ قلت : كيف عرفت ؟.. قال : لقيت اخواناً لك في الحج وفي مدينة الرسول فما وجدت أكرم منهم خلقاً وأظهر شهامة ومروءة فشكرته ودخلت مع مرافقي المسجد .. ولكن .. باسم من أقيم هذا المسجد وأي جدث طاهر يضم ؟.. انه يضم جدث الصحابي الجليل قارىء القرآن أبي بن كعب الذي قال عنه النبي الكريم « اقرؤكم أبي » . ولا غرو أن اجد هذا الحديث مكتوباً بحروف كبيرة على واجهة الضريح .

وقبر أبي – ككل قبور الصحابة الاجلاء الذين زرناهم -- فرشت ارضه بالسجاد الفاخر وعليه تابوت مزخرف كتب عليه ايضاً الحديث : « اشراف أمتي حملة القرآن » .

والمسجد الذي يضم قبر ابي انيق لطيف تطيب بمرآه النفوس .

كان أبي بن كعب رضي الله عنه من القراء الذين يعتمد بهـم ، ومن المجاهدين الابرار وقد شهد موقعة بدر الكبرى .

قالوا : قرأ رسول الله « صلعم » سورة « تبارك » في الصلاة فأسقط آية فلما سلم ، قال : أليس في القوم أبي ؟.. « يعني الرسول الكريم بهذا التساؤل لكي يصححه » .

فقال أبي : وكان حاضر الصلاة — ظننت يا رسول الله ان هذه الآية « يعني التي اسقطها النبي في الصلاة » — نسخت ولذلك لم أكلمك !.

ما أعظم مكانتك عند النبي يا أبي ، فهو يسأل عنك لتصححه وفي الصلاة من خلفه كبار الصحابة والحفاظ من المهاجرين والانصار ، ابو بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت وغيرهم .

ورواية اخرى عن النبي الكريم تؤكد عظم مكانة هذا الصحابي الجليل ..

قال صلى‌الله عليه وسلم مرة لأبي : ان الله أمرني ان اقرأ عليك سورة (لم يكن الذين كفروا ..) فقال أبي للرسول : أو ذكرت ثمّ ؟ « أي اذكرت في الملأ الاعلى ؟ » فقال الرسول صلعم : نعم !

فقال أبي : أألله أمرك بذلك ؟ فقال الرسول : نعم !. فقـال أبي : تقرأه عليّ وعليك انزل ؟.. فقال رسول الله صلعم : أني احب ان اسمعه من غيري.. واهتزت مشاعر الصحابي المؤمن لهذه المكانة العظيمة ، فبكى امام رسول الله تأثراً من هذا الموقف !.

ان ابي بن كعب الذي يرقـــد هانئاً في هذه القطعة من ارض دمشق التي كرمت جدثه بهـذا المسجد الانيق والضريح اللطيف ، كان احد الرجال الذين قاموا باعظم وامجـــد الاعمال اذ وكل اليهم جمع القرآن والتحقق من الروايات

وجمعه في مصحف واحد متفق عليه ، وهو المصحف الذي عرف في التاريخ بمصحف عثمان او المصحف العثماني .

لقد نادى بهذه الفكرة اولاً سيدنا عمر في خلافة سيدنا أبي بكر وذلك عندما رأى ان عدداً من حفاظ القرآن يستشهدون في المعارك .

ولم يقبل ابو بكر الفكرة اولاً ، ولكن سيدنا عمر اقنعه ، ثم طلبا زيد بن ثابت ، وكان من اشهر الحفاظ الثقات وقالا له : « انك فتى لا نتهمك فاذهب فاجمع لنا القرآن من صدور الحفاظ » .

ولم يقبل زيد بادىء بدء ان يقوم بهذا العمل الذي لم يأمر به النبي في عهده ، ولكنهما ما زالا به حتى شرح الله صدره لهذا العمل وقد قال قولته المشهورة : « لو كلفوني نقل جبل من مكان لآخر لكان اهون عليّ من ذلك » !

وفي عهد سيدنا عمر ، لم تبذل جهود في هذا السبيل ، وقد وضع كل ما جمع منه عند السيدة حفصة .

وفي خلافة سيدنا عثمان عزم على ان يكمل ما بدأه زيد بن ثابت فوكل هذه المهمة التاريخية الدقيقة الى صفوة الحفاظ الثقات — والمشهور انهم كانوا : —

زيد بن ثابت — عبدالله بن الزبير — سعيد بن العاصي — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام — أبي بن كعب — عبدالله بن عمرو بن العاص — عبدالله بن عباس — مالك بن أبي عامر — كثير بن أفلح .

وقضيت بجانب كعب فترة امتلأت فيها المشاعر بهذا الفيض الروحي المنبعث من ذكرى رجل القرآن الذي يسأل عنه محمد صلعم عقب الصلاة ليصححه ، والذي يأمر الله نبيه الكريم ان يقرأ عليه احدى سور القرآن فيبكي تأثراً ، والذي وكل اليه تحقيق آي الذكر الحكيم وجمعها — القرآن الذي ظل

ويظل ما بقيت الحياة الدستور الخالد لكل حياة مثلى ينعم الناس في ظله بما لا يتسامى الى مثله دستور من صنع البشر – لقـد طابت دمشق بمرقدك في ثراها يا أبي ..

وعند باب مسجد أبي ونحن نودعه خارجين – لقيت ذلـك الشيخ المهيب الذي تعرف اليّ عند دخولي ما زال واقفاً ينتظرني ، وكنا في منتصف النهار ، فيعيد التحية في حرارة ويلح علي الحاحاً شديداً ان اذهب معه الى داره القريبة لاتناول معه طعام الغداء .. لشد ما تأثرت .. ولكم انتم كرماء يا ابناء الاحياء الشعبية في دمشق .

ولا اتخلص منه الا بعد لأي وهو يحملني تحاياه لكل اهل السودان .. ويظل في مكانه يلوح لي بيده حتى تختفي سيارتنا عن ناظره .

بطل عـين جالوت

السيارة تغذ بنا السير بين احياء دمشق العامرة بالناس وبالدور المتلاصقة ، فترى حينا حيا شعبيا تصور لنـا مشاهده دمشق القديمة العريقة – ونرى حينا مـا استجد من البناء وتطاول عالياً ، على احدث طراز فهو صورة لدمشق الحديثة .

لمن هذا البناء الشامخ الذي يذكرني بالمسجد الاموي فخامة وروعة ?.. ان السيارة تقف بنا عنده ، وانزل مع مرافقي لنحيي بطلاً اسلامياً له فضل واي فضل في ازالة حكم التتـار الذين سادوا هذه البقعة العربية فأفسدوا حيـاتها وأوشكوا ان يمسخوا حضارتها ، لقد كان عهد سيادة التتار نكسة تاريخية .

اننا نقف الآن عند ضريح الملك الظاهر بيبرس اشهر سلاطين دولة المماليك

وأعدلهم وأكرمهم ديناً واول من وطد حكمهم في الشام وفي مصر بعـد زوال بني ايوب .

يا للفخامة ويا للروعة لم أرَ قط مسجداً وضريحاً في مثل هذا الجمال الأخاذ . . قال مرافقي لمـا رأى الدهشة تعتريني وانا أتلفت الى كل جوانب المسجد والقبر الذي ضربت عليه قبة عالية مزينة بألوان الزخرفة من الفسيفساء الزجاجيـة الملونة كتلك التي لم أشهدها الا في المسجد الأموي قال : هذا اجمـل ضريح في دمشق على الاطلاق .

حقاً . . اني لم اشهد مثل هذا الرخام الملون ، والكتـابات المذهبة الرائعة ، ولم اشهد مثيلاً لهذا المحراب الذي افرغ فيه صانعوه كل خبراتهم الفنيـة فجاءوا به تحفة نادرة . . اينما اتجهت لا تقع العين الا على ترف فني بالغ . . ان هذه الزخارف المنقوشة يحتاج تأملها وحدها الى عدة ايام .

ان بطل معركة (عين جالوت) التي أدت الى طرد التتـار من الشام والى توحيدها مع مصر في مملكة اسلامية واحدة لجدير بهذا التكريم . .

تولى الظاهر بيبرس السلطة عام ٦٥٨ هـ بعد مقتل سلفه وقضى اكثر ايامه في محاربة التتار والفرنج حتى أنقذ البلاد من حكمهم وظفر بهم ولم يبق لهم من اثر ، وتوفاه الله عام ٦٧٦ هـ في القصر الابلق الذي كان مقره في دمشق .

أثر آخر لهذا الرجل الجليل أحسبه أبقى على الايام نفعاً من كل هذا الزخرف الذي أقيم على قبره ، ذلك هو المدرسة الظاهرية - التي تحمل اسمه - والتي أقيمت بجانب ضريحه يؤمها الالوف من الطلاب لتضيء لهم طريق الحياة جيلاً بعد جيل .

بنت الأزور :

قال صاحبي : أتعبت ؟ . . قلت : كلا ، فاني احس بنشاط لم احس بمثله قط . .

قال : فلنكمل اذن زيارتنا للسلف الصالح حيث شاء الله ان توارى اجسادهم الطاهرة .

واتجهنا الى حي آخر وقفنا هنيهة عند الباب الشرقي التاريخي — باب خالد ابن الوليد - فقد كان يحيط بدمشق ككل مدن ذلك العهد سور ضخم له سبعة ابواب ضخمة ، تغلق عندما يحاصر المدينة جيش من الغزاة فلما حاصر جيش المسلمين الذي جاء لفتح الشام في اواخر عهد سيدنا ابو بكر واوائل خلافة عمر دام الحصار نحو السبعين يوماً ، وذات ليلة ولد للبطريق الذي يحكم دمشق ولد فأولم وليمة كبرى اكل فيها الجميع وشربوا وغفلوا عن مواقفهم واحس خالد بن الوليد بهذه الغفلة ، فتسلق السور بالحبال ، ووثب الى الداخل وفتح هذا الباب على مصراعيه بعد ان قتل بعض من وجد من الحراس وقد ذهلوا عندما رأو خالداً يضرب فيهم بسيفه ودوى صوته القوي ينادي .. الله اكبر .. وتدفق جيش المسلمين الى داخل دمشق وتعالت اصواتهم بالتكبير وسقطت في ايديهم .. واستقر الاسلام فيها خالداً ، وما زال هذا الباب التاريخي قائماً في مكانه يحمل اسم البطل العظيم ابن الوليد ، وقد وجدت بعض العمال يقومون بترميمه . ان التاريخ العربي الاسلامي يعيش حياً في كل قطعة من ثرى دمشق !.

واجتزنا ميداناً واسعاً غطيت اكثر مساحته بالاسمنت لنجد في نهايته ثلاثة قبور بنيت من الرخام الابيض وارتفعت نحو المتر من الارض ولا شيء عليها من سياج أو زخارف او قباب ، فذكرتني بقبري العالمين الجليلين ابن تيمية وابن كثير في رحاب جامعة دمشق لو لا ان ذينك في بقعة مونقة مخضرة وهذه في ارض غطيت بالاسمنت لا نبت عليها ولا زهر .

اما القبر الاول الذي بدأنا به فهو للمجاهدة العربية الصحابية الجليلة خولة بنت الازور ، وقد كتب عليه ما نصه .

(هذا ضريح الصحابية الجليلة السيدة خولة أخت ضرار بن الازور الكندية

رضي الله عنها صاحبة السيرة الكريمـــة والبطولة المعروفة والجهاد الكبير في التاريخ الاسلامي — توفت في اواخر خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه) .

لقد كرم الاسلام المرأة وأعز مكانتها فكان خليقاً بخولة واخواتها ان يخرجن في سبيله مجاهدات ، منهن من تضمد الجراح ومن تسقي العطاش ، ومن تشهر سيفها مجاهدة كخولة بنت الازور التي روى التاريخ عنها في فتح الشام اروع ما يروي عن الابطال .

فسلام على الصحابية الجليلة فخر النساء العربيـــات خولة بنت الازور — واتجهنا الى القبر المجاور ، وقيل انه لشقيقها المجـاهد العظيم ضرار بن الازور ، أما القبر الثالث فقيل انه لشرحبيل بن حسنة كاتب الوحي ، واحد قواد الجيش المظفر الذي تولى فتح الشام . وقد ثبت ان شرحبيل لم يدفن هنـا في دمشق اذ انه مات بالطاعون الذي عرف بطاعون عمواس وهي قرية تقع قرب القدس وقد مات بهذا الداء اللعين في عمواس القائد العام للجيش الاسلامي الذي نشر الاسلام في كل بلاد الشام ابو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح ، ومـات كثير من اعلام المسلمين بالطاعون كمعاذ بن جبل ويزيد بن ابي سفيان .

وفي رواية ابن عساكر ان جيش المسلمين الذي كان مع ابي عبيدة يبلغ ستة وثلاثين الفاً فلم تبق منهم بعد الطاعون الا ستة آلاف رجل .

وروي الطبري ان هذا الطاعون ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكاً ذريعاً .

ولما اشتدت وطأة الطاعون بجيش المسلمين في الشام ، جمعهم عمرو بن العاص وخطب فيهم قائلاً :

« ايها الناس ، ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النـار فتجبلوا منه بالجبال .

ثم خرج هو الى الجبال وتفرق الناس في الجبال حتى رفعه الله عنهم .

وروى الطبري عن ابن عباس (ان عمر خرج في تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ – سرغ – وافاه امراء الاجناد في الشام واخبروه خبر الطاعون واشاروا عليه بالرجوع ، فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من اشار عليه به ، ومنهم من أشار عليه بالقدوم ، فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح ، افراراً من قدر الله!؟ قال عمر، نعم !.. أرأيت لو ان رجلاً هبط – واديا له عدوتان (ضفتان) احداهما خصبة والاخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ، ومن رعى الخصبة بقدر الله ؟ ثم قال : لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة؟..ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ اتى عبد الرحمن بن عوف -- وكان لم يشهدهم بالأمس – فقال : ما شأن الناس ؟ – فأخبر الخبر فقال : عندي من هذا علم – فقال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك ؟.. فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع وانتم به فلا تخرجوا فراراً منه .

فقال عمر : الحمد لله : انصرفوا ايها الناس ... وانصرف بهم عائداً ..

تأملوا هذا الحديث النبوي الذي قيل منذ اربعة عشر قرناً وانظروا احداث ما جاء به الطب الحديث من سبل الوقاية في مثل هذه الاوبئة ، مما يسمونه بالحجر الصحي ، والكارنتينة ، فهل من جديد يخرج عن نطاق الحديث القدسي؟

وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى .. صدق الله العظيم .

انا اتأمل هذا المكان الفسيح الذي يضم جدث الصحابية الجليلة فلا أحس – رغم ما بيننا من قرون زمنية ، وأبعاد في الأرض ، الا بهذه الرابطة الروحية الخالدة فهي قطعة حية من مشاعري ووجداني وعقيدتي .. مثل كل هؤلاء الذين

وقفت على قبورهم ، ومن لم يسعفني الحظ بالوقوف عليهم على قرب المزار ، ولشد ما حزنت عندما تجاوزت المنطقة التي دفن فيها ابو عبيدة عامر بن الجراح وانا في طريقي للقدس دون ان اقف عنده اؤدي واجباً كان حتماً اداؤه .. ولقد ذكرته عند قبر خولة فان جيشاً يقوده ابو عبيدة ومن فوارسه نساء كخولة حرياً به ان ينتصر وان تنتصر بانتصاره كلمة التوحيد ويعلو دين الله .

فانعموا وطيبوا ايها الراقدون في ثرى الشام بعد ان اعليتم فيها كلمة الله ..



في حي الميدان

ما اكثر هؤلاء الرجال الافذاذ الذين ضمهم ثرى دمشق ، ففي كل حي قبر لصحابي مجاهد او فقيه عالم ، او صوفي من الاعلام ، او شاعر خالد .

ولم أعجب لهذا الحماس الدافق للعروبة من كل سوري لقيته ، فالتاريخ الذي يحيط به ويستوحي أمجاده كله عربي اسلامي ، وقد عشت في هذا الجو بكل مشاعري وانا أجوب سوريا شمالاً وجنوباً ، من أقصى حدودها الجنوبية حتى الاردن الى قرب حدودها من تركيا شمالاً ، وفي كل بلد مررت به أجد أثراً عربياً اسلامياً يستحق ان تشد اليه الرحال ، يوحي لكل من يراه او يعيش بالقرب منه أسمى المعاني .

ما زلت اذكر في دمشق ذلك الحي الشعبي الضخم والذي يعد اكبر أحياء دمشق الشعبية المسمى « بحي الميدان » ويبلغ طوله اكثر من اربعة كيلومترات مكتظة بالمنازل القديمة في طرازها أو عهدها، وزميلي يحدثني عن الدور البطولي الذي قام به أبناء هذا الحي في مقاومة الاستعمار الفرنسي ابان احتلاله لسورية ، وحدثني كثيراً عن القائد لثورة هذا الحي ، وهو شيخ عالم جليل رفيع المكانة اسمه الشيخ محمد الاشمر ، مات منذ ثلاث سنوات فقط بعد ان رأى ثمرات كفاحه الشعبي : حرية بلاده واستقلالها .

ولست أنسى كيف كان سكان هذا الحي مـــا يكاد أحدهم يرانا مقبلين حتى يحيينا تحية حارة حـــتى خيل الي أني أعرفهم منذ عهد بعيد ، لم أحس قط بشعور الرجل الغريب وأنا اسير بينهم في طريقي الى جامع صهيب ... نعم ، نحن نتجه الى هذا الرومي المستضيف ، كرفيقه بلال — والذي أعزه الاسلام فصار من جلة الصحابة ، ذلكم هو صهيب الرومي والذي حظي برفاته هذا الحي الشعبي الذي برزت فيـه كل خصائص العربي من بسالة وشهامة ، وبلغنا مسجداً صغيراً نظيفاً لطيف الموقع وفي داخله قـبر صهيب الرومي . ولكم هو جميل ان ارى دائماً هذه الظاهره التي تدل على تفهم لرسالة هؤلاء الصحابة الاجلاء ، انشاء مسجد للصلاة على كل قبر ضم أحد هؤلاء الرجال الذين جاهدوا لأعلاء كلمة الله.

القبر في الجانب الشرقي للمسجد ، والسجاد — كما جرى العرف هنا — يغطي كل مساحة المسجد ويحيط بالقـــبر من كل جانب على القبر تابوت من الخشب المزخرف يرتفع عن الارض بنحو المتر ونصف المتر ، وقـد ارتفعت فوق القبر قبـــة عليها آثار القدم وعلى جدران الغرفة آيات من القرآن : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » وقوله تعالى : « ولقـــد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

وذكرت عند صهيب أعزاز النبي له هو وبلال . وقد حفظ لهما جلة الصحابة هذه المكانة ، فها هو سيدنا عمر بن الخطاب يقدمه على جـلة من كبار الرجال العرب . اذ جاء يوماً ابو سفيان بن حرب وسهيل بن عمر بن الحارث ورهط من سادة العرب وطلبوا لقاء الفاروق ، وحدث ان جاء ايضاً صهيب وبلال يريدان لقاء الفاروق ، فأذن لهما في لقائه ليستمع الى مـا يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم — وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط يأذن للعبيد ويتركنا على بابه !؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى الى الانصاف فقال لهم : أيهـا القوم إني والله أرى الذي في وجوهكم ، فـإن كنتم غضابا فاغضبوا على انفسكم ، دُعِيَ القوم الى الاسلام ودُعيتمْ — فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بـكم اذا دعوا

يوم القيامة وتركتم ؟ » .

مرحى لك يا صهيب ... ما أحسن مثواك

ونعـود ادراجنا لنشق الحي الشعبي العظيم ، ولست انسى اولئك الرجال الكرماء الذين لقوني عند مسجد صهيب فألحوا على ان أغشى دارهم وأنال شيئاً من طعامهم ولو كان في الوقت متسع لما ترددت في الجلوس اليهم وان آلمني جهلهم ببلادي – وهم معذورون في هذا – فالعزلة التي ضربت في عهد الاستعمار وقـلة وسائلنا للتعريف بنا جعلتنا مجهولين ليس لدى البسطاء الذين يسكنون هذا الحي الشعبي في دمشق بـــل عند الأغلبية الساحقة من المثقفين في البلاد العربية ، وقـــد كان هذا الجهل الفاضح يتجلى لي واضحاً كلما التقيت ببعضهم وتحدثنا معاً وجر الحديث الى السودان ... اننـــا في حاجة الى جهود ضخمة فردية وحكومية لنجعل جيراننا ومن تربطنا بهم أوثق الوشائج يعرفوننا جيداً قبل غيرهم .

واغادر حي الميدان ونكهته الشعبية المحببة تملأ حواسي وتفيض بها مشاعري.



قاهر النفس وقاهر الأعداء

قلت للسائق وقد اطلق لسيارته العنان ونحن نسير في شارع المجاهد العربي الكبير عبد الرحمن الشهبندر ، قلت له : تمهل بربك ودعنا نتملى جمال دمشق الحديثة ، فهذا الجانب من المدينة الذي يشقه هذا الشارع الفخم المظهر ، يمثل أحدث ما بلغته في فن العمران :

واستجاب السائق مشكوراً فخفف من غلواء انطلاقه، واتاح لنا فرصة التمعن في جمال العمران .. وكان اجمل ما رأيت بناءين حديثين احدهما لوزارة المالية والآخر للبنك المركزي ، والأخير اكثر روعة وأوضح فناً وقد جثم امامه تمثال لأسد ضخم .. وقال مرافقي ان هذا البناء قد اقتبس من تصميم بناء بنك روما في ايطاليا ، ومثل هذا الفن المعماري خليق بايطاليا .

واخذت المباني الحديثة تختفي عن انظارنا رويداً رويداً ليواجهنا حي شعبي مزدحم بالناس ، يموج بهم سوقه المتواضع الذي يذكرني بأسواق الاحياء الشعبية في أم درمان ، والدور صغيرة متلاصقة على النمط القديم .. انه حي الشيخ محيي الدين .

لِمَ نسعى الى هنا ؟.. وماذا نريد؟..ها نحن ننزل في منتصف السوق وعيون كثيرة لنساء ورجال وأطفال تنظر اليّ في عجب ودهشة لا تخفى على بواعثها ،

فالزي الذي ارتديه وسحنتي الغريبة عليهم ، وربمـــا هذه العمامة المكورة على الرأس والحذاء السوداني « المركوب » « من جلد النمر » كل هذا جديد عليهم أو من القليل النادر الذي طاف بحيهم !.. انني أقرأ هذا في وجوههم جميعـاً حتى اولئك النسوة اللواتي وضعت كل منهن برقعاً اسود رقيقاً على وجهها !.. واكثر النساء في الاحياء الشعبيـــة بدمشق وكل المدن والقرى التي طفت بها في سوريا يضعن على وجوههن الصباح هذا البرقع الاسود الذي لا يمنع اشعاعات الجمال ان تخترقه قوية نفاذة !..وهن ايضاً يرتدين جلابيب سوداء تنزل الى ما تحت الركبتين وليس معنى هذا انك لا ترى في طرق دمشق واسواقها فتاة سافرة وعلى احدث ما يكون في زيها . فهذا الزي الحديث ينتشر في كل الاحياء الحديثة .

ما سر هذا اللون الاسود الذي يحرص عليه اكثرية نساء سوريا في احيائهـا الشعبية ؟.. لقد اوحى اليّ وهن يتخطرن به في زهو المدل بحسنه ، القصـــة القديمة التي روتها كتب الادب العربي قصة ذلك التاجر الذي قدم الى « المدينة » يحمل من العراق ثياباً مختلفة الالوان ليبيعها في المدينة ، فباعها كلهـا الا الاسود منها فشكا ذلك الى صديقـه الشاعر المعروف باسم « الدارمي » وكان قد هجر الحياة وتنسك وانقطع للعبادة ، ولكنه تأثر لما اصاب صاحبه من بوار ثيابـــه السود فأنشأ بيتين من الشعر ودفع بهما الى من يغني بهما في المدينة ، وهما :

قل للمليحة في الخمار الاسود	ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟
قد كان شمر للصلاة ثيابـه	حتى خطرت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامـه	لا تقتليـه بحق دين محمد !

فشاع الخبر في المدينة ان الدارمي رجع عـن زهده وتعشق صاحبة الخمار الاسود فلم تبق مليحة في المدينة الا اشترت لها خماراً اسود !.. ولم يبق للتاجر من ثيابه السوداء شيء وعاد الدارمي الى نسكه وعبادته . والدارمي هذا هو ابو محمد عبدالله التميمي ولد في سمرقند عام ٧٩٨ م. اشتهر بالحديث . ومن تلاميذه

مسلم وابو داود والترمذي والنسائي ، وكلهم من أئمة رواة الحديث الثقات .

أترى النساء العربيات مـا زلن على عهدهن للدارمي منذ ان اغراهن بلبس السواد ؟!

اما ازياء الرجال في دمشق وفي سورية عموماً فهي تذكرني دائماً بما نحن فيه في السودان من تباين في الازياء .. انك تشهد في كل شارع « كرنفالا » غير مقصود يتمثل في هذه الازياء المختلفة التي يرتديها الرجال ، البدلة الافرنجية المعروفة – السروال الاسود الطويل والصدار ، والعمامة المرسلة على الكتفين يقيدها على الرأس عقال اسود – وشيء يشبه القفطان وحزام حريري حول الخصر يقارب لبس رجال الدين عندنا ولكن ليس على الجسم رداء سواه .. وعلى الرؤوس انماط من الاغطية ، وفي اكثر الاحايين – اتماماً للوجاهة – تتدلى من اليد « سبحة » من القهرمان تعبث بها الاصابع !.. ولو اخذت اعدد انماط اللبس لاخذت جزءاً كبيراً من الصفحات ولمل القارىء متابعتي .

قلت اني في حي الشيخ محيي الدين .. فالى أين ؟ الى هذا الرجل الصوفي الفيلسوف محيي الدين بن عربي الذي يرقد في ثرى الحي الذي سمي به ، ابن عربي الذي اختلف الناس في أمره ومـا زالوا مختلفين منذ ان خرج عليهم بآرائه وفلسفته في التصوف وشئون الدين في العديد من الكتب والرسائل واهمها كتابه المعروف « الفتوحات المكية » .. اختصم الناس في امره ، فبعضهم انكر فلسفته وسفهها ، وبعضهم رفعه الى مرتبة الاولياء وكبار المتصوفة ، وهـا هو الآن ينام مـلء جفونه عنهم وهم يختصمون حوله – على حد تعبير ابي الطيب المتنبيء يصف المختصمين حول شوارد شعره :

انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم !

وقرب السوق التي ازدحمت بانماط مختلفة من الناس ، ولصق دور ذات مظهر شعبي واضح ، واجهنا مسجد كبير عالي المآذن والقباب ، وقيل هذا

مسجد ابن عربي الذي يضم قبره ، ودخلنا المسجد الرائع المظهر وقد توسطت صحنه « فسقية » ماء لطيفة ضاعفت من جمال مظهره . وارض المسجد على سعتها فرشت بالسجاد ، واشهد اني ما دخلت مسجداً الا وجدته مفروشاً بالسجاد الفاخر تكريماً وتعظيماً . وتدلت من السقف ثريات كثيرة متعددة الاحجام والاشكال ، جميلة رائعة ، واعمدة المسجد بنيت بشكل مخروطي لطيف .. وبعد ان ادينا تحية المسجد اتجهنا الى الجانب الشمالي منه لننزل بسلم يحتوي على ١٦ درجة ووجدت نفسي في حجرة واسعة مزخرفة الجدران يتوسطها بناء قبر ارتفع اكثر من المترين ، ولا تسل عن التابوت المزخرف الذي احتوى القبر والمحاط بالجوخ المطرز بالآيات القرآنية والسجاد الفاخر جداً الذي يغطي كل ارض الغرفة الكبيرة فذلك مالا يوصف الا بالمشاهدة وقد توسطت سقف الغرفة قبة عالية تحمد لليد التي زخرفتها من الداخل ما صنعت من حيث روعة الفن .. والزخرفة من الفنون التي اجادها العرب وافرغوا فيها كل مواهبهم وملكاتهم الفنية بعد ان حرم عليهم صنع التماثيل ورسم الحيوان والانسان وكل كائن حي ..

ان السياج الذي اقيم حول التابوت صنع من قضبان من النحاس ربط بينها في تناسق بديع باسلاك من الفضة الخالصة وعلى الجدار الشرقي من الغرفة قطع من القيشاني النفيس النادر كتبت عليها سورة الرحمن كاملة .

وقفنا – بعد ان تلونا الفاتحة – عند القبر نتطلع الى هذه النفائس الفنية التي احيطت به وجلال ذكرى الفيلسوف الصوفي يملأ اقطار نفوسنا .. وعدنا نستجلي جانباً من تاريخه الحافل .

فهو محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبدالله الحاتمي الذي اشتهر بمحيي الدين بن عربي « دون الف ولام » نفحة من نفحات الاندلس ، ولد في مرسية في اواخر رمضان سنة ٥٦٠ هـ ، ثم انتقل الى اشبيلية وأقام هناك حتى عام ٥٩٨ ، وغادرها

لاداء فريضة الحج ولم يعد اليها حتى توفاه الله بدمشق ليـلة الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ .

وقد طاف ابن عربي ببلاد كثيرة كمصر وبغداد والموصل وبلاد الروم متعرفاً الى الرجال والافكار شيمة علماء ذلك العهد اذ لم تكن المعرفـــة سهلة الانتقال للناس كهذا العصر الذي ابتدعت فيه وسائل اتصال الافكار والناس ، بـين كل انحاء العـــالم في سهولة ويسر . فكان على طالب المعرفة قديمـــاً ان يجهد نفسه ويتحمل مشاق السفر بالدواب والسفن الشراعية حيثما كانت هناك انهار او بحار ليصل الى العالم الذي يريد ان يأخذ عنـه العلم ثم الى آخر ، وهكذا ، حتى يبلغ غايته ويصير هو عالماً تشد اليه الرحال من كل فج .

والدكتور ، او الدكاترة زكي مبارك — طيب الله ثراه — عنـدما تصدى في كتابه القيم — التصوف الاسلامي — لابن عربي قال :

— « انـ التصوف في جوهره نوع من التسامي في الروحانية . والصوفية الاخيار كانوا في الاصل من عشاق الصور الحسية ، ثم ضاقت امامهم دنيا الحس فتساموا الى دنيا الروح » !

ويتساءل زكي مبارك ان كان لأبن عربي صبوات في عالم الحس قبل ان تنتقل صبواته الى دنيا الروح ؟!.. ولا يجد مشقـة في العثور على الدليل فيما سطره ابن عربي نفسه في مقـدمة كتابه — شرح ترجمان الاشواق — فقـد روى قصة تلك الفتاة الحسناء التي حلت في قلبـــه مكاناً عظيماً — وملكت أقطار روحه - كما قال : وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في الحجاز وقـد اتصل حبل الود بينه وبين رجل من أهل العلم بمكة .. وكتب ابن عربي يروي قصة حبه فقال :

— « كان لهذا الشيخ رضي الله عنه بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر وتزين المحاضر وتحير المناظر ، تسمى « بالنظام » وتلقب « بعين الشمس والبهاء »

من العابدات العالمات ، ساحرة الطرف ، عراقية الظرف ، ان اسهبت اتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، وان أفصحت أوضحت ، وان نطقت خرس قس بن ساعدة، وان كرمت خنس معن بن زائدة!..عليها مسحة مَلَك وهمة مَلِك.. فراعينا في صحبتها كريم ذاتها فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب احسن القلائد بلسان النسيب الرائق، وعبارات الغزل اللائق ، فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكني ، وكل دار أندبها فدارها أعني » !

ويقول زكي مبارك معقباً :

– «ولا شك عندنا في نبل ذلك الهوى وطهارته وبراءته من وضيع الاغراض لأن ابن عربي يتحدث حديث الرجل العفيف وهو عندنا صادق ، ولكن ذلك العفاف هو الدرجة الاولى بين هوى الارض وهوى السماء، وهو بداية العزوف من المتعة الحسية والاقبال على المتعة الروحية ! » .

لو أذن الموتى ان يتكلموا لحدثنا ابن عربي ونحن وقوف بين يديه عن هذا الهوى المشبوب الذي تسامى به حتى بلغ مكانته من التصوف .. ولكن ! .منذ متى تحدث الموتى ؟!

غفر الله لك يا زكي مبارك ولعلك لقيت الشيخ ابن عربي في العالم الآخر فاشتفى منك او اثابك – ان كان في العالم الآخر مجال لذلك، فقد جعلت الشيخ وهو ينزع الى عالم المثل ، انما – « يشفي شهوة مقهورة عز عليها ان تتنفس » ويداوي جوى في المصدر عز منه الشفاء .. وقلت عنه – .. « وأكاد اجزم بان حاله يشبه حال ساكنات الديارات فالراهبة الجميلة لا تعرف الدير الا بعد ان يطول شقاؤها بما تحمل من قلب ظامىء ممنوع من الورود وهناك تنتظر الشفاء بما تتلهى به من العظمة الكهنوتية ومن التطلع الى النعيم المرموق في السماء » .

ما تعني فلسفة ابن عربي في التصوف ؟.. ان ايراد أي شاهد من كتابه

الفتوحات المكية الذي يعد مفتاح فلسفته يتعذر فهمه الا لاولئك الذين عاشو بافكارهم في هذا الجو الصوفي الفلسفي المليء بالرموز والايماءات .

وموجز الرأي فيه انه – « كان يرى الشريعة – من حظ العوام ويرى الحقيقة من حظ الخواص – .. وكانت دراساته للشريعة تمهيداً لشرح الحقيقة وكان الفقه عنده مقدمة لدرس احوال القلب » .

هل لي ان أقول ، من هذا النبع استقى عندنا الاستاذ محمود محمد طه فلسفته الدينية التي يبشر بها ؟.. ولكن ابن عربي بالرغم من قوله بان الشريعة من حظ العوام وان الحقيقة من حظ الخواص لم يعرف عنه انه تخلى عن اداء ما فرض على المسلم اداؤه بحكم الشريعة .

أنا لا أحسن الغوص في هذا البحر اللجي ، ولكنها خواطر ثارت في نفسي وأنا أقف عند قبر احد الافذاذ من فلاسفة المتصوفة فأترحم عليه وأجل فيه العقل الذي يأبى الحجر ، واكبر فيه قهر النفس ، وتلك مرتبة يتقاصر عنها البشر !.. وأدعو من كل قلبي لحسناء مكة التي الهبت قلبه بنار الحب والحرمان فتسامى ونظر الى الوجود كله هذه النظرة الانسانية الشاملة التي تمثلت في ابياته هذه :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
ومعبد اوثان ، وكعبة طائف	والواح توراة ،ومصحف قرآن !
ادين بدين الحب انّى توجهت	ركائبه ، فالحب ديني وايماني !

معذرة بطل الجزائر !... فقد وقفنا طويلاً عند الفيلسوف الصوفي الذي احببته وآثرته بالجوار ولم نتجه اليك .

ان البطل المجاهد عبد القادر الجزائري يرقد بجوار محيي الدين بن عربي في ذات الحجرة فلنتجه اليه لنحييه ونستشعر لوناً آخر من البطولات في سبيل

اننا نقف عنده ونتأمل ضريحه الطيب وقد حفت بـــه الآيات الكريمة منقوشة على جوانب القبر ، وفي جانب مــــن الضريح كتب موجز لسيرته وبطولاته جاء في مستهلها .

– هذا بطل من ابطال الاسلام وعـلم من اعلام الهدى عالم الامراء وامير العلماء وصاحب المواقف الامـــير ابو المكارم ناصر الدين السيد عبد القادر بن محيي الدين .

والمجاهد عبد القادر الجزائري احد الابطال الذين أودى بهم الاستعمار وهم يناضلون في ايمان لانقاذ بلادهم من براثنه، فعندما استولى الفرنسيون على مدينتي وهران والجزائر ، اجتمع المسلمون في الجزائر ونصبوه عليهم سلطاناً وقائـداً ليجمعهم على كلمة الحق ويقودهم الى حرب المستعمرين لطردهم من وطنهم وقـد انسوا فيه الشجاعة والايمان والصمود أمام الغزاة . فجعل مدينة « أم عسكر » عاصمة لقيادته ، ومنها اخذ يشن غاراته الموفقة على الفرنسيين .

وظل البطل عبد القادر يدير رحى الحرب ١٦ عاماً دون ان يضعف أو يستكين ولم يستطع الفرنسيون ان ينالوه أو يقضوا على كفاحه طوال تلك الفترة وقد ضاقوا به ذرعاً .

ستة عشر عاماً لم يهدأ الشيخ الثائر ولم يترك الفرنسيين ينعمون بالهدوء .. ثم شاء الله اخيراً ان يأسروه في معركة رموا فيها بكل امكاناتهم بعد ان نال منهم منالا عظيماً .. وأخذوه اسيراً الى فرنسا .. وظل في الاسر فترة رأت فرنسا بعدها ان تقصيه بعيداً عن وطنه طلبت اليه ان يختار بـلداً ينفى اليه ويعيش فيه بقية حياته فاختار دمشق موطناً . وجـــاء اليها بأسرته حتى توفاه الله . وقد كان بجانبي وانا على قبر الجزائري حفيده الذي يعمل مديراً لمكتب الامن

العام للمتاحف والآثار ، وقد تفضل مشكوراً بالطواف معي في هذه الرحلة ، وقد وقف خاشعاً أمام قبر جده يتمتم ببعض سور القرآن ..

ووقفت ملياً انقل الطرف بين قبري الرجلين العظيمين ، من جاهد النفس ليقهرها لترتفع الى الآفاق العليا ، ومن حارب بالسيف والنار في سبيل العقيدة والوطن ليطهر ارضه من رجس الغاصبين .

وعدنا نعلو الدرج في بطء بعد ان القينا النظرة الاخيرة على الغرفة الانيقة التي تضم الضريحين الطاهرين لننفذ الى المسجد الفخم الذي بناه السلطان سليم الاول التركي عام ٩٢٣هـ مع ضريح محيي الدين بن عربي تخليداً لذكراه وللسلطان سليم هذا اكثر من مسجد وتكية في دمشق وغير دمشق من بلاد الشام كما عرفت قديماً وقد حولت التكايا الى ما ينفع الناس ويقوم المتحف الحربي في دمشق في مبنى احدى هذه التكايا .

وخرجنا من المسجد البديع الى زحمة الحياة في دمشق تشق السيارة بنا طرق هذا الحي الشعبي ، حي ابن عربي – الذي يحدثك مظهره عن دمشق الصميمة ، دمشق الكادحين .

وبالقرب من هذا الحي يطل شامخاً جبل قاسيون الذي يتراءى لك من أي بقعة من دمشق ، وعلى سفحه حي الصالحية الذي يتدرج صاعداً حتى يعلو جانباً من الجبل الاشم ، ولكم يبدو منظر قاسيون رائعاً كلما دجا الليل ولمعت الثريات الكهربائية لحي الصالحية الذي يعلو جوانبه فتبدو من بعيد كالنجوم اللامعة تخلب اللب وتستهوي النظر .

لقد شهد قاسيون مولد هذه المدينة منذ القدم ، وساير احداثها ، وسوف يسايرها حتى يرث الله الارض ومن عليها ، فهو معلم من معالمها الخالدة ليس لنا ان نقترب منه دون ان نذكره ونحييه وان كان جماداً لا يحس .

ونودع قاسيون وحي ابن عربي وقـــد اطلت تلك الوجوه تنظر الى هذا الغريب في فضول وحيرة ، ومن خلف كل خمار اسود كنت احسن بـلذع تلك النظرات التي كانت تسأل في فضول عني .. من يكون هـــذا الاسود في الزي الغريب ؟!



الى الغوطة

أما وقد امتلأت النفس من جلال التاريخ وعظات الماضي فلا بد من ان نروّح عنها وان نرى جمال الحياة من حولنا ونأخذ حظنا منه ، فالى جنات دمشق في تلك البقعة التي انفردت بأبدع هبات الطبيعة الى – الغوطة – وما احسب ان دمشق حظيت بهذا الاسم الشاعري – الفيحاء – الا من جنات الغوطة .

والغوطة تقع خارج دمشق ولكنها لا تبعد عنها كثيراً ، بل بضعة كيلومترات وما كدنا نبلغها حتى تبدل كل شيء فقد شاقتنا الحدائق الغناء ، والماء المتفجر من الينابيع وينساب مع الجداول التي تحيط بك انى جلست في تلك – الكازينوهات – الجميلة الانيقة التي تضفي على جمال الطبيعة من حولها حياة وروعة ، والفاكهة المنوعة دانية القطوف ، ومن هناك جبل قاسيون يحتضن دمشق ويطل على الغوطة الفيحاء التي الهمت الشعراء الكثير من الروائع .

ان من يزور دمشق ولا يصل الغوطة فانه لم ير دمشق .

لقد حسبت اولاً وانا ادخل دمشق ان – دمر – والربوة ، هما اجمل ما جادت به الطبيعة حول دمشق حتى رأيت الغوطة فعلمت اني كنت واهماً .

ولست انسى ، وكنا في يوم جمعة ، عندما طفت بالربوة ويجانبها نهر بردى

وعلى جانبيه الاشجار والحدائق ، تلك الجموع الحاشدة من الرجـــال والنساء والاطفال على شطـَّيْ بردى وقد افترشوا الأرض الخضراء او السجاجيد والحصر وهم في انس وبهجة ، والاطفال والشباب يقطعون بردى وثبـاً وهو لا يتجاوز سيقانهم عمقاً .

لقد فتن امير الشعراء — شوقي — من قبل بدمر والربوة والغوطة فقال فيها:

-- والحور في — دمر — او حول هامتها
حور كواشف عن ساق وولدان

-- وربوة -- الواد في جلبان راقصـــة
الساق كاسيـــة والنحر عريان

والطير تصدح من خلف العيون بهـــا
وللعيون كما للطـــير آذان

وأقبلت بالنبـــات الارض مختلفا
افوافــه ، فهو اصبــاغ والوان

ولقد فتن العرب من قبل بهذه الأماكن الساحرة عندما جاءوا اليهـــا عبر الصحراء المحرقة ووجدوا الجنات والانهار في أرض الشام فأولعوا بها، ولم يكفهم ما نظموا من روائع الشعر وبدائع النثر حتى احاطوها بقداسة دينيـة فنسبوا الى النبي احاديث في تعظيمها واجلالها ، واخذوا من القرآن آيات فسروها بمـا ارضى افتتانهم بجنات دمشق .

ففي تاريخ ابن عساكر يروى عن ابي امامة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى — واويناه الى ربوة ذات قرار ومعين — ثم قال :

— هل تدرون اين هما ؟

قالوا : الله ورسوله اعلم .. قال : هي بالشام ارض يقال لها الغوطة مدينة

يقال هي خير مدائن الشام .

ويروي ابن عساكر ايضاً فيقول : قال ابن عبـــاس : الربوة هي دمشق والقرار المعين انهارها .

ويمضي ابن عساكر في تاريخه فيروي شتى الاحاديث والتفاسير التي توحي بان الربوة والغوطة اشار اليهما الرسول ، وفسرت بهما آية وآوينـــاه الى ربوة ذات قرار ومعين .

ومهما يكن حظ هذه الاحاديث او التفاسير من الصحة فانهـا تؤكد مدى اعجاب العرب وهم يتأملون هذا الجمال الطبيعي الأخـــاذ في الغوطة والربوة وغيرهما من مفاتن دمشق .

ولكم وددت لو طال مقـــامي في الغوطة ولكني ضيف عجل ويفز ... رفيقي اذ يقترح عليّ ان نزور منطقة – المزة – وكانت قريبة منا .. ومن حقي ان افزع فقـد اشتهرت المزة بسجنها الشهير الذي يضم عتاة المجرمين ومعارضي الحكومات .. فهو كسجن – طرة – في مصر – وكوبر – في الخرطوم !.

ويصر رفيقي ان نذهب الى هناك فأذهب معـــه وأنا كاره وكيف تطيب النفس ان تفارق جنات الغوطة الى سجن المزة ؟!

وفي الطريق الى المزة تستوقفني عدة منازل صغيرة حسنة المظهر ، يحيط بها سور واحد يطبق عليهـا من كل جانب عليه باب واحد يقف عليـــه جندي مدجج بالسلاح .

وحسبتها بادىء بـدء انهـــا جزء من سجن المزة الذي نقصده ، فتعجلت وسألت رفيقي ، أوصلنا سجن المزة ؟ وأشرت الى المنازل المسورة والتي يرابط عند بابها الجندي المسلح .. فضحك ضحكة عاليـة لم ادهش لهـا عندما عرفت سرها بعد ذلك !.

وليتها كانت من مباني سجن المزة كما توهمت ، فقد عرفت ان داخل هـذا السور ، وفي تلك الدور المتلاصقة، يعيش عدد من الفتيات اللواتي شاء لهن القدر ان يحترفن البغاء !.

وهنا طلبت اليه ان يحدثني باسهاب عن قصة هـذا المكان ، وطافت بذهني صور عديدة لهذه المشكلة التي تعانيها بلادي وفشلت في ان تجد لهـا حلا مرضياً .

لجأت حكومة سوريا الى نظام فريد لتنظيم البغاء – لا تحريمه - فهي تبيح للبغايا ان يمارسن البغاء ، ولكن تحت اشراف الحكومة وبالشروط التي وضعتها لهن ، فهي تحصرهن كلهن في هذه المنطقة خارج المدينة ، وتضعهن تحت الرقابة الصحية المتوالية كما فرضت الرقابة ايضاً على زوارهن اذ يقف هذا الجندي المسلح ليحقق في امرهم .. تسألني فيم يحقق ؟.

لقد قررت الدولة ألا يزور هذا المكان الا « العزاب » وان يصد عنـه المتزوجون ، ولما كان لكل شخص في سوريا بطاقة اثبات الشخصية ، وفي هذه البطاقة يثبت ان كان الشخص متزوجاً او عازباً ، فيجب على زائر هـذا المكان ان يبرز للجندي بطاقته اولاً ليحقق فيها – فان وجد الشخص متزوجاً كما هو مثبت في البطاقة ، صرفه ، وربما اتخذ ضده اجراء آخر يؤنبه فيه ، اما ان كان عازباً فتشه تفتيشاً دقيقاً قبل ان يأذن له بالدخول .. وسر هذا التفتيش الدقيق التأكد من انه لا يحمل سلاحاً ، اذ قد يكون ذا رحم لبعض البغايا ويريد قتلها انتقاماً للشرف ، فـاذا وجد الجندي عند الزائر العازب سلاحاً مهما كان نوعه جرده منه واذن له بالدخول .

اذن فـان حكومة سورية تبيح البغاء بعد ان تحصره في بقعة منعزلة تمنع المتزوجين من ارتيادها وتجرد العازب عند دخوله من السلاح خوفاً من ان يقتل احداهن دفاعاً عن الشرف ؟.

أيمكن ان يكون هذا الوضع صالحـــاً للتطبيق عندنا ؟ لست ادري ولقد ذكرت وضعاً يقارب هذا شهدتـه في الخرطوم وانا طالب في مدرسة العرفاء في كلية غردون القديمة وكانت الارض بين مباني الكلية ومستشفى الخرطوم الحالي اكثرها فضاء تعلوه الرمال وكنا نقطعه احياناً سائرين لنزور اخواننا المرضى في غرفة الطلبة بالمستشفى ، وقبل ان نبلغهم كنا نمر بالقرب من حي صغير خصص للبغايا ، فكنا ننظر اليهن في اشمئزاز ، والجنود البريطانيون يجوبون ذلك الحي القذر .. ولكن هذا الحي أزيل فيما بعد عندما حرم البغاء العلني .

وتذكرت ذلك الانجليزي المرح المستر توماس معتمد بورتسودان ، وكنت اعمل في مدرسة سواكن التي كان يلم بها الحين بعد الحين .. وكانت الصحـافة المصرية قد نشرت القرار الذي اصدرته حكومة النحـــاس باشا في ذلك العهد بتحريم البغاء ، وقد اعتادت حكومـة السودان في ذلك العهد ان ترسل تقارير للاداريين الانجليز تتضمن اهم الانباء الصحفية والتعليقات الهامـة ، وقرأ مستر توماس ان النحاس باشا قد اصدر قراراً بتحريم البغاء ، فكتب يعلق على هـذا القرار :

— « عجيب امر هذا الرجل يريد ان يلغي بجرة قلم اقدم مهنة عرفهـا البشر ! » .

ولكم ضحكنا يوم ذاك على هذا التعليق الساخر ! .

ان مشكلة البغاء تعاني منها كل البلاد حسب مستوياتها الاجتماعية ، فمنهـا الدول التي اباحته دون قيد وشرط ، ومنها من حرمته وشددت عليـه النكير فانطلق في الخفاء يفري جسد الامة .. ومنها من وقفت بين الاباحـة والتحريم محاولة ان تجد مخرجاً ، كهذا الذي اشاهده الآن قرب المزة في سورية .

قلت لمرافقي : هذا اقسى من سجن المزة ، فعد بنا الى الغوطة فـان الوقت

اثمن من ان نرى هذه الصور القاتمة للانسانية المهدرة الكرامة ٠

وعدنا الى الغوطة لنجد في رياضها وامواهها المنسابة انساً وبهجة اخرجتنا من ذلك الضيق الذي احسسنا به هناك حيث الدور الصغيرة المتلاصقة يحترق بين جدرانها شباب فتيات بائسات يحرسهن جندي مدجج بالسلاح !



في الطريق إلى عمَّان

ان كانت لبنان قد اهدتنا هذا الجمال المادي الساحر الذي تجلى في كل مظاهر حياتها وطبيعتها فقد اهدتنا القدس والطريق اليها هذا الجمال الروحي الغامر الذي يشع من المآذن والقباب وآثار الانبياء والرسل اينما اتجهنا او وقفنا وفي كل شبر سلكناه في تلك الارض ذات الجلال التاريخي .

غادرنا دمشق متجهين نحو عمان عاصمة الاردن لنقضي فيها فترة نستأنف بعدها رحلتنا الى القدس — ولنؤدي صلاة الجمعة في اول مسجد اتجه اليه سيدنا محمد (ص) في صلاته ، المسجد الاقصى — ولنعيش اياماً ليست كالايام — بين اثار وقبور الانبياء والرسل وروائع التاريخ الروحي . والمسافة بين دمشق وعمان نحو مائتي وعشرين كيلومتراً وبين عمان والقدس لا تتجاوز التسعين ، ويجدر بي ان اشير اولاً الى هذا النظام الدقيق الذي تسير عليه وكالات السياحة هناك اذ يكفي ان تسجل عندها موعد سفرك للجهة التي تريدها حتى تجد السيارة التي تقلك جاهزة في نفس الموعد — وسيارة التاكسي التي تتبع هذه الوكالات السياحية فارهة حقاً بكل ما تحمل كلمة فارهة من معنى ، واشير ثانياً الى رخص اجور السفر على هذه السيارات ، واذكر بالتحديد ان ما يدفعه الراكب من لبنان حتى دمشق خمس ليرات لبنانية — اي ما يعادل ستين قرشاً بعملتنا السودانية — ومن دمشق حتى عمان عاصمة الاردن عشر ليرات سورية .

اي ما يعادل نحو التسعين قرشاً عندنا — اما من عمان حتى القدس فما يساوي خمسة وثلاثين قرشاً فقط ، والسيارة تحمل خمسة اشخاص لا اكثر وما بهـا من سوء غير هذه السرعة الجنونية التي يتميز بها سائقوها في كل هـــذه المناطق لا تفاضل بينهم ، فما ركبنا مع احدهم الا ترحمنا على سابقه — ولو كانوا يسيرون على سهل منبسط لكان الخطب هيناً ، ولكنهم يسيرون في اكثر الاحايين على قمم جبال شاهقة وتحتهم على مدى يسير جداً قد لا يتجاوز المترين احياناً هوة سحيقة لو انحرفت السيارة نحوها لأي سبب مفاجىء لما كان هناك امل اطلاقاً في نجـاة احد من ركابها.

والذين سافروا عن طريق تسنى الى اسمرا بالسيارة يمكنهم ان يجدوا تشابهاً بين الطريقين وخاصـــة في منطقة كرن ومع هذه الخطورة البادية والسرعة الجنونية التي يسيرون بها فقد علمنا انه لم تقع حوادث في تلك الطرق الا في حالات نادرة جداً . اذكر ونحن في طريقنا من عمان ان لقينا قرب احدى المدن الصغيرة جندي حركة كان يترصد السيارات ، ولما رآه السائق الذي كان يقلنـا — وكان كالعادة يسير بسرعة تبلغ المائة وعشرين كيلو في الساعة — حاول ان يخفف من السرعة ، فأوقفه الجندي واخذ يؤنبه ويهدده بالعقاب ، وضحكنا عندمـا اعتذر السائق بأنه كان يسير بسرعة ثمانـين فقط — لأن الثمانين سرعة مباحة . واوشكنا انا والسيد ابو سن ان نذكر الحقيقة للجندي ، ولكننا خشينـا ان ينتقم السائق منا بعد ان يتجاوز الجندي بأن يسير بسرعة اكثر من المائة وعشرين ومن اين لنا بجندي آخر فوق تلك الجبال الجرداء الموحشة لينقذ حياتنا ؟..

قلت اننا غادرنا دمشق متجهين صوب عمان وكان اول قرية نبلغها في الطريق قرية — الكسوة — التي ترابط فيهـــا قوة من الجند وقد اشتهرت هذه القرية الصغيرة في احداث الانقلابات السورية العديدة ورددت اسمها وكالات الانبـاء اكثر من مرة ويبدو ان قرب حاميتها من دمشق اكسبها هذه الأهمية في احداث الانقلابات . واجتزنا قرى عديدة كانت اشبه بقرى الجزيرة عندنا ولم تكن آثار

العمران واضحة فيها ، وان كنا نجد في اكثرها الواناً من الفاكهـة معروضة في اسواق صغيرة قرب مواقف السيارات العابرة مثل هـذه الاسواق الصغيرة التي تجدها حول مواقف البصات هنا وفي بعض القرى :

وبلغنا مدينة — درعا — آخر الحدود السورية ومنها تبدأ رحلتنا في اراضي المملكة الاردنية الهاشمية — ودرعا — مدينة كبيرة وهي عاصمة مقاطعة حوران التي تعد من اكبر المقاطعات السورية ويبلغ عدد سكانها نحو الثمانين الفاً. ومقاطعة حوران هي مهد الغساسنة ذوي التـاريخ المعروف ، ويقبع في اطراف مقاطعة حوران جبل الدروز حيث تعيش هذه القبيلة التي عرفت بالبـأس والشدة والتي يقودها آل الأطرش ، ومنهم المطربة المغفور لها — اسمهان — وفي درعا وقفت عند صورة ضخمة حليّ بها مكتب الجمرك تمثل المسرح الرومـاني الذي نحت من الحجاره وأقيم في مدينة (بصرى الشام) التي تعد من مدن حوران التاريخية ، وقيل أن هذا المسرح يتسع لخمسة عشر ألفاً من الناس . ويتضح اهتمام الرومان لفن التمثيل من هذه المسارح التي تجد آثارها في اكثر المدن الرومانيـة التي بقي شيء من معالمها .

وفي هذه الأرض — أرض حوران — تمثل لي تاريخ حافل احد اطرافـــه مدنية الرومان عندما رسخت اقدامها في هذه الأرض ثم امجاد الغساسنـــة وبطولاتهم وذكرت جبله بن الأيهم اول عهده بالاسلام وقصته المعروفـــة ، ثم مدنية الاسلام عندما اكتسحت الجيوش الاسلامية قوات الروم واجلتهـا عن هذه الديار والبطولات الفذة التي تجلت في ذلك الصراع الخـالد ، فمن حوران حتى نهر اليرموك حتى القدس كان كل شبر من هذه الأرض مسرحاً لذلك الصراع بين جيوش المسلمين وجيوش الروم ، كان ذلك في آخر عهد سيدنا ابي بكر الصديق ثم حمل الراية سيدنا عمر بن الخطاب الذي كان يودع هـــذا الجيش الاسلامي في المدينة بهذه الوصية التي تمثل شريعة الاسلام في الجهاد تلك الشريعة

السامية التي تتقاصر دونها شرائع المدنيات كلها قديمها وحديثها، قال عمر لجيشه المظفر :

« اوصيكم بتقوى الله عز وجل ، ولا تعصوا ولا تغلوا ولا تجنوا ولا تهدموا بيعة ولا تفرقوا نخلاً ولا تحرقوا زرعاً ولا تشجروا بهيمـة ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تقتلوا شيخاً كبيراً ولا صبياً صغيراً ، وستجدون اقوامـاً حبسوا انفسهم للذي حبسوها فذروهم ومـا حبسوا انفسهم له وستجدون اقوامـاً قد اتخذت الشياطين اوساط رؤسهم افحاصاً فاضربوا على اعناقهم — وسترون بلداً يغدو ويروح عليكم فيه الوان الطعام، فلا يأتيكم لون الا ذكرتم اسم الله ولا ترفعوا لوناً الا حمدتم الله عز وجل » .

كان يلقي هذه الوصية على قواد جيشه وهو يسير على قدميه مودعـاً لهم نحو الميلين فقيل له : يا خليفة رسول الله لو انصرفت ؟ فقال : لا .. اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار ..

ان هـذه البقعة من الارض من نهر اليرموك حتى نهر الاردن شهدت تلك المعركة التاريخية بين الحق والباطل ، كان جيش الروم يتكون من نحو المـائتي الف مقاتل ، وجيش المسلمين يتكون من اربعة وعشرين الفاً ، وفي رواية سبعة وعشرين الفـاً ، قيل ان فيهم الف رجل من اصحاب رسول الله (ص) منهم نحو المائة من اهل بدر ، وكان على جيش المسلمين عدد من الامراء ابو عبيـدة عامر بن الجراح وعدد من الامراء ، واشترك في هـذه المعركة عـدد من نساء المسلمين وعلى رأسهن ام حكيم بنت الحارث بن هشام وقـد اشتركن في المعركة بالسيوف وسابقن الرجال فيها وكن اذا رأين احداً من المسلمين منهزماً صحن في وجهه والقين عليه الحجارة حتى يعود للقتال ..

وليس ادل على الشجاعة الخارقـة وروح الفداء الـــتي كانت تتملك اولئك الرجال الافذاذ من هذه القصة التي يروونها عن رجل منهم جاء الى ابي عبيـدة قائد الجيش والمعركة محتدمة ، وقـد قر رأيه ان يخوض بسيفه الى قلب جيوش الروم حتى يستشهد بعد ان يلقي الفزع في قلوبهم ويروي سيفـه من دمائهم .. وقف امام ابي عبيدة ليودعه وهو يقول :

« اني قد اردت ان اقضي شأني ، فهل لك في رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ؟ »

فقال ابو عبيدة : نعم ، « تقرئه مني السلام ، وتخبره انا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .. » ثم تقدم الرجل وشق جحافل الروم يضرب بسيفه حتى استشهد .. فسلام عليه في الخالدين ..

ولا غرو بعد هذا ان انتصر اربعة وعشرون الفاً على اكثر من مائتي الف ، ووضعوا اسس الحضارة الاسلامية الزاهرة الـتي نعيش عليها اليوم وتطالعنا اينما اتجهنا ..

وعدت امعن النظر في صورة المسرح الروماني التي أوحت اليّ بمدى تقديرهم للفنون ، ودنا مني فتى عربي من حوران وقـد استهواه منظري الغريب ، فسلم عليّ وتعرف بي وتشعب الحديث بيننا ، ورآني انظر الحين بعد الحين الى صورة المسرح الروماني ، فأخذ يحدثني عن تاريخ « بصرى الشام » وآثارها ، وشاقني من حديثه هذا ان اعرف ان دير « الراهب بحيرا » الذي التقى بـه سيدنا محمد (ص) وهو في طريقه الى الشام متاجراً بمال السيدة خديجة وتنبأ له بانه رسول الله الموعود ، كما جاء في السيرة النبوية هذا الدير ما زال قائماً في بصرى ، ولـكم تمنيت لو انني استطعت ان ازور بصرى لأرى هذا الدير الاثري الذي مـا زال قائماً في مقره منذ عهد الراهب بحيرا .

وغادرنا عاصمة حوران لندخل في ارض الاردن وتستقبلنا اول مدنها -- الرمثا -- مقر جمارك الدولة حيث اخذت - هوياتنا -- للفحص وحيث تفتش حقائب المسافرين قبل دخولهم بلاد الاردن . واشهد انني ورفيقي السيد ابو سن وجدنا معاملة كريمة هناك اذ اعفيت حقائبنا من التفتيش وكان اسم - السودان - في كل الجمارك العربية التي اجتزناها يقابل في اشخاصنا بترحاب خاص يتمثل في هذه المعاملة الكريمة التي كنا نحظى بها دائماً ..

والطريق الى عمان يسير على جبال عالية ويقل منظر السهول المنبسطة وتبدو القرى صغيرة وعلى مسافات غير قصيرة ولم يسترع انتباهي منها غير قرية لطيفة اسمها -- جرش -- امتازت بشيئين ، اولها آثار مدينة رومانية قديمة ما تزال بعض هياكلها وأعمدتها باقية ، وهي هدف كثير من زوار الاردن من الاجانب الذين تستهويهم مثل هذه الآثار .

وآثار المدينة الرومانية ، تلقاك اينما اتجهت في اكثر هذه البقاع اذ كانت لعهد طويل مهداً لهذه الحضارة حتى جاء الاسلام فأرسى عليها قواعد الحضارة العربية ، وانك لترى الاثرين الروماني والاسلامي يصحبانك غادياً ورائحاً في كل مكان تتجه اليه .

وجرش تعد اكمل مدينة رومانية باقية ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٥٥٠ متراً ، وآثارها تمعن في القدم ، فعلى يميننا تقع هضبة عالية قيل ان علماء الآثار أخذوا منها أدوات من الصوان ترجع الى ستة آلاف سنة قبل المسيح ، ومع جانب الهضبة تقع كهوف عديدة ممعنة في القدم يقول علماء الآثار عنها ان انسان ذلك العهد كان يسكنها .

وكان أزهى عهد حضاري مر بها العهد الروماني ، وانك لترى ذلك ماثلاً في هذه الآثار الرائعة التي تنطق بمدى الرقي الذي حظيت به هذه المدينة التي لم

تعد الآن غير قرية صغيرة لا تعد شيئاً في الارض ، ومن أروع الآثار الرومان
بجرش هذه المدرجات الفخمة التي خصصها الرومان للتمثيل ، وقـد خصص
هذه المدرجات أمكنة لعلية القوم وأخرى لمن دونهم مثلما نشاهد اليوم في مثل
هذه الامكنة .

وقد فتح جرش في العهد الاسلامي القائد شرحبيل بن حسنة عام ٦٣٥ ميلادية
ولقد تراءى لي خلال طرقاتها شبح شاعر العربية ابي الطيب المتنبيء وقد لجأ إل
أميرها علي بن احمد المري عام ٣٧٣ هجرية بعد ان اختلف مع بـــدر بن عما
صاحب طبرية وكان قد مدحه بقصيدة مشهورة .

ومن أطرف ما روى التاريخ عن طراقها لص تذكره كتب الادب العربي ا
كان يقوله من شعر جيد، اشتهر في عهد خلافة عمر بن عبدالعزيز وكان اسمه تلي
الضبي ، ذكر في شعره جرش وفي نفسه معاندة لهؤلاء الذين يطلبون منــه التوب
واشتهاء ليقود عصابة « قليل لرب العالمين سجودها » :

يقولون جاهر يا تليد بتوبة	وفي النفس مني عودة ساعودها
ألا ليت شعري هل اقودن عصبة	قليل لرب العـالمين سجودهـــا
وهل اطردن الدهر ما عشت هجمة	معرضة الافخاذ سجحاً خدودها
قضاعيـــة صم الذرى فتربعت	حمى جرش قد طار عنها لبودها

وجرش تعد مدينة سياحية هامة ومن اروع مناظرها وادي جرش الذي
جعل منها جنة فيحاء ، تحيط بالمدينة الصغيرة تزيد من روعتها وجلالها التاريخي
ومما يضاعف من اثر هذه الجنات في جرش انك تبلغها بعد رحلة تمتد عبر جبال
جرداء وطريق يغلب عليه الجفاف .

واقتربنا من العاصمـة عمان ، وعند اطرافها طالعنــا منظر طريف ، عد

بيوت من الشعر لعدد من البدويين عند حدود العاصمة التي بدت لنا من بعيد في ابهى منظر وكان هـذا المنظر البدوي عند مدخل العاصمـــة يربط بين قديم العرب وحديثهم ولعلي أشرت الى بيوت الشعر هـــذه في أكثر من مكان الا أنني لم أجد منهـــا لصق المدن الا هـذه حول عمان ، وقـد استهواني ورفيقي منظرها . أما أنا فقـــد وجدت فيها مشابة لبادية الكبابيش حيث ذكرياتي الحبيبة في مستهل الشباب . أما رفيقي السيد أبو سن فقـد رأى فيها صورة حية تقوده الى بادية الشكرية وأرض البطانة ، حيث الاهل والاحباب وأمجاد آل أبي سن .

ودخلنا عمان عند المغيب ، وقـــد بدت لنـا قباباً من الانوار ، اذ تقع كل دورها أو أكثرها على تلال أو جبال ، وبعضها عند المنحدرات وقـد زينت كلها بالانوار الكهربائية ، وطريق السيارات خلالهـــا يرتفع بك الى أعلى حينـاً ويهبط منخفضاً حينـاً فترى كثيراً من الاحياء دونك على سهل منخفض ، وترى أمامك ومن حولك في ذلك المرتفع دوراً أخرى قد قامت في أوضاع مختلفة على ذرى الجبال ، والشوارع كلها قد رصفت وعبدت والناس محتشدون في الطرقات كأكثر المـدن الكبرى . ويبدو أن جهوداً ضخمة قـد بذلت لتكون عمان عاصمة جميلة المنظر متحضرة ، وقضينا ليلتنا في فنـــدق (الكونتننتال) وهو يسير على النهج الانجليزي ، وهناك عـــدد من الفنادق الضخمة تسير على هذا النهج ، وأجر الغرفة كاملة لليوم الواحد بما في ذلك وجبة الافطار نحو المائة والخمسين قرشاً .

وعمان على اناقتها أصغر حجماً من دمشق ومن بيروت وقد قضينا ساعات الليل الاولى نسعى بين شوارعها وأسواقها وبعض أحيائها القريبة ، والظاهرة الاولى التي خرجنا بها ان المدينة لا تسهر كغيرها من العواصم الكبرى ، فقـد

كان السوق يكاد يكون مغلقاً منذ الساعة العاشرة ، أو قبل ذلك ، الا بعض الحوانيت القليلة. وغمنا ليلتنا تلك بعد تجوال في عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية لنعد حقائبنا عند الصباح الباكر متجهين صوب أرض الانبياء والرسل والمساجد والمعابد ، نحو بيت المقدس .



إلى القدس والمسجد الأقصى

في الساعة السابعة صباحاً وفي جو رائع غادرنا عمّان نحو القدس وبنا شوق ولهفة لزيارة هذه البقعة التي ضمت آثاراً مقدسة وأجداث أنبياء ورسل بما لم يتهيأ لسواها في كل انحاء العالم . وفي طريق أكثره جبال شامخة عبد بالاسفلت ، انطلقت السيارة بتلك السرعة المخيفة التي ألفناها طوال هذه الرحلة ، وما كدنا نغادر عمان حتى تلقتنا على بعد يسير مباني اذاعتها الانيقة وقد التف حولها عدد من الجنود الحراس ولم أرَ بعدها – الا لماماً – مظاهر لحياة آهلة ، فالطريق كما وصفنا تشق منطقة تكثر فيها الجبال العالية الجرداء . وعند نقطة عسكرية وقف بنا السائق لنجد أنفسنا على نهر الاردن ينساب كجدول رقيق ليصب في البحر الميت الذي كان واضح المرأى لنا من ذلك المكان . وكما أخلف ظني نهر بردى في دمشق ، فقد أخلف ظني أيضاً نهر الاردن وربما كان لنهر النيل أبي الانهار – أثر فيما كان يصيبني من خيبة أمل كلما اجتزت نهراً هناك ، ذلك لأني كنت أحاول أن أقيسه بنهر النيل ولا أجد وجه شبه للقياس .

وذكرت عند نهر الاردن هذه المحاولة الاسرائيلية الدنيئة لاغتصاب مياه هذا النهر ، ولكن نهر الاردن – وان بدا لي صغيراً بالقياس الى النيل – يقوم عليه الآن مشروع حديث للزراعة يسمى (مشروع قناة الغور) ويسقي أرضاً مساحتها ١٢٠ الف دونم أي ما يعادل ثلاثين الف فدان (الفدان يساوي اربعة

دونم) والمشروع يقوم على ثلاث مراحل وقد تمت حتى الآن مرحلته الاولى ، وتوشك المرحلة الثانيــة على الانتهاء .. وحكومة المملكة الاردنية الهاشميـة تعلق آمالاً كباراً على هذا المشروع الحيوي والاول من نوعه في تلك البلاد .

وفي تلك البقعة التي وقفنا عندها قليلاً امتثالاً لاجراءات نقطة البوليس والتي مكنتنا من النظر الى نهر الاردن وتأمل مجراه نحو البحر الميت ، تراءى لنـــا البحر الميت قريباً منا اشبه بالبحيرة الزرقاء الواسعة الامتداد ، عدنا الى سيارتنا لتعدو بنا بتلك السرعة الخيفة لتطالعنا على بعد يسير مدينة اريحا ذات المنظر المونق والارض الخضراء النضرة ، ولقد وددت لو تمكنا من الذهاب اليها ، فقد اغرانا مظهرهــا المونق على جــانب الطريق فهي تعد من مدن الاردن الجميلة ، يقصدها أهل هذه المنطقة والسياح الذين يزورونها للاستمتاع بجمالها اذ يقولون انها اكثر بلاد العالم انخفاضاً عن سطح البحر ولهذا سمى العرب المنطقة التي تقع فيها « الغور » والغور هو المنخفض من الارض .

وفي اريحا قصر تاريخي للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يقال انــه من اروع القصور الاثرية الباقية .

واريحا احدى المدن الثلاث التي يزعمون انها من اقدم المدن التاريخية،دمشق في الشام وصيدا في لبنان – واريحا في الاردن، والجزم بهذا الزعم امر مستحيل ولكن هذه الرواية على اية حال تؤكد قدم هذه المدينة .

وعلى مقربة من اريحا يمتد البحر الميت،فهي على يميننا والبحر عن يسارنا ونحن ننقل اعيننا بينهما لنستمتع بجمال المنظرين الفاتنين .

والبحر الميت كما يعلم اكثرنا شديد الملوحة والكثافة ، ولهــذا فان كل جسم يطفو عليه ولا يغرق ، تستطيع ان تنزل ماءه وانت آمن من الغرق وان كنت لا تحسن السباحــة .. وبسبب هذه الملوحــة التي تبلغ في الليتر الواحد ثمانيـة

أنسمافها في ماء المحيط فان الاسماك وسائر الحيوانات المائية لا تعيش فيه ، فهو خال من كل شيء حي حيواناً كان أم نباتاً ، ومن هنا جاءت تسميته بالبحر الميت ، وهو ينخفض عن سطح البحر بنحو ٣٩٦ متراً — ويبلغ طوله ٧٦ كيلومتراً واقصى عرض له ١٦ كيلومتراً .. وصارت السيارة تبتعد بنا من اريحا والبحر الميت وتعلو قنن جبال شاهقة وتنحدر منها احياناً الى ما يقارب السفوح ثم تأخذ في الارتفاع ممتلية تلك السلاسل المتواصلة من الجبال ، وقد وضح لنا مدى ما انفق وبذل من جهد ومال لكي يشق ويرصف هذا الطريق الممتد بينها ، وهو جهاد وبذل يقدره كل من يقدر له ان يسلك هذا الطريق — ويجدر بي ان اذكر ان هذا الطريق المعبد — الذي لولاه لاستحال السفر على هذه الجبال والتلال إلا بمشقة فائقة — هذا الطريق يبدأ من بيروت على ساحل البحر الابيض المتوسط ويسير حتى دمشق عاصمة سورية ويخترقها الى عمان عاصمة الاردن ويتجه منها حتى يبلغ القدس ، طريق واحد معبد متصل يربط الأقطار الثلاثة في سهولة ويسر .

ونحن نمتلي الجبال . ارتفاعاً وانخفاضاً ، ونشرف احياناً على هوات عميقة بعيدة المدى مخيفة ، اشار السائق الى بناء لطيف يقوم على يسار الطريق — على بعد يسير منه — فقال : انه قبر سيدنا موسى كليم الله .. وتمهل مشكوراً على غير عادته ليتيح لنا مشاهدة المبنى الأثري عن كثب — لم يكن بجانب مبنى القبر أي مظهر للحياة ، فلا قرية ولا سكان ، واكاد اقول ولا حيوان الا هذه السلسلة من الجبال الشاهقة التي تحيط به ، ولست أدري ان كان هناك طريق آخر غير الطريق الذي نسير به يؤدي الى قبر موسى . ليس هناك من يستطيع أن يجزم بأن سيدنا موسى دفن في هذا المكان ، ويبدو أن هذا مزار قديم العهد أقيم باسمه .

لقد تحدثت في هذا الى بعض من لقيت من علماء هذه المنطقة في القدس والشام فوجدتهم يرجحون انه مزار قديم اقيم باسم موسى فهو أشبه بالمقام أو « البيان » كما يسمى عندنا .

قلت ان الجزم بحقيقة هذا القبر أمر مستحيل وهـذا يصدق على كثير من الأضرحة التي لقيتني في هذه الرحلة ، ولكنها أياً كان نصيبها من الصحة - تثير في نفوسنا احساساً روحياً عميقاً ، لأن هذه البقعـة من الأرض شهدت هؤلاء الانبياء والرسل يسيرون عليها يؤدون رسالة السماء ويلقون في سبيل هذه الرسالة من العذاب والتضحيات مـا امتلأت به الكتب السماوية والوضعيـة حتى غدوا منارات هادية للبشر جمعـاء على مر العصور ، فهم خالدون في قلوب الناس ومشاعرهم ولا تحدهم هذه القطع الصغيرة من البناء التي تشير الى نهـايتهم كبشر كانوا يعيشون في هذه الارض .

ولم نسر بعد هذا إلا قليلاً حتى بدت لنا القدس تحيط بها مرتفعـات من الهضاب والجبال ، وتراءت لنا ونحن نقترب منها - المآذن والقباب والمساجد والكنائس حيثما اتجهت أبصارنا نجوس المدينة من انحائها المختلفة ونكاد نلتهمها كلها في نظرة واحدة لو كان ذلك مستطاعاً .

ووقفت بنا السيارة عند مكتب وكالة السياحة لنحط رحالنا أولاً ولنأخذ حظاً يسيراً من الراحة .

واتفقنا مع سيارة خاصة تقلنا الى حيث نرى معالم المدينة وآثارها المقدسة ، وسأتحدث عن كل منها فيما بعد .

كنا كما قلت في يوم جمعة فاتجهنا الى المسجد الاقصى لنؤدي صلاة الجمعـة ، وحثنا من كان معنا لكي نبكر في الذهـاب لكثرة المحتشدين فيه لاداء صلاة الجمعة ، واتجهنا اليه والخشوع يملأ جوانحنا ، كيف لا وهو المسجد الذي جـاء ذكره في القرآن :

(سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) .

وقال رسول الله (صلعم) (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد،مسجدي هذا ، ومسجد مكة ، وبيت المقدس) .

وقد ظل سيدنا محمد (ص) نحو ١٣ سنة يصلي نحو بيت المقدس ، ولكنه كما ذكر – كان يجعل الكعبة بينه وبين المقدس فيصلي لهما جميعاً :

كان بيت المقدس أولى القبلتين حتى هاجر النبي الى المدينة ومكث بها سبعة عشر شهراً حيث نزلت الآية الكريمة (قد نرى تقلب وجهك الى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) واتجه المسلمون بعد هذه الآية صوب المسجد الحرام واتخذوه قبلة .

ودلفنا الى المسجد أول قبلة اتجه اليها المسلمون ، ولم نجد فيه موضعاً للصلاة الا بعد مشقة ، وأخذت اتأمل الجانب الذي اتيح لي أن اؤدي الصلاة فيه . كل ما وقع عليه بصري رائع يأخذ بالألباب ، الاعمدة الرخامية المتقنة الصنع ، والسقف المحلى بزخرفة فنية رائعة ، والسجاد الفاخر الذي فرشت به ارض المسجد كلها .

وصعد الامام المنبر ، لم اره لبعد المسافة وللاعمدة الرخامية العديدة التي حالت بيني وبين رؤيته ، ولكني سمعت صوته واضحاً قوياً . كانت الأردن تستقبل تلك الأيام معركة الانتخابات لمجلس النواب ، وهي معركة تدور على غير اساس حزبي إذ حلت الأحزاب هناك – وجعل الامام من الانتخابات الدائرة مادة لخطبته فأخذ يحذر الناس من اعطاء اصواتهم لغير الرجال الصالحين . وقال محذراً : ان من يعطي صوته لغير الرجل الصالح تحت أي تأثير او اغراء فانما يؤدي شهادة زور في حق أمته ، واسهب عن الحديث عن شهادة الزور متمثلاً بالآيات والأحاديث التي تكشف عن بشاعة هذه الجريمة وما يلقاه مرتكبها من العقاب .. وكان الامام رائعاً في خطابه مؤثراً في اسلوبه ، وحسبت ان كل من سمعه سيخرج من المسجد ولن يمنح صوته لغير الرجل الصالح ولكنها الانتخابات

بخيرها وشرها . لقـد سمعت في اكثر من مكان ومن اناس مختلفين ان اختيار الرجل الصالح اسطورة حلوة الترديد . فما زالت سبل الاغراء هي التي تتحكم في الاختيار ، ولكن ذلك لن يثني الرجال الشرفاء عن الاصرار على دعوتهم .

وانتهت الصلاة وخرجت حشود المصلين الذين كان عددهم يزيـد عن اربعة آلاف اذ ان المسجد يتسع لخمسة آلاف ، وهو يمتلىء في صلاة الجمعة خاصة فـلا يبقى فيه مكان لأحد ، ويفيض المصلون حوله في العراء .

وبقيت حتى خرج اكثر المصلين لأتملى هـــذا الاثر العظيم ، وسرت متمهلا اتأمله ، وروعته تأخذني من كل جانب ، ولفت نظري عدد غير يسير من النساء خرجن من المصلى الخاص بهن داخل المسجد ، وقـد خصص لهن الجانب الغربي منه ، وجلسن في حلقات عديدة حول الاعمدة ، كما تحلق عـدد من الناس حول بعض العلماء يتدارسون، وكان عدد النساء اكبر، وحلقاتهن اوفر عدداً ، ولست ادري أجاء هذا بمحض الصدفة في هذا اليوم أم ذلك امر متصل؟ — تسآلني ماذا يفعل النساء في هذه الحلقات ؟ انهن يتفقهن في شئون دينهن عن طريق شيوخ اجلاء من العلماء يجلسون اليهن عقب كل صلاة . .

ووقفت عند المحراب الدقيق الصنع الرائع الفن وقد مشت عليـــه السنون تغير فيها صنعه وفنه ، واختلف عليه أئمة وأئمة ، ان كل شبر من المسجد وطأته اقدام انبياء ورسل ، وعلماء وقادة ، وخلفـاء وامراء . ان عيني تتلفت هنا وهناك ولكنها تعود لتقف ملياً عند هذا المحراب الرائع الذي يعـــد من اجمل المنابر وأدقها صنعة ، قيل انه جاء به صلاح الدين الايوبي من حلب وقد عهـــد بصنعه الى مهرة الفنانين والصناع ، صنع من خشب ارز لبنان ورصع بالعـــاج والصدف ، وأفرغ فيه صانعوه كل ما لديهم من روعة الفن .. على يمين الخطيب ، نقشت على المنبر هذه الآية : (بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع

عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة) .

وعلى يساره نقشت هذه الآية : (بسم الله الرحمن الرحيم . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

وفي واجهة المنبر كتبت هذه الآيات : (بسم الله الرحمن الرحيم: ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله اذا عاهـــدتم ولا تنقضوا الايمـان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . ان الله يعلم مـــا تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلهـا من بعد قوة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم ان تكون أمة هي أربى من أمة انما ليبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) .

ويروي التاريخ ان هذه البقعة من الأرض التي قام فيها هذا المسجد وقبـــة الصخرة المجاورة كما جاء في تاريخها – في كتاب خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي ، (أن المسجد الأقصى شيد في مكان (تل موريا) وهي منزلة دينية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون والمسلمون ، وقد أمر سيدنا سليمان سنة ١٠١٣ قبل الميلاد ببناء مقر له مكان المسجد الأقصى وهيكل فخم) ..

ويسير التاريخ وئيداً وهو يروي تتابع الأحداث الدينية حول هذه البقعة المقدسة حتى يجيء سيدنا عمر بن الخطاب الى بيت المقدس ليوقع وثيقـة الصلح مع أهلها ، ويدخل الارض المقدسة ويذهب تواً الى مكان الحرم الشريف الذي عبثت به الأقدار فيأخذ في ازالة الاقذار عنه بيديه الكريمتين . ولمـــا أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وحيل بينـــه وبين الحرمين الشريفين لقيام عبدالله بن الزبير خليفة في الحجاز امر بتجديد بناء المسجد الاقصى وقبة الصخرة

في بيت المقدس ، وقيل أنـه فرض ذلك خراج مصر سبع سنوات . وفرغ من ذلك عـام ٧٢ هجرية وكتب اسمه منقوشاً بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي (بنى هذه القبة عبد الملك أمير المؤمنين سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي عنه . آمين) .

واحتل الصليبيون بيت المقدس فحولوا الصخرة الى كنيسة والمسجد الى سكن لملكهم ...

ثم جاء مجدد الاسلام والمسلمين صلاح الدين الأيوبي واستعـاد بيت المقدس ، وأعاد الحرم الى ما كان عليه مسجداً اسلاميـاً ، وأمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وكتب عليه ما نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمـارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبدالله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله اذاعة شكر هذه النعمة واجزال حظه من المغفرة والرحمة) .

لم اشبع من التجوال داخل هـذا المسجد الذي كان أول القبلتين ، والذي تتحدث كل قطعة منه عن تاريخ طويل حـاشد بجلال الذكريات الدينية ، ففي هذه البقعة تعبد وتهجد وثنيون ومسيحيون ومسلمون ومشى انبياء ورسل .

ان الانسان لا يمل من اعادة النظر الى كل قطعة في هذا المسجد العظيم الذي يبلغ طوله ثمانين متراً وعرضه خمسة وخمسين متراً يتخلل ذلك نحو الخمسين عموداً من الرخام الابيض الرائع المظهر ، أما أرضه فقد فرشت كلها بالسجاد العجمي الثمين قيل انه أهدى للمسجد من السلطان التركي عبد الحميد ، وترتفع قبته التي تتوسطه عن سطحه ٢٧ متراً ، واذا ما أمعنت النظر اليها أدهشتك تلك النقوش

والرسوم الرائعة وما تتزين به من الفسيفساء ، أما السقف فقد زخرف بأوراق الذهب .

وبالمسجد ١٣٧ نافذة كلها بالزجاج الملون الجذاب ، وبه سبعة أروقة تتوسط مبنه بجانب الثريات العديدة الفاخرة المدلاة من سقفه تتوسطها ثريا ضخمة ثمينة أهداها أحد سلاطين تركيا ولعله السلطان عبد الحميد وللمسجد احد عشر باباً تضيق بالمصلين وهم يحتشدون داخلين أو خارجين لاداء الصلوات .

ودعاني رفيقي لنخرج الى قبة الصخرة بجانب المسجد الاقصى ولها حديث آخر ، وما كدت أبلغ أحد أبواب المسجد ، حتى سألني الدليل الذي كان يرافقنا أتعرف هذا الباب؟ قلت ومن لي بمعرفته وأنا حديث عهد بهذا المكان ؟. فقال : في هـذا المكان وعقب صلاة الجمعة كيومنا هـــذا – ترصد الشاب الفلسطيني (مصطفى عشو) واغتال الملك عبدالله الهاشمي ملك الاردن . فقلت لمحـدثي : ما لك يا أخي تخرجني من هذه الأجواء الروحية الصافية الى دنيـــا الشرور والآثام ؟؟ ولكني مع هذا وقفت ملياً عند ذلك الباب اتمثل في خاطري الملك عبد الله وقد أدى الصلاة وخرج آمناً ليجد منيته في أقدس مكان ، وتصورت مـدى الاضطراب والهرج الذي حدث في المسجد والمصلون يشهدون مليكهم صريعاً عند الباب ، وتذكرت كيف وقع النبأ عندما تناقلته الانباء في حينه الى كل أنحاء العالم .

ولم نغادر المسجد خطوات حتى أشار دليلنـا الى مبنى مغلق لم نستطع أن نشهد ما بداخله ، وقال : هنـا يرقد الملك الحسين (شريف مكة) ومؤسس الأسرة الهاشمية – ودنوت من الضريح وتلوت الفاتحة ، وتتـالت صور عديدة في ذهني للملك الهاشمي الذي يرقد في غرفة صغيرة مغلقة ... الحسين الذي كان له شأن وأي شأن والذي كان يقود العرب في الحرب الاولى عام ١٩١٤ – ١٩١٩ ضد الأتراك الذين كانوا يسيطرون على البلاد العربية ويحملون علم الخلافة الاسلامية

وكان الانجليز قد منوه بقيام امبراطورية عربية على انقاض العهد التركي متى ما انتصروا في الحرب ... والقصة طويلة يعرفها كل من ألم بتاريخ الحرب الاولى والتاريخ العربي المعاصر ... وتنكر له الانجليز وخلفاؤهم عندما انتصروا وسيق الى المنفى في (قبرص) يتجرع غصص الاسى والغدر حتى حانت منيته وقد أوصى أن يدفن جثمانه في هذا المكان ، في بيت المقدس قرب المسجد الاقصى .. وتحققت للشيخ الراحل آخر أمنية له في الحياة وتوسد ثرى الارض التي أحبها وكانت أعز أمانيه أن ينتظمها عقد واحد باسم الامبراطورية العربية ، وذكرت عند قبره الموصد ، مرثية أمير الشعراء أحمد شوقي عندما نعى الناعون (أبا الملائك هاشم) :

لك في الارض والسماء مآتم ... قام فيها ابو الملائك هاشم
قعد الآل للعزاء وقامت ... باكيات على الحسين القواصم
قبرص كانت الحديد وقد تنزل ... قضبانه الليوث الضراغم
كره الدهر ان يقوم لواء ... تحشد البيد تحته والعمائم

ويتساءل شوقي – وهو الخبير ... عن خداع المستعمرين (الاراقم) ويخاطب الحسين معاتباً ، كيف تغامر في جوار الاراقم ؟ ثم يعود فيعذره عندما يرى المستعمرين في كل البلاد العربية (في ذلك الوقت) جاثمين على صدور اهلها فيقول له : كلنا حمل في وليمة الذئب طاعم :

قم تحدث ابا علي الينا ... كيف غامرت في جوار الاراقم
لم تبال النيوب في الهام خشناً ... فتعلقت بالجواشي النواعم
هات حدث من العوان وصفها ... لا ترع في التراب ، ما انا لائم
كلنا وارد السراب وكل ... حمل في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من المغانم حظاً ... ووردنا الوغى فكنا الغنائم

وفي البيت الاخير تصوير صادق امين ، فقد ورد العرب الوغى مناصرين

انجلترا وحلفاءها آملين حظاً من غنائم الحرب ، ان يستردوا بلادهم العربية ، فكانوا هم انفسهم من غنائم الحرب ، اذ تقسم الحلفاء المستعمرون فيما بينهم البلاد العربية فآل بعضها الى انجلترا وبعضها لفرنسا .. حقاً :

قد رجونا من المغانم حظاً   ووردنا الوغى فكنا الغنائم

ويطوف شوقي مع نعش الحسين في « ربا الفتح » ويقول لحامليه ان قفوا به ساعة في ثرى الاقمار من قومه ، وادفنوه في القدس بين سليمان وداود :

نقلوا النعش ساعة في ربا الفتح   وطوفوا بربه في المعالم
وقفوا به ساعة في ثرى الاقمار   من قومه وترب الغمائم
وادفنوه في القدس بين سليمان   وداود والملوك الاكارم
انما القدس منزل الوحي مغنى   كل حبر من الاوائل عالم
كنفت بالغيوم فالارض اسرار   مدى الدهر والسماء طلاسم
وتحلت من البراق بطفراء   ومن حافر البراق بخاتم

ان هذه المعاني التي جاءت في شعر شوقي لا يحسها القارىء تماماً الا اذا وقف هناك حيث يقوم قبر الملك الهاشمي الحسين يحيط به عن قرب المسجد الاقصى ، قبة الصخرة حيث اسرى بالنبي ، القبة التي « تحلت من البراق بطفراء ومن حافر البراق بخاتم ، وحيث دار سليمان ، وآثار داود ، وحيث القدس كلها تزخر بآثار الرسل والانبياء ، كنفت بالغيوم فالارض اسرار مدى الدهر والسماء طلاسم » .

وتركت قبر الشيخ الجليل ، وفي الموت الراحة الكبرى من كل عناء لنتجه نحو قبة الصخرة ونطوف على آثار الانبياء والرسل في تلك المدينة التي اختارها الله -- لأمر يعرفه -- لتكون مثابة لهذا العدد غير اليسير من الانبياء والرسل ، فهناك قبر سيدنا موسى ، في الخليل ، يريد سيدنا ابراهيم الخليل ، وعلى مقربة

منـه سيدنا يوسف واسحق ويعقوب ، وفي بيت لحم مولد المسيح ، وفي موضع قريب ترقد السيدة مريم العذراء ام المسيح ، وفي قبة الصخرة آثار الاسراء لسيد محمد (ص) وهناك العديد من الحواريين والعلماء الاجلاء .. وحشود من الرجال الذين يزخر بمقابرهم التاريخ ومن لا تزال رسالاتهم تعيش حيـة في مشاعر الناس وقلوبهم وعقولهم، ومن لي بان اتحدث عن كل هؤلاء وأقف عند مراقدهم مسترشداً مستهدياً ، وان اصور في دقة جانباً من هذه الاجواء الروحية الخالصة التي عشنا فيها في بيت المقدس ..



الصّخرة المقدّسة

قالوا لنا ونحن نتجه الى القدس: لا تنسوا قبة الصخرة لتكن أول ما تغشون بعد المسجد الأقصى ، وكنت أحسبهم يغالون في هـذا التوجيـه ، ففي القدس قبور انبياء ورسل وعلماء اجلاء ، فلم إيثار حجر جلمود والاسراع اليه قبل أن نقف عند تلك الاحداث الظاهرة مستوحين جلالها وقدسيتها ؟ ولكننا ما كدنا نؤدي صلاة الجمعة في المسجد الاقصى حتى اتجهنا الى قبة الصخرة اذ كان مرافقونا من أهل القدس يلحون علينا أيضاً أن نراها وأن نقف عندها مليا .

وسرنا اليها ، ولم تكن بعيدة عن المسجد الاقصى بل هي على بعد يسير منه وكانت القبة تتراءى لنا من كل مكان اتجهنا اليه عالية سامقة تتوهج في مثل لون الذهب .

ووقف بنا الدليل عند الباب الخارجي للسور وكان مغلقاً ، وعرفنا ان القبة التي تضم الصخرة المقدسة تواجه عملية اصلاح ضخمة يشرف عليها بعض جهابذة المهندسين والفنيين من الجمهورية العربية ، ولهذا لا سبيل الى الدخول اليهـا — ولكننا نرفض هـــذا ونذهب الى كبير المهندسين الذي كان يشرف على عملية الترميم في مكاتبه ، فيتلقانا لقاء كريماً ويأمر بفتح القبة لنا. ونعرف بعد حديث شائق معه ، انه كان يعمل لفترة مهندساً في جبل أوليا بالسودان .

ويفتح الحارس لنا الأبواب ، ويطالعنا أولاً فناء واسع يتسع للالوف من الناس ثم نخطو وبنا شوق ملح نحو القبة ونلجها من الداخل ونرفع أبصارنا في دهشة بالغة نتأمل هذا الفن الرفيع الذي تجلى في كل شيء فيها . .

أعمدة القبة التي ترتكز عليها كلها من الرخام والفسيفساء النادرة ، انها آية في روعة الفن ، وتطلعنا الى سقف القبة من الداخل ، ويبهرنا هذا الذهب الخالص الذي رصعت به في ترف بالغ وفي زخرفة فنية رفيعة المستوى ، هذا بجانب ما بذل في تجميلها بمختلف النقوش والزخارف التي تشهد بأسمى ما بلغه فن الزخرفة والتجميل — ان القبة ترتفع عن قاعدة البناء سبعة وعشرين متراً لقد صدق أولئك الذين قالوا لنا عليكم ان تبادروا بزيارة قبة الصخرة .

منظر الصخرة :

أما الصخرة نفسها موضع هذه القداسة ، فقد توسطت القبة ، يحيط بها درابزين — من خشب منقوش جميل المنظر مدهون بأصباغ ذات لون لطيف جداً — وقد جثمت وسط هذا الدرابزين الدقيق الصنع الجميل النقوش ، بيضاء ضخمة ذات تضاريس يقدر طولها بنحو ١٧ متراً وعرضها بنحو ١٣ متراً وارتفاعها عن الارض بنحو المتر والربع .

وقفت اتأمل هذه الصخرة المحفوظة ، والحظ السعيد يغشى الجماد كما يغشى الناس فيكسبه من الهيبة والقدر ما يرتفع به فوق سائر الجماد ، وسألت نفسي من أين اكتسبت هذه الصخرة هذه القداسة التي جعلتها ترقد تحت قبة مطعمة بمقادير ضخمة من الذهب الخالص ، وتبنى أعمدها بالرخام الغالي والفسيفساء النادرة ؟ لِمَ نالت هذا القدر العظيم من التقديس والتبجيل ، وحولها ملايين الصخور تغدو عليها السافيات وتروح متربة مغبرة ينظر اليها الناس شذراً اذ لا نفع فيها ولا غناء بل هي مصدر كثير من متاعبهم في الحياة ؟!

قداسة عريقة :

قالت كتب التاريخ عنها الكثير فقد شيدت هي والمعبد الذي قـام في محلة المسجد الاقصى على (تل موريا) الذي قيل أنه منزلة سامية قدسهـا الوثنيون واليهود والمسلمون ، وينسبون الى سيدنا سليمان بناء هيكل ضخم حولهـا دمره الكلدانيون عام ٥٥٨ قبل الميلاد،وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودوس الكبير في اقامة هيكل وبرج عال في المكان نفسه ولم يتمه ودمره جنود الرومان سنة ٧٠ ميلادية عندما استولوا على بيت المقدس .

ولنطو التاريخ طيـاً حتى نبلغ العهد الاسلامي ، ولكن قبل هذا لا بد من وقفة لتحديد صلة اليهود الدينية بهذه الصخرة فقد عرف انها كانت مقدسة لديهم ثم لدى المسلمين من بعدهم ، أما اليهود فقد كانوا يقدسونها ويسمونهـــا - بئر الأرواح - ولعل مبعث هذه التسمية قد استوحي من وضع الصخرة نفسهـا - وبعض الناس كان يظن انها معلقة في الفضـاء لا ترتكز على شيء ! ان الصخرة تقوم فعلا على مغارة كبيرة وترتكز على جوانبها وما تزال حتى الآن المغارة باقية تحتها والنزول اليها سهل بمدرجات تقودك الى أعماقهـا تحت الصخرة - وتحت هذه فجوة صغيرة وكان اليهود يقومون بذبح قرابينهم فوق الصخرة ليسيل الدم منها الى المغارة ثم الى الفجوة التي تحتها وبهـــذا تكتمل طقوسهم . وقد أغلق المسلمون أخيراً هذه الفجوة عندمـا اندلعت نار الحرب بينهم واليهود من اداء طقوسهم الدينية عند هذه الصخرة المقدسة .

لقد كانت الصخرة مقدسة اذن عند اليهود ويسمون المغارة التي تقع فوقهـا (بئر الارواح).

ان هذه المغارة التي تقبع تحت الصخرة والتي يمكن النزول اليهـا بسلم ذي أحدى عشرة درجة ليدخل اليها الزائر من باب جميل صنع من الرخام ، هذه

المغارة تحيط بها معتقدات وأساطير شتى ، من ذلك قولهم بأن الله سيجمع فيها أرواح المؤمنين يوم القيامة ، ومن هنا أطلق عليها بئر الارواح، وما زلت أذكر وأنا صغير حديث أهلي عن أرواح الموتى وكيف تذهب الارواح المؤمنة الى بئر في بيت المقدس .

ويقولون ايضاً ان عدداً من الانبياء قد صلى عندها وتعبد فيها ، ويذكرون منهم موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم .

والمغارة مربعة الشكل ارتفاع سقفها ثلاثة امتار .. اما الصخرة التي تعلوها والتي وقفنا عندها ننظر اليها والى هـذه القبة الموشاة بالذهب الخالص المقامة عليها ، فقد قيل انها الصخرة التي قاد سيدنا ابراهيم اليها ولده اسماعيل وتله للجبين ليذبحه قرباناً لربه ، وان سيدنا يعقوب كان يناجي ربه من فوقها .

الصخرة والمسلمون :

استمدت الصخرة قداستها بالنسبة للمسلمين من قصة الاسراء ، ففي كثير من الاقوال ، ان النبي صلى الله عليه وسلم صعد منها الى السماء .. وهناك من يروون احاديث ، لم ترق الى مستوى اليقين ، تقول ان الصلاة عندها لها فضل خاص . ومهما يكن فالثابت ان قداستها عند المسلمين تتصل اتصالاً وثيقاً بقصة صعود النبي الى السماء وانها كانت موضع الصعود .

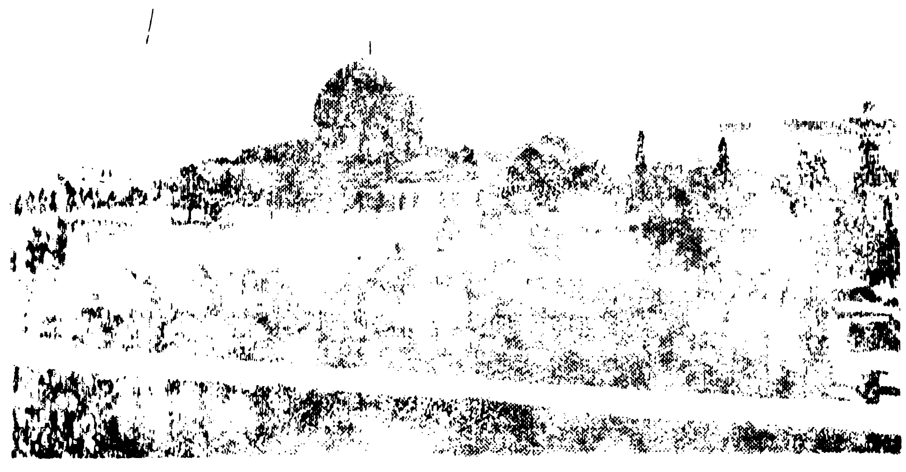
ومن طريف ما اذكر ان الدليل الذي كان يرافقنا وقف بنا عند فجوة صغيرة في الصخرة نفسها ، احيطت بسياج صغير لطيف من الخشب المزخرف، وطلب الينا أن نمد أيدينا الى الفجوة لنتحسسها ومددت يدي أفعل ذلك ،واذا بي أجد منخفضاً صغيراً في الصخرة ، فقال الدليل مزهواً : هـذه هوة أثر قدم النبي وهو يهم بركوب البراق ليصعد للسماء !.. ثم طلب اليّ أن أشم يدي التي

أدخلتها في الفجوة ، وفعلت فاذا بعطر يعبق منها !.. وقال الدليل : ان الطيب ما زال يعبق منها منذ ذلك العهد .. وضحكت سراً ، فلم أرد أن أفجع الدليل في قصته وهو متحمس لروايتها ، فما كان سيدنا محمد — صلعم — بحاجة لاثبات صدق رسالته الى مثل هذه الخرافات لتلصق به ، وأي عطر هذا الذي يبقى اكثر من الف وثلاثمئة عام ؟! ان عطر الرسالة المحمدية أبقى على الدهر من هذا العطر المزعوم ، وما خالجني الشك في أن هذا العطر حديث العهد وانه يوضع في هذه الفجوة من الصخرة ليبعث النشوة الروحية عند العامة الذين تهتز مشاعرهم لهذه الاساطير الدينية .

عود للتاريخ والقداسة :

ومرة اخرى اعود الى التاريخ بعد ان صارت الصخرة اثراً اسلامياً عزيزاً لدى المسلمين اذ اقترنت بالاسراء . فقد قيل ان اول من بناها بناء شامخاً عظيماً الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان وهو ايضاً الذي عمر المسجد الاقصى وبناه بنياناً فخماً يليق بفخامة هذا الاثر التاريخي الديني ، وذلك في سنة ٦٥ هجرية وقال بعض المؤرخين انه بنى قبة الصخرة واستعار رسمها من الهندسة البيزنطية ممزوجة بالفن الاسلامي على اسلوب جميل لم يسبق اليه ، وأكمل البناء سنة ٧٢ ه بعد عمل دام ست سنوات وجاء الصليبيون فاستولوا على قبة الصخرة كما استولوا على المسجد الاقصى فحولوا قبة الصخرة الى كنيسة والمسجد الاقصى الى سكن حتى جاء مجدد الاسلام صلاح الدين الايوبي فأجلى الصليبيين عن القدس ، فأعادهما الى ما كانا عليه .

وطاف بنا دليلنا على ارجاء القبة ونحن نشهد في كل جانب عجباً من الفن الرائع ، ووقف بنا عند مدخل المغارة التي تجثم فوقها الصخرة ليقول لنا : ان النبي صلعم قد صلى بالانبياء في هذه المغارة قبل ان يصعد الى السماء كل هذا ليزداد



قبة الصخرة المقدسة في القدس

ما يضفي على هذه الصخرة المحظوظة من القداسة ، ولا أعرف لهذا القول صحة يوثق بها ، ولعل حديثه عن هذه الصلاة كحديثه عن اثر قدم النبي على الصخرة والعطر الذي يضوع من ذلك الاثر حتى اليوم — وكم ارجو من احد علمائنـــا الاجلاء ان يبين لنا ان كان قد ورد في قصة الاسراء ما يؤكد حقيقة هذه الصلاة .

لماذا جدد البناء الآن ؟

وخرجت من القبة لأجلس الى كبير المهندسين الذي يشرف على اصلاحها وهو كما قلت من الجمهورية العربية يعاونه نخبة من زملائه ، وسألته عن قصة هذه الاصلاحات التي يبدو انها عملية ضخمة ودقيقة من الناحية الفنية فقال :



المغارة التي تقع تحت الصخرة

في الحرب الأخيرة التي استمرت بين العرب واليهود عام ١٩٤٨ كان اليهود يرمون القدس القديمة بالقنابل فأصاب بعضها هذا الأثر التاريخي فتصدع، وعندما هدأت سورة الحرب باعلان الهدنة بينهما . التفت الشيخ الجليل محمد الأمين الشنقيطي قاضي قضاة الاردن وقد تولى أيضاً منصب وزير التربية والتعليم ، وهو الآن سفير المملكة الهاشمية في السودان — التفت الى هذا الاثر التاريخي ودعا الى فحصه وتجديد ما أصابه من التلف — وكشف الفحص الفني عن تصدع خطير ليس بسبب قنابل اليهود وحدها وانما بفعل تقادم العهد ايضاً فقد اوشكت بعض أخشاب القبة على السقوط وارسل هذا الشيخ نداء اسلامياً حاراً وبذل جهداً ضخماً ليجمع المال لاعادة بناء الصخرة .

واهتمت حكومة الاردن بالامر ، وقامت باتصالات مع الدول العربية واوفدت الجمهورية العربية خبراء من أقدر مهندسيها بناء على رغبة حكومة الاردن لدراسة القبة ، فقرروا بعد الفحص والدراسة الشروع في الترميم وتكون وفد اردني للطواف بالبلاد العربية لجمع التبرعات ، واستجاب للنداء بعض الدول والشخصيات الاسلامية ، وكان في المقدمة الملك سعود ، أما الجمهورية العربية فقد قدمت المهندسين والفنيين الذين يقومون الآن بتنفيذ الاصلاحات المقدرة ، والتي قدرت تكاليفها بمليون جنيه استرليني ! وتحت هذا المليون ترقد صخرة بيضاء ذات تضاريس ترتفع وتنخفض لا تحس بما حولها ولا تدرك ان كانت ترقد في العراء أم تتوسد وتتغطى بالذهب والرخام والفسيفساء! ألم أقل أن الحظ كما يمس بعض الناس فيرتفع بهم الى أعلى الآفاق ، يمس أيضاً الجماد فيرتفع به — مادياً — الى ما فوق مرتبة الانسان ؟. والا فقل لي كم من الناس من هم في حاجة ماسة الى قطعة صغيرة من هذا الذهب أو الرخام أو الفسيفساء التي تغطي وتزين هذه الصخرة لرد مسغبة أو دفع مرض عضال !..
ومهما يكن فللصخرة هذه روعة التاريخ وكم من أثر ضئيل من حجر أو عظم أو حديد ، لا يساوي شيئاً في ذاته ولكنه لا يقدر بثمن من حيث القيمة التاريخية .

قال لي المهندس الذي أشرف على اعداد الاضاءة في القبة من الداخل والخارج وهو من القلة النادرة الخبيرة بهذا الفن – انه اعد الاضاءة اعداداً فنياً نادراً ، وكان اعجب ما حدثني به انه من بين اسلاك الاضاءة ما يربط بينها وبين مركز الشرطة ومركز المطافىء في مدينــة القدس بحيث لو اتقدت شرارة صغيرة في القبة دق الجرس في نفس اللحظــة في المكانين – الشرطة والمطافىء – لتخف قواتها حالاً للقبة ، فاذا ما بلغوها حددت لهم الاضاءة بطريقــة واضحة مكان الشرارة المتقدة حتى لا يضيع الوقت في البحث والتقصي مما يؤدي الى كارثة .

وودعت اولئك الرجال الذين لقيتهم يعملون في صبر مستغلين كل خبراتهم العلمية والفنية ليقدموا أروع فنونهم ليضيفوا الى هــذا التراث ، الذي قيل ان عبد الملك بن مروان كلفــه خراج مصر ست سنوات ، شيئاً جديداً من تراث العهد الحديث ينفق فيه مليون من الجنيهات تجثم تحتها الصخرة المقدسة !



في بيت لحم حيث ولد المسيح

قال مرافقي: هيا الى أقدم احياء القدس، الى بيت لحم حيث ولدت المعجزة.. وركبنا السيارة لتشق بنا المدينة الاثرية التي تطل من كل حي منها مآذن المساجد وقباب الكنائس .

وتركنا مدينة القدس خلفنا فان بيت لحم حي منفصل يبعد بضعة كيلومترات من المدينة ، والطريق اليه يعلو آكاما وجبالا الا انها معبدة بالاسفلت .. وقال رائدنا : الا اسير بكم عن طريق جبل المكبر ؟.. قلت حبذا ، بل قف بنا لديه لنستشعر جلال التاريخ بين احجاره الصم.. وبلغنا جبل المكبر واعتلته السيارة دون جهد ثم وقفت بنا ، ونزلنا لنقف حيث وقف ابطال طواهم الدهر وما تزال ذكراهم حية حلوة الأريج ، فهنا وقف عمر بن الخطاب يحف به كبار الصحابة من قواد جيشه المظفر الذي جاء لفتح القدس واعلاء كلمة الله فيها .. ابو عبيدة عامر بن الجراح ، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان وعبد الرحمن بن عوف ، يحف بهم جيش المسلمين متأهباً لدخول القدس بعد ان سلم اهلها طواعية على أن يكتب الخليفة بن الخطاب لهم عهداً يوقعه بنفسه ، ولهذا قدم عمر من المدينة الى هذا المكان ، ووقف على هذا الجبل حيث نقف يطل منه على مدينة القدس ، وما كان يفعل هذا ويتجه ببصره الى المدينة حتى ارتفع صوته القوي يهدر بالتكبير .. الله اكبر ، وكبر اصحابه ورجال

الجيش من خلفه ، وردد الجبال اصداء هدير التكبير .. ومنذ ذلك العهد سمي هذا الجبل بجبل المكبر .

ومضت قرون وقرون وضعف شأن المسلمين ، وأعلن البابا في روما الحرب الصليبية ، وشنها على المسلمين . ودعا اليها جموع المسيحيين على انها مشيئة الله .. وبعد حروب قاسية ، نجحت الحملة الصليبية الاولى واستولت على القدس في يوم الجمعة ١٥ يونيو ١٠٩٩ م .

وانهض الله للاسلام من يعلي شأنه ، صلاح الدين الايوبي ، ومن هذا المكان جبل المكبر — يدخل القدس فاتحاً كما دخلها قبل عمر بن الخطاب . وذلك عام ١١٨٧ ، فيعيد للاسلام امجاده بين ربوعها ، ويرد للمسجد الاقصى مكانته بعد ان اتخذ داراً ، ويرتفع الاذان من فوق منبره ، بعد ان عني بتجديده ، وكذلك يفعل بقبة الصخرة ، ثم يواصل جهاده المظفر حتى لا يبقى للصليبيين أثر في كل بلاد الشام (سوريا ولبنان والاردن) ولا يغمد سلاحه الا عام ١١٩٢ قبيل وفاته بعام واحد .

وقفنا على جبل المكبر نستجلي هذا التاريخ وتحتشد أمامنا مشاهده، وتكاد الجبال من حولنا تردد على مسامعنا اصداء هدير التكبير لعمر وصحابه وجيشه ولصلاح الدين ورفاقه البواسل وقد تجلت القدس تحتنا في اروع مظهر .. فهناك من بعيد قبة الصخرة تتلألأ في وهج الشمس في مثل لون الذهب وقد اشرقت بجانبها شامخة مأذنة المسجد الاقصى .. ومن هناك ترتفع كنيسة الجثمانية رائعة المنظر حيث كان المسيح يجتمع بحوارييه .. ومن بعيد يطل من الافق جبل الزيتون أو جبل الطور الذي يقول المسيحيون ان سيدنا عيسى صعد منه الى السماء ، مثلما يعتقد بعض المسلمين ان سيدنا محمداً صعد الى السماء من الصخرة التي بنيت عليها هذه القبة العالية التي تجابه من بعيد جبل الطور .. يا لروعة التاريخ الماثل أمامنا ! .

وهناك .. وواحزناه !.. وليت رفاقي لم يرني هـذا المنظر — هناك بيوت صغيرة متناثرة على سفوح الجبال .. انها بيوت العرب اللاجئين الذين شردوا من ديارهم وهي مرمى البصر منهم .. بل قل بيوت المعذبين في الارض !.. ويشير صاحبي الى الغرب لارى الحدائق والمزارع والدور الجميلة المظهر، فاعرف والحزن يعتصر قلبي انها أرض ودور هؤلاء المشردين اغتصبها اليهود واحتلوهـا عنوة واقتداراً .. وانقل بصري بين المشهدين لارى اصحاب الارض والزرع والدور صاروا مستضعفين في دور حقيرة على سفوح جبال جرداء !..

وما اقسى أن يرى الانسان داره التي بناها بكده ، وارضه التي فلحها بجده ورواها بعرقه وقد اينعت واثمرت يحتلهـا مغتصب آثم ، لينتبذ مكاناً حقيراً بالقرب منهـا .. ان العرب الذين ذهبوا بعيداً احسبهم أحسن حظاً من هؤلاء الذين يرون كل يوم دورهم وارضهم قيد اذرع منهم في ايدي اليهود ! .

وبين المنطقتين المتلاصقتين — العربية واليهودية — يقف تأكيداً لهذه المأساة الفريدة في التاريخ بناء شامخ من عدة طوابق تقيم فيه الهيئة الدولية — هيئـة مراقبة الهدنة — ويقف هذا البناء الشامخ ساخراً من هذه القسمة الضيزى !

ويأبى الطرف أن يرتد عن تتبع مواطن المـأساة فانظر تارة الى اليهود في حدائق العرب المشردين فيدور قميئة على سفوح الجبال . واسائل نفسي حائراً ، أهؤلاء الذين يعيشون في بيوت كأوجار الثعالب هم أحفـاد الذين حملوا رسالة الاسلام الى الخـافقين ولم تقف أمامهم قوة في الارض ؟!.. أيمتون حقاً بصلة الروح والدم الى الذين وقفوا هنـا خلف عمر وصلاح الدين ؟!.. وظللت فترة واجماً حتى نبهني لنواصل رحلتنا الى بيت لحم .

الى بيت لحم :

وبلغنا بيت لحم ، ولعله من أقدم احياء القدس ، ومنظر الحي جميل ترتاح له



بيت لحم بالقدس

النفس ، تقوم فيه دور عالية نظيفة ، وان كان اكثرهـــا على الطراز العتيق ، وكنا نظن أن بيت لحم حي مسيحي خالص ولكننــا وجدنا مآذن المساجد ترتفع جنباً الى جنب مع قباب الكنائس في كل أنحـاء الحي .. وتتوسط الحي سوق لا بأس بها .. واتجهنا تواً الى كنيسة المهد حيث ولد المسيح عيسى بن مريم فطالعتنا الكنيسة التاريخية في روعة ومهابة ، ففي أعلى باب المدخل بناء لطيف تتوسطه أربعة أجراس كبيرة ، والمدخل للكنيسة قبو أثري عتيق ، وما كدنا نجتازه حتى وجدنا أمامنـــا بهواً واسعاً ينتهي عند معبد فخم هو بداية حجراء الكنيسة التي يبلغ طولها ٥٤ متراً وعرضهـا نحو الـ ٢٦ متراً ، تقوم على ثلاث طوابق .

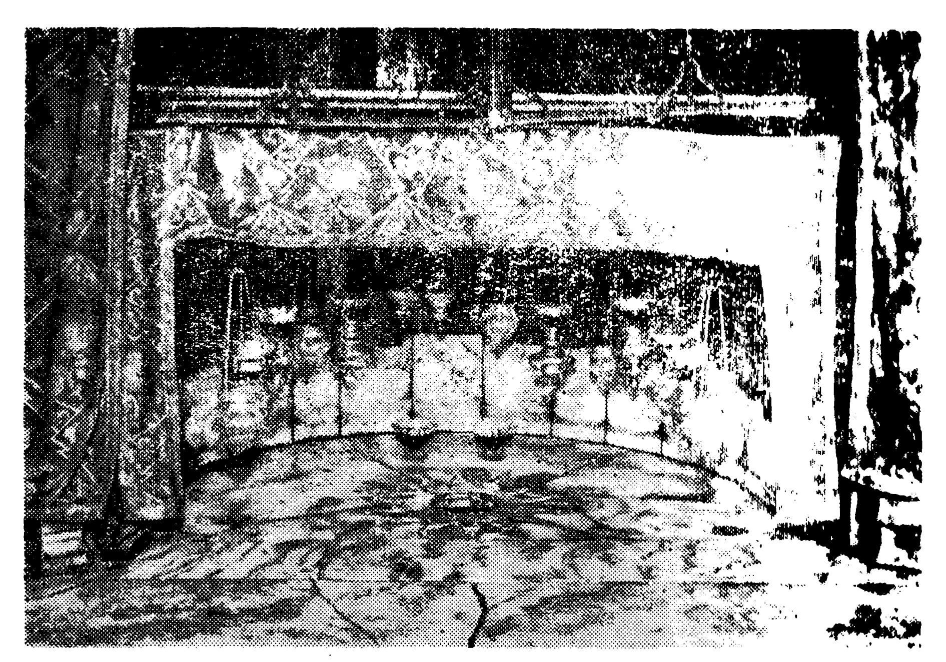
ان القلم ليعجز عن نقل صورة أمينة لكل ما شهدناه من روائع الفنون التي أريد بها تخليد المعجزة — مولد عيسى — فقد جاء الفنانون بأرقى ما بلغوه في فنونهم وزينوا به كل جوانب الكنيسة ، وتبدهك هذه الروائع من عند أعمدة المدخل التي حفلت بنحو ثلاثين رسماً لكبار القديسين وقيل أن هذه الرسوم قد تمت في عهد الصليبيين .

كان أول ما قادنا اليه الدليل الموضع الذي ولدت فيه مريم سيدنا عيسى حيث كانت تقوم النخلة التي ذكرها القرآن « وهزي اليك بجذع النخلة يساقط عليك رطباً جنيا » ووقفنا حيث ولد المسيح نتأمل هذه البقعة الصغيرة من الارض التي تلقت الطفل الذي بهر العالم برسالته ، وقد خطط في الموضع رسم بألوان مختلفة تتوسطه نجمة كتب عليها باللغة اللاتينية : « هنـــا ولد يسوع المسيح من العذراء مريم .

وسرنا خطوات يسيرة — لنتجه الى المذود — حيث حملت مريم وليدها لتضعه في المذود — مربط للحيوانات — التماساً للدفء — كل هذا داخل الكنيسة ، وكاد الخيال يجسد لنا العذراء وهي تحمل وليدها من تحت النخلة لتتجه به نحو المذود وقد انتبذت به مكاناً قصياً والجزع يستبد بها وهي حائرة لا تدري ماذا تفعل !.. « يا اخت هرون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا » .

ما أروع أن نقف حيث ولد الطفل الذي حمل للعالم رسالة السلام والمحبـة والمسرة .. (المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة) .. هنـا وقفت مريم بجانب وليدها مضطربة قلقة لولا أن نزلت عليها سكينة السماء فنطق الوليد : — « قال اني عبدالله أتاني الكتاب وجعلني نبيـــا وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً فسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

في هذا المكان الذي ولد فيه عيسى بنت الامبراطورة الرومانيـة هيلانة ،



في بيت لحم حيث ولد المسيح

ابنة الامبراطور قسطنطين هذه الكنيسة الضخمة التي سميت بكنيسة المهد لانها قامت على موضع مولد المسيح ، وصعدنا الى الدور الثاني لنطوف على جوانب الكنيسة المختلفة وعلى كل الجدران والمحاريب تجلت روعة الفن في هذه الصور المختلفة الاحجام والالوان للعذراء والمسيح في مختلف الاوضاع .

شد ما راعني صورة ضخمة للعذراء وهي تضم وليدها الى صدرها في حنان غامر تفصح عنه كل قطعة من وجهها ، وقيل انها مهداة من مسيحي تركيا ، ويبدو أنها صورة أثرية عزيزة القيمة الفنية والمادية .. ولا بد من وقفة هنا لاشير الى ما شهدته في كل الاماكن الدينية واعتقد ان وضعهم — كخلفاء للاسلام — كان له أثر واضح في هذا البذل السخي للآثار الدينية الاسلامية ، ومثل هذا

عند الاتراك المسيحيين الذين تنضح منهم الروح الدينية العميقة .

والصورة هذه التي راعني حسنها وضع في أعلاها تاج من الذهب الخالص، كما طعمت من كل جوانبها الاربعة بالذهب أيضاً وهي كما قلت آية فنية يستحيل عليك أن تصرف النظر عنها الا بمشقة .

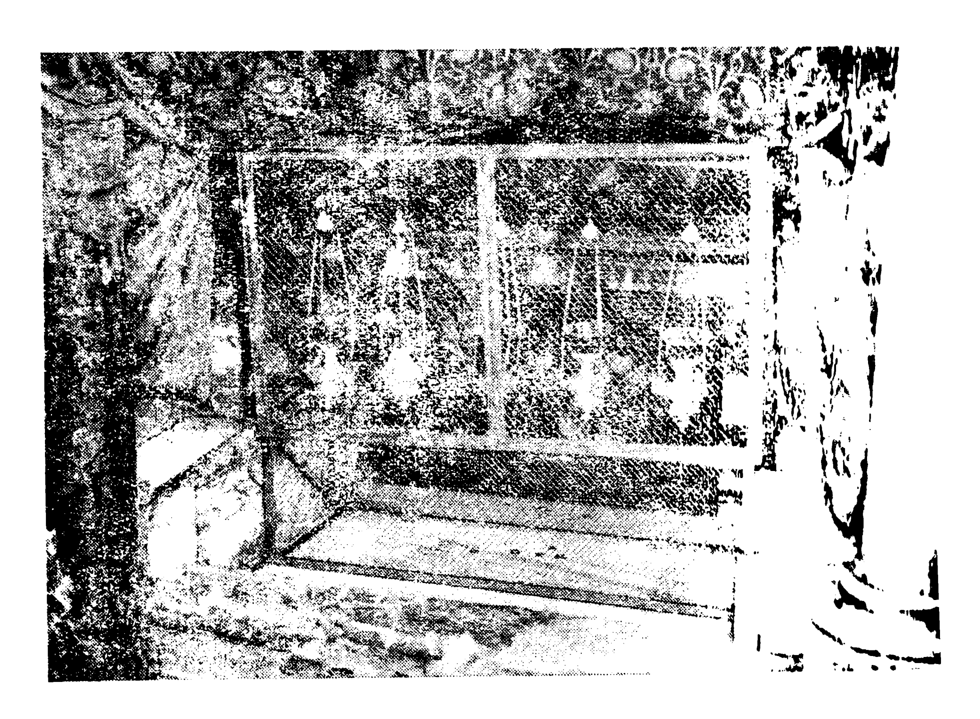
سقوف حجرات الكنيسة زخرفت زخرفة رائعة تدهش كل من يتأملها ، تتدلى منها قناديل مختلفة الاحجام ، بعضها قديم العهد ولكنه لطيف النقش وبصورة غير مألوفة لدينا .

محاريب الكنيسة تنقسم الى أربعة ، وهي بعدد الطوائف المسيحية وليس لطائفة أن تصلي في محراب الاخرى ، ولكل محراب قساوسة من أبناء طائفته وقد ذكرت بها المحاريب الاربعة في المسجد الاموي بدمشق، بعدد من المذاهب ولكن المسلمين في هذا المسجد يصلون دون تفرقة .

وبعد طواف على جوانب وغرف الكنيسة التاريخية وبعد ان امتلأت مشاعرنا بروعة الفن الذي كانت تزخر به المحاريب والسقف والجدران ، عدنا ادراجنا لنقف مرة اخرى عند النخلة حيث ولد المسيح وحيث حملته امه بضع خطوات لتضعه في المذود — تلتمس له الدفء .. هذه البقعة الصغيرة من الارض التي شهدت مولد المعجزة الالهية ووجدتني منساقاً مع خواطري تركض مع تاريخ المسيحية عبر القرون ، منذ ان استهل المسيح رسالته السماوية ووقف لأول مرة في مكان عال في هذه القرية الصغيرة التي كانت آنذاك تتبع ولاية رومانية ، وقد حف حوله بعض الناس وهو ينادي فيهم :

« قد كمل الزمان .. واقترب ملكوت الله .. فتوبوا .. وآمنوا بالبشرى »

ومنذ ان صاح في اليهود ، وقد كانوا يقولون انهم ابناء ابراهيم وقد خصهم



المذود حيث وضع المسيح للدفء

بوعد فسروه بما يشبع غرورهم .. صاح فيهم المسيح :

« يا اولاد الافاعي لا تقولوا لنا ابراهيم ابا .. لأني اقول لكم : ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولاداً لابراهيم .. والآن قد وضعت الفأس على اصل الشجرة .. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تقطع وتلقى في النار »

اليهود .. اولاد الافاعي !.. ما اصدق ما نطقت به يا يسوع .

وودعنا مهد المسيح ، والقينا عليه النظرة الاخيرة وعلى الكنيسة التاريخية

الرائعة . وقادنا دليلنا الى حانوت صغير قرب الكنيسة حيث تباع بعض التحف للزوار، لفت نظري من بينها مصاحف وضعت في اغلفة لطيفة مطعمة بالصدف الجميل ، كما كانت هناك صلبان من مواد وأحجام مختلفة ، ان جيرة المسيح يتوسلون به ليرتزقوا من زواره مسيحيين كانوا ام مسلمين فقد اعدوا لكليهما ما يجذبه للشراء مصحفاً كان ام صليباً .

ولكن الذي اذهلني ان اجد لصق هذه الحانوت ، وقيد اذرع من الكنيسة حانوتاً آخر احتشدت فيه قناني الخمر ، ولعله لا شيء سواها يباع فيه . أترى صاحبه اقامه في هذا المكان تأثراً بما ينسب للمسيحيين .. قليل من الخمر يصلح المعدة !.. وهل للذين امتلأت قلوبهم بالنشوة الروحية وهم يقفون حيث ولد المسيح ان يلتمسوا نشوة اخرى عند هذا « البار » !.

وانطلقت بنا السيارة في نفس الطريق لنجد انفسنا مرة اخرى على جبل المكبر ليتجدد الاسى في نفسي ويزداد تعمقاً ، ونظرت خلفي الى كنيسة المهد ، والى اكواخ العرب المشردين على سفوح الجبال ، والى دورهم وضياعهم يتمتع بها اليهود ، والى البناء ذي الطوابق العديدة حيث يجلس بضعة رجال باسم هيئة الامم المتحدة ليقروا السلام — كما يزعمون — بعد ان نهب السارقون ما ارادوا وتركوا المنهوبين في العراء .. وجرت على لساني ابيات من قصيدة لشوقي :

ومهاجرين تنكرت اوطانهم	ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
يتلفتون مودعين ديارهم	واللحظ ماء ، والديار ضرام

وظن سائق السيارة ان هذه الوقفة الاخيرة على جبل المكبر تسعدني ، وكان حرياً بها حقاً ان تسعدني فهي تمكنني من امعان النظر في مدينة القدس من هذا العلو ، رائعة فاتنة .. وهي تعيد الى ذهني ذكريات حبيبة وتمنحني نشوة روحية سامية اذ اشعر باني اقف حيث وقف عمر بن الخطاب وجل اصحابه متجهين بابصارهم الى القدس وهم يكبرون ويحمدون الله على ما افاء

عليهم من النصر لاعلاء كلمته .. وحيث مر من قبل من هذه الشعاب عيسى بن مريم ، وهو يصيح في اليهود .. يا اولاد الافاعي !.

ولكن منظر العرب المشردين من ديارهم القريبة واليهود ينعمون بكل خيراتها اذهب مني كل نشوة وقلت للسائق : هيا انطلق بنا الى ام المسيح مريم العذراء لعلنا نجد في رحابها ما يخفف عنا هذا الاحساس بالانقباض .

وتحركت السيارة تبتعد بنا عن جبل المكبر وعن ديار العرب التي يحتلها اليهود ووجدتني اتجه الى حيث يقيمون في الدور التي سرقوها لأصيح فيهم صيحة المسيح :

يا أولاد الأفاعي !.



مع العذراء

مسلمون سدنة لكنيسة القيامة

بلغت بنا السيارة الدار التي كانت تسكنها مريم العذراء أم المسيح واتخذتها معبداً وقامت عليها هذه الكنيسة العتيقة التي لا يبدو عليها رواء أو فخامة من حيث المظهر ، وقبل ان ندخلها وقفت ملياً اتأمل الكنيسة الرائعة المظهر التي تسمى « بالجثمانية » وقد اقيمت حيث كان يجتمع سيدنا عيسى بحوارييه يبصرهم ويرشدهم ويعلمهم ، وقد اكتفيت بالنظر اليها من الخارج وقد بدت مكتملة الروعة والرواء . خصوصاً عند مقارنتها بكنيسة العذراء المجاورة لها والتي تبدو بسيطة المظهر عتيقة المخبر .

وشيء آخر ، فان كنيسة الجثمانية قد بنيت فوق تل كبير جعلها تبدو من بعيد واضحة المعالم جميلة اخاذة ، اما كنيسة السيدة مريم فقد بنيت في موضع منخفض تحت التل يدخل اليها الناس عن طريق سلم صخري متدرج للاسفل ، فكأن الداخل اليها يسير نحو قبو كبير تحت الارض .

ونزلنا بالدرج لنجد عند مدخل الكنيسة عدداً من الرهبان يرتلون ادعيتهم جلوساً ، وبعضهم يقف عند المدخل يحمل شموعاً مضاءة فما يكاد يقترب منه زائر حتى يمد اليه شمعة مضاءة عليه ان يحملها في يده ويجوب بها حجرات الكنيسة ثم يعيدها عند خروجه الى أحد الرهبان على ان يضع طواعية واختياراً

ما شاء من نقود في صندوق النذور .

واخذنا شموعنا المضاءة وقد بدت الكنيسة – مع اننا في منتصف النهار – خافتة الضوء – وكم كان منظرها مهيباً في ذلك المكان الخافت والصمت الذي ران علينا . مشهد الزوار والشموع تخفق اضواؤها بين ايديهم ، وهم يتجولون في هدوء بين آثار العذراء – وقفنا أولا عند المحراب الذي أقيم حيث كانت تتعبد العذراء ، وقد صنع من الرخام ، وقد احتفظ في جوانبه بالمبنى القديم من الحجارة في غير تجميل وعلى خطوات من هذا المحراب العتيق ، قبر السيدة مريم حيث دفنت ، ودلفنا اليه ووقفنا عندهوفي أيدينا الشموع المضاءة وأخذنا نتأمل تلك البقعة التي تضم رفاة العذراء ابنة وحفيدة الانبياء وأم المسيح ، والتيعاشت حياتها في هذه الدار تتهجد وتتعبد زلفى الى الله حتى لقيت ربها صابرة مؤمنة بعد أن رفع ابنها الى السماء • واتجهت أنظر الى جدران الغرفة حيث افتن في رسم العذراء في أوضاع مختلفة تارة وحدها ، وتارة تحمل المسيح بين يديها أو تضمه على صدرها في أروع معاني الامومة . ان تلك الرسوم تحف فنية رائعة تقسرك قسراً على الوقوف عندها طويلاً .

ومن سقف حجرة القبر تواجهك تحف أخرى ليست بأقل روعة من تلك ، وهي مئات القناديل الزجاجية تتدلىفي سلاسل انيقة معجبة ، القناديل عتيقة الصنع كلها من الزجاج وتختلف في صنعها وأحجامها وزخرفتها تنبعث من بعضها أضواء خافتة . وكلها تضاء بالزيت فقط، لتزيد منرهبة المكان وجلاله – وليس للكهرباء من وجود في كنيسة العذراء – ويبلغ عدد هذه القناديل المدلاة من السقف نحو الاربعمائة قنديل كما حدثنا دليلنا ، وتؤكده مشاهدتنا . وداخل الغرفة التي تضم قبر العذراء رأينا بئراً صغيراً قيلأن العذراء حفرتها لتستقيمنها دنونا منها فوجدنا بالقرب منها دلواً صغيراً فألقيتهفيالبئر لاسبر غورها واذا بها قريبة الماء جداً،ونزعته مليئاً بالماء .فشربنا ماء عذباً بارداً جداً . ولعلي أشرت من قبل الى أن المياه التي تتدفق من الجبال أو من الينابيع تجدها شديدة البرودة

وقد شهدت في بعض كازينوهات لبنان الشمال يضعون قناني الشراب على الجداول التي تجري فيها الأمواه حول مناضد الجالسين، فإذا أخرجوها لطالبيها وجدوها كأنما عليها قدر غير يسير من الثلج لفرط برودتها .

وارتوينا من ماء بئر مريم مثلما ارتوت مشاعرنا بهذا التاريخ الماثل أمامنـا وحولنـــا . وتهيأنا للخروج من الدار ، وكانت تعج بعدد من الزوار جلهم من الامريكان ، والغريب انا كنا نجد عدداً منهم دائماً كلما زرنا آثاراً دينية أو تاريخية يحملون آلات التصوير الدقيقة فلا يتركون شيئاً ذا أهمية الا صوروه . وبالرغم من وجود عدد غير قليل معنا آنذاك الا أننا نكاد لا نسمع صوتاً الا همساً خافتاً وفي فترات متباعدة . والرهبان والقساوسة الذين وجدناهم منتشرين في أماكن مختلفة جلوساً أو قيامـــاً قد ران الصمت عليهم ، وفي أيدي أكثرهم صحفهم الدينية يتلونها سراً وقد ثبتوا فيها أنظارهم وقل أن يرفعوها ليروا من القادمون الطائفون حولهم ؟

وعند الباب أعدنا للراهب شموعنا فتسلمها في صمت دون أن ينبس ببنت شفة وفي هدوء تام ، وملنا الى صندوق النذور فألقينا فيه مـا يسره الله ، وصعدنا الدرج لنترك دار العذراء خلفنا ولتطالعنا مرة أخرى كنيسة الجثمانية عاليـــة شامخة حيث كان يجتمع عيسى بحوارييه ، ولكننا لا نلجها اذ كان بنا شوق ملح لنرى كنيسة القيامة حيث قتل المسيح ودفن – كما تقول الرواية المسيحية – ثم رفـــع الى السماء من جبل الزيتون أو جبل الطور الذي شهدناه من أعلى جبل المكبر عالياً شامخاً . فكنيسة المهد في بيت لحم بذنيت حيث ولد عيسى ، وكنيسة القيامة في قلب القدس القديمة بذنيت حيث انتهت حياته الدنيوية – ولعلي ذكرت أن كنيسة القيامة ملاصقة لجامع سيدنا عمر بن الخطاب وذكرت قصـة زيارته لهذه الكنيسة وكيف أدركته الصلاة وهو يطوف بها في صحبة قساوستها الكبار فأبى ان يؤدي الصلاة داخلها حتى لا يتخذها المسلمون مسجدا ، فخرج وأدى

الصلاة قريباً منهـــا في العراء حيث أقيم فيما بعد المسجد الذي ظل يحمل اسمه الخالد .

ووصلنا بعد رحلة قصيرة كنيسة القيامة . وان كانت كنيسة مريم قد طالعتنا بالبساطة الآسرة ، فان كنيسة القيامة طالعتنا بالفخامة الباهرة – وان وجدنا ترف العقيدة ماثلاً في قبة الصخرة عند المسلمين حيث رصعت القبة كلهـــا من الداخل بالذهب الخالص وبنيت عمدها بالرخام والفسيفساء ، فان كنيسة القيامة تمثل ترف العقيدة بصورة أجلى ممثلاً في تيجان الذهب وفي الجواهر الكريمة الغالية على النحو الذي سأذكره هنا – ان كل ما في هذه الكنيسة بلغ حد الروعة الفنية والبذخ المادي – قادنا الدليل أولاً الى غرفة كبيرة تدلت من سقفها قنـاديل فاخرة من الذهب الخالص وبعضها من غير الذهب دقيقة الصنع رائعـة المظهر

وهناك قام قبر ارتفع عن الأرض أكثر من المتر وقال الدليل هنا دفن عيسى بعد أن قتله اليهود ثم قام وصعد الى السماء – وهنا نرى أن الروايتين – الاسلامية والمسيحية – تتفقان في قضية الصعود وتختلفان في أن المسلمين يقفون عند قوله تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » – وقال دليلنا ان حراسة هذا القبر وقف على طائفة الروم الارثوذكس وقادنا الى بهو مجاور فخم الرواء حيث كانت تختبىء المريمات الثلاث يشهدن في ألم وجزع غسل المسيح – بعد أن قتل – نسيت أن أذكر أننا وجدنا قطعة من الصخر عند قبر المسيح قال دليلنا انها صخرة مما سد به قبر المسيح أولا . أخذت من جبل الجلجلة .

وأخذنا نطوف بأرجاء الكنيسة لنشهد أروع ما خطه الفن من صور وتماثيل للمسيح والعذراء وعدد من الانبياء ووقفنا عند تمثال رائع للمسيح صنع من الزمرد والياقوت أهدي من تركيا وعلى صورة اخرى مطعمة بالجواهر يصعب وصفهـا للعذراء ، كما علقت عليها هدايا من الاحجار الكريمة الغالية قيل انها من قياصرة روسيا ، ووجدنا أيضاً على صورة أخرى للمسيح هدايا من الجواهر الثمينـة وقد قـدرت قيمـة الجواهر والاحجار الكريمـة المنتشرة على صور وتماثيل المسيح

والعذراء في هذه الكنيسة بثلاثة ملايين جنيه استرليني ، وقد وضع أكثرهـــا خلف اطارات من الزجاج ليراها الزوار وهي مدلاة حول تماثيل وصور المسيح والعذراء .

ان اماكن التعبد في هذه الكنيسة الضخمة قد قسمت بعدد الفرق المسيحية لتتعبد كل فرقة في المكان المعد لها عند زيارتها للكنيسة ، وهناك ١٥ قنديلاً لها وضع خاص ، قسمت بعدد هذه الفرق وعلى النحو الآتي : خمسة قناديل للروم الارثوذكس وخمسة للكاثوليك وأربعة للارمن وواحد للاقباط ولم ادرك سر هذا التقسيم ولم يفدني الدليل عن محتواه ، وهكذا وجد منذ تاريخ بعيد للكنيسة . ووقف بنا الدليل عند الموضع الذي زعموا ان عيسى غسل فيه ، وحيث كانت المريمات الثلاث ينظرن اليه من موضع آخر والهات باكيات ، وكان في هـــذا الموضع جبل يسمى « الجلجلة » وجدنا بقية من صخوره تركت للدلالة عليـه ، ومن على هذا الجبل غسل جثمان المسيح ليدفن هنا تبعاً للرواية المسيحيــة -- ان الفخامة والروعة والثراء الفني والمادي لهو طابع كلما شهدنا في كنيسة القيامة ، ومن العسير ان ينقل القلم صورة امينة لكل هذا الثراء الفني والمادي – وكان لا بد ان نغادر الكنيسة وان كان كل ما فيها يشدنا الى اطالة البقاء فيها ، وعند بابها أخذ مفاجأة تاريخية لم تــدر بخلدي قط ، كان هناك رجل مهيب الطلعة يجلس امام الباب . وقف بنا الدليل عنده ليقدمنا اليه ، ووقف الرجل فسلم في بشاشة وقال محدثي أن سدنة هذه الكنيسة وحملة مفاتيحها ينتمون الى اسرة نسيبة الصحابية الجليلة ، وهذا الرجل مسلم من أحفاد نسيبة وفي يده اليوم مفـــاتيح الكنيسة وعجبنا لكنيسة مسيحية تاريخية يكون سدنتها وحاملو مفاتيحها من المسلمين وترجع هذه الظاهرة الى عهد صلاح الدين الايوبي عندما احتل بيت المقدس ووجد خلافاً حاداً بين الطوائف المسيحية حول من يتولى مفاتيح الكنيسة ، ولمـــا لم يصلوا الى اتفاق بينهم اقترح عليهم ان يلي هذا الامر اسرة عربية مسلمة عريقة يحترمها الجميع ، واختاروا احفاد المسلمة الخالدة نسيبـــة بنت كعب ليكونو

امناء على هذا الاثر المسيحي — وأقروا ذلك بالاجماع ، ومنذ أكثر من ثمانيــة قرون ومفاتيح كنيسة القيامة يتوارثها الحفاظ عليها أحفاد نسيبة بنت كعب .

وقد يتساءل بعضنا لماذا ينتسب هؤلاء الى امهم نسيبة ؟ ان نسيبة رضي‌الله عنها امرأة ليست كالنساء بل امرأة يتقاصر دونها الرجــال . لقد كانت نسيبة بنت كعب اولى المسلمات اللواتي بايعن النبي (صلعم) من المدينة . جاءت مــع وفد يثرب الثاني للقاء النبي في موسم الحج بمكة فشهدت بيعة العقبة الثانية وبايعت هنا والفرحة تطغى على مشاعرها وحرصت على شهود مجلسه والاخذ عنه والتفاني في محبته . وفي واقعة أحد ذات المعارك المشهورة كان لها دور بطولي تحدث عنه التاريخ مفاخراً ومباهياً — حملت اولاً سقاها وتبعت الجيش لتقدم الماء للمجاهدين وكان بين المجاهدين المسلمين ولداها وزوجها ، وعندما أشاع الكفــار في تلك الموقعة ان محمداً قد قتل ، صاحت « ما طعم الحياة بعد رسول الله ؟ » ووقفت مع زوجها وولديها يحاربون دون النبي .. قالت تروي بعض ما حدث في ذلك اليوم العصيب — كما روى ابن هشام في تاريخه الذي قال: « دخلت على أم عماره وقلت يا خالة . اخبريني ؟ — فقالت : خرجت يوم أحد ومعي سقاء فيه مــاء فانتهينا الى رسول الله وهو في اصحابه والدولة لهم والريح للمسلمين — فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فكنت اباشر القتال واذود عنه بالسيف وارمي عنه القوم وانما فعل بنا الافاعيل اصحاب الخيل ولو كانوا رجالة مثلنا اصبنــاهم ان شاء الله — واقبل رجل على فرس فضربني وتترست له ، فلم يصنع سيفه شيئاً وولى ، وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح : يا ابن أم عمارة .. امك .. امك فعاونني حتى اوردته شعوب .. »

وظلت تقاتل وتداوي الجرحى وتسقي ولم تلتفت الى ابنها الذي اصيب في القتال اصابات بالغة — ثم عالجته كغيره من الجرحى ، قــالت له « يا بني انهض وضارب القوم » .. وقال النبي آنذاك « من يطيق ما تطيق ام عمارة » ؟ وقال

عنها (صلعم) ايضاً في معركة احد هذه .. « وما التفت يميناً او شمالاً الا وانا اراها تقاتل دوني » - وعادت من احد بجرح عميق في عاتقها ..

وفي حروب الردة في عهد سيدنا ابي بكر خرجت للجهاد ومعها ابنها حبيب مع المجاهدين ، ويلقى ابنها الشهادة بجانبها فلا يزيدها ذلك الا صلابة في الجهـاد حتى تخمد الفتنة . وعندما شبت فتنـة اليمامة خرجت ايضاً مع المجاهدين لتعود بذراع واحدة وهي اكثر ما تكون ايماناً ولقيت ربها آمنة مطمئنة كما يلقـاه المؤمنون البررة .

ومددت يدي اودع في حرارة حفيـد نسيبة بنت كعب واكبرت في صلاح الدين ان يختار احفاد هذه المجاهدة العظيمة لتكون في ايديهم مفاتيح اعظم اثر ديني مسيحي ، ففي مثل احفاد نسيبة يرجى الوفاء والنبل والاخلاص. واكبرت في المسيحيين انهم منذ عهد صلاح الدين لم يفكروا في ان يجعلوا مفاتيح آثارهم في غير ايدي احفاد نسيبة بنت كعب ، ام عمارة وحبيب رضي الله عنهم .

وهداني هذا الموقف لأعرف حقيقة طابت لها نفسي ، وهي ان المسيحيين والمسلمين يعيشون في القدس في محبة وصفاء ، يحتفلون معاً بكل الاعياد الدينية مسيحية كانت ام مسلمة .. وهكذا ارتفعوا الى اسمى ما يهديه الدين للناس .

إقرأوا هذا العهد

دعوني اقف بكم عند اثر اخذ بمجامع مشاعري واستهواني ببساطته وروعة تاريخه ، ذلكم هو مسجد سيدنا عمر بن الخطاب . قادنا اليه الدليل وسط حوار ضيقة ومنازل تختلف في مظهرها من ذات الطابقين الى ذات الطابق الواحد اكثرها من الحجر ينطق بعضها بسوء حال ساكنيها ، حتى وقفنا عند مدخل المسجد ، وكان المدخل يشق طرفاً من دار مسكونة في مكان عال تنحدر منها مدرجات صوب المسجد ، ونظرت عن يميني قبل ان ادخل المسجد فاذا بي اجد كنيسة القيامة بفخامتها وروعتها ، وهي الكنيسة التي يزعم المسيحيون ان سيدنا عيسى صلب حيث اقيمت ودفن في ارضها حتى رفع الى السماء ، وتعد من اقدس الآثار المسيحية هناك ، وبالقرب منها قيد امتار يقع مسجد سيدنا عمر ، ولا احسب ان مسجداً وكنيسة تجاورا بمثل هذا الوضع ، ولهذا حديث سأرويه في هذا المكان . ودلفنا الى المسجد وأدينا التحية وأخذت أتأمله عن كثب ، انه مسجد بسيط لا فخامة فيه ولا رواء .. القبلة منحوتة من حجر قديم على الجدار الحجري ولا محراب حولها وأرضه فرشت بالحصير – بعضها لا كلها – مثلما نشهد في اكثر مساجدنا بالمدن الصغيرة ، والبناء عادي بغير زخرفة او فن معماري ، ومساحته صغيرة . ولا اعتقد انه يتسع لأكثر من عشرات من المصلين .

ولكن خلف هذا المسجد تكمن قصة رائعة تمثل سماحة الاسلام وعدل عمر وعمق تفهمه لرسالة الدين الذي كان خليفة للنبي عليه . ولنذكر شيئاً من التاريخ، فعندما انتصر المسلمون في واقعة اليرموك على الروم ، اخذوا يزحفون صوب (ايلياء) بيت المقدس لاعلاء كلمة الله.. وتقدموا من ايلياء وحاصروها بقيادة عمرو بن العاص وابي عبيدة حصاراً دام اربعة اشهر ، ولم يقو اهلها والمدافعون عنها على استمرار الحصار فجنحوا الى السلم ، ولكنهم طلبوا ألا يكون ذلك الا على يدي خليفة المسلمين عمر بن الخطاب دون سواه ، فكتب اليه قواد جيشه ان يحضر الى ايلياء ليكتب عهداً لأهلها لتستسلم المدينة المقدسة ، وجاء عمر الى بيت المقدس في موكب متواضع.. « عليه مرقعة بعضها من اديم ويركب بعيراً » ولكن اصحابه يريدونه ان يدخل القدس في ابهة تليق بقائد المسلمين فيقولون له : (لو ركبت بدل البعير جواداً ولبست ثياباً بيضاً) ؟ فيأبى عليهم ذلك نافراً من ابهة السلطان مرتضياً مرقعته وبعيره ، فما شأنه بالثياب البيض والفرس المطهم ؟

ويقولون انه رضي تحت الحاح اصحابه ان يلبس الثياب البيض وان يركب الفرس المطهم ولكنه ما يكاد يسير قليلاً حتى نفر من مظهره فنزل عن الفرس، وخلع الثياب البيض ، وارتدى ثيابه القديمة وركب بعيره ، وقال قولته المأثورة .. كاد الزهو يقتلني !

وكتب لأهل ايلياء العهد كما اتفقوا عليه ووقعه بشهود من اصحابه الابرار ، وأمضى اياما مع جيشه وقواده في جبل قرب بيت القدس سمي من ذلك العهد (بجبل المكبر) ما زال قائماً باسمه -- ولي وقفة عنده -- لان سيدنا عمر - كما يقال - عندما نظر الى بيت المقدس من هذا الجبل هلل وكبر وكبر صحابه ..

وتصف كتب التاريخ كيف دخل سيدنا عمر المدينة المقدسة في موكب بسيط

متواضع .. قالوا : (واقبل عليها في موكبه راكباً راحلتـه اشعث اغبر خشن الملبس والهيئة) .

وقصد سيدنا عمر ومعه البطريرك (صفرونيوس) كنيسةالقيامة ،وادركته الصلاة وهو ما يزال في الكنيسة ، فأبى ان يؤدي الصلاة فيها ، وما كان هناك ما يمنعه من ادائها حيث كان — ويخرج ويصلي في العراء حيث أقام المسلمون هذا المسجد الذي يحمل اسمه حتى اليوم ، ويقول لرجال الكنيسة وقد دعوه للصلاة في داخلها — انه لا يصلي فيها حتىلا يتخذها المسلمون مسجداً — يفعل هذا براً بعهده الذي قطعه لهم ، الا ينالوا من كنائسهم واماكن عبـاداتهم وان يطلقوا لهم حرية التعبد .. حرية الدين والعقيدة الامر الذيلم يكن يعرفه عالم ذلكالعهد اطلاقاً حيث كان للمنتصر ان يحيل معابد مخالفيه في العقيدة الى ركام منالانقاض او يحيلها الى معابد لعقيدته !.. ولكن سيدنا عمر يضعبتصرفه هذا مبدأ سامياً لم يعرفه العالم الا اخيراً معرفة نظرية لم ترتفع الى مستوى التطبيق التام — ومالي لا اذكر ما رواه التاريخ في ذات المكان عندما انتصر الصليبيون واعادوا بيت المقدس اذ جعلوا من المسجد الاقصى دارا لسكنى قائدهمحتى جاء مجدد الاسلام صلاح الدين الايوبي فأعاد المسجد قدسيته . انا لا أقارن بين دين ودين فأنا بحمد الله نؤمن بكل الاديان والانبياء والرسل ، وانما اقارن بين قادة وقادة ، اقارن بين القائد الاسلامي عمر بن الخطاب وهو يرعى حرمة كنيسة القيامة فلا يؤدي فيها الصلاة حتى لا يتخذها المسلمون مسجدا لهذا السبب ، وبين قائد آخر مـا كاد ينتصر حتى أحال المسجد الاقصى داراً لسكناه !

كنت اتمثل كل هذا وأنا اتنقل بين جوانب ذلك المسجد العتيق الذي يحمل اسم الخليفة العادل ، وشد ما ابتهجت عندما وجدت على الجدار الشرقي صورة من وثيقة العهد الذي كتبه لاهل ايلياء في رحلته تلك يحمل توقيعـه الكريم . وتوقيعات اصحابه الغر الميامين ، واخذت اتلوها في شغف بالغ وأعيد تلاوتهـا

اكثر من مرة ، وفي كل مرة تتجلى لي فيها معان جديدة تنطق بالسمو الذي لا حد له ، ومن الخير ان اشرككم معي في تلاوتها وتذوق معانيها وتفهم المبادىء السامية التي تضمنتها (هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين أهل ايلياء من الامان ، اعطاهم أماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها بانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها . ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود وعلى أهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن قام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن احب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الارض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله ولا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عبدالله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين اذا أعطوا ما عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة ١٥ — شهد :

خالد بن الوليد — عمر بن العاص — عبد الرحمن بن عوف — معاوية بن أبي سفيان — عمر بن الخطاب .

ووقفت مأخوذاً عند هذا العهد ، وعند هذه الاسماء أرجع البصر بينها وأكاد اتمثلهم أحياء تزدهر بهم هذه البقعة من الارض يعلون كلمة الحق ويضعون هذه المبادىء الانسانية الخالدة التي يتجلى فيها تسامح المنتصر والاعتداد بحرية الانسان وعقيدته وأمنه وكرامته ، وقبل كل هذا انسانيته . ولرجال التاريخ أن يقارنوا بين هذا العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لاهل ايلياء

وهو المظفر المنتصر ، وبين صكوك المستعمرين التي استعبدوا بها الشعوب وأذلوها كلما ظفروا بشعب ضعيف – قارنوا بينها وبين كل الصكوك التي أبرمت في مثل هذه الحـالة – منتصر في حرب وضعيف مغلوب على أمره – في عصر يسمونـه عصر الحضارة والنور !.

ومالي لا اورد هنا نص الرسالة التي بعث بها الى البابا قائد الحمـلة الصليبية الاولى عندما دخل القدس منتصراً في ليلة الجمعة ١٥ من يونيو عام ١٠٩٩ وهزم القوة الاسلامية في فترات ضعف عرت المسلمين فوهنوا. كتب قائد الحملة الصليبية « جود فري دي بويون » والذي اتخذ لقبه « خادم قبر المسيح » ، كتب للبـابا عقب انتصاره على المسلمين يقول :

« .. واذا أردت أن تعرف ما جرى لاعدائنا ، فاعلم أن رجالنـا كانوا في معبد سليمان يركضون خيولهم في دم المشارقة المسلمين القذر (!) فكانت خيولهم تخوض في ذلك الدم حتى الركب » .

مرة أخرى أكرر أني لا أقارن بين دين ودين، وانما أقارن بين قادة وقادة– وواصلت تجوالي وتأملاتي داخل مسجد عمر لتقع عيني على مـا كرهت أن تقع عليه ، فعلى الجانب الايمـن للمحراب المنحوت على الجدار كتب بخط عريض - محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - وهذا شعار السنيين هنا . وعلى الجـانب الآخر للمحراب ، كتب - محمد - علي - الحسن - الحسين - ، وهـذا شعار الشيعـة فأنت ترى الاولين - السنيين - قد حذفوا اسم « علي » فلم يذكروه ، والآخرين - الشيعة - لم يذكروا الخلفاء الثلاثـة بعد اسم النبي بل قفزوا رأساً الى علي وابنيه ، حتى سيدنا عمر الذي اقيم المسجد باسمه لم ير الشيعة أن يضعوه بجانب علي ! وانك لتحس - مع الاسف - بهذه التفرقة الطائفية المحزنة في كل المجتمعات الاسلامية هنا وتؤثر تأثيراً واضحاً في اكثر المجـالات . واذكر على سبيل المثال ان المسلمين في لبنان يمثلون في البرلمـان على ثلاث شعب مستقلة -

السنيون – الشيعة – الدروز ويعاني لبنان ايضاً نفس مشكلة الطائفية بالنسبة للمسيحيين أنفسهم ، فهناك ، الموارنة – والارثوذكس – والكاثوليك ، وهناك تقليد متبع في لبنان – وان لم يخطط في دستورهم – الا انهم قل أن يحيدوا عنه بجعل رئاسة الجمهورية لمسيحي ماروني – ورئاسة الوزراء لمسلم سني ورئاسة مجلس النواب لمسلم شيعي، على ان تمثل الطوائف الاخرى في الوزارات المختلفة.. وتحس بهذه التفرقة الطائفية عند أفراد الشعب العاديين ، ولست انسى أول وصولي لبنان حديثاً عابراً جرى بيني وبين سيدة كانت تعمل في الفندق الذي نزلت فيه اسمها « بهيجة » ، وقد ظننتها بادىء بدء مسيحية ، فسألتها : أمسيحية أنت ؟ فأجابتني مسرعة وكأنها استنكرت السؤال كلا ! أنا مسلمة سنية ، فسألتها: ماذا تعنين بقولك سنية؟.. فهزت كتفيها في استخفاف وقالت: لا أدري ، ولكن أهلي كلهم مسلمون سنيون ، وهكذا علموني أن أقول ! ولم تكن بهيجة على أي قدر من التعليم ، وأردت أن أسبر غور الخلاف الطائفي في نفسها ، فسألتها : أهناك مسلمون غير سنيين ؟ فأجابت نعم : الشيعة ، وقالتها ووجهها وطريقة نطقها توحي اليك بوضوح بان هؤلاء الشيعة تكاد لا تربطهم معها رابطة دين واحد !..

لقد اعطتني بهيجة في فندق بحمدون بلبنان صورة صادقة لمفهوم هذا الخلاف الطائفي عند الشعب عامة ولم أكن أدري انني سأرى صورة منه على جدران المساجد: وشد ما آلمني أن أرى أثره في هذا المسجد الذي يرتبط بالرجل الذي يدين له المسلمون قاطبة – بعد النبي محمد (ص) بالحفاظ على رسالة الاسلام نقية من كل شائبة ، سامية الاهداف تجمع كل القلوب المؤمنة حولها في أخوة كاملة وانسانية شاملة .

وخرجنا من مسجد سيدنا عمر ، المسجد الصغير العتيق الذي لا زخرفة فيه ولا رواء ولا طنافس على أرضه وانما حصير متآكل تقاصر على ما به ان يغطي أرض المسجد كلها ، المسجد الذي تتمثل فيه روعة التاريخ وسماحة عمر وعدالته وهو

يأبى الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مسجدا ، وهو يكتب هذا العهد الذي حلي به جدار المسجد ، بل حلي بـه التاريخ الاسلامي كوثيقـة انسانية تمثل أرقى القيم الانسانية التي عجز الانسان عن تحقيقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم .

رضي الله عنك يا عمر .



صفافا وطريق الآلام

وهل استطيع مهما اوتيت من قوة البيان ان اعبر عن الشعور الذي انتابني وأنا ازور صفافا ؟.. وتقع في طرف القدس .

لقد قرأت عن نكبة فلسطين نثراً وشعراً وتقارير تجمل وتفصل واستمعت الى الخطباء على المنابر يهزون المشاعر بالحديث عن فلسطين ، وقرأت ما كتب في الصحف من تحقيقات وتعليقات ، وشهدت مشردي فلسطين في اكثر من مكان من البلاد العربية وهم يعيشون في دور قميئة ، وكل هذا الذي شهدت وسمعت لم يطبع في نفسي مثل الاثر الذي طبعته صفافا .. هذه القرية العربية التي تتمثل فيها مأساة فلسطين ابلغ تمثيل ..

القرية عربية خالصة العروبة ، ولكن المأساة شطرتها شطرين يحدهما شارع طويل يشق القرية واحد الشطرين ما زال عربياً يتبع فلسطين العربية .

اما الشطر الثاني فقد احتله اليهود .. وأحاطوه باسلاك شائكة تفصل بينه وبين الشطر العربي ..

وسكان هذا القسم الذي احتله اليهود هم نفس العرب سكان القرية ، وقد وقعوا تحت نفوذ الاستعمار الصهيوني .

بدأت السير في هـذا الشارع الذي يشطر القرية ، وكان عن يميني القسم العربي وعن يساري القسم الصهيوني تحده الاسلاك الشائكة على طول الطريق .. ثم – وما اقسى ما شهدت – الجنود مدججون بالسلاح يقفون على طول حدود القسم الصهيوني .

والعرب داخل هـذا الشطر المحتل محرم عليهم ان يتحدثوا الى اخوانهم في القسم العربي او يشيروا اليهم بالتحية ولو برفع اليـد ، وهم الاخوان والاشقاء وأبناء العمومة .

نعم ، لقد حرم اليهود على العرب الذين في الشطر الذي يحتلونه ان يقوموا بـأي نوع من الاتصال باخوانهم في الشطر الموازي لهم ، ومن يفعل ذلك يلق عقاباً نكراً .

وقد يرى الرجل ابن عمه او صديقه او جاره على بعـد امتار منـه في الشطر العربي فيغض الطرف عنه ولا يحييه ولا بالايماء خوفـاً من بطش الحراس اليهود .

لقد شاء التقسيم العجيب لهـذه الارض ، ان تقع مدرسة القرية في الجانب الصهيوني ، وهذا يعني ان ابناء العرب في الشطر العربي يحرمون منهـا ، اذ لا سبيل الى ذهابهم للمدرسة الـتي صارت في حوزة اليهود .. ورأى اليهود ان يكسبوا امتيازاً آخر في الشطر العربي لقاء ان يسمحوا للاطفال في هذا الشطر بالذهاب للمدرسة .. ونالوا – كما علمت – امتيـازاً في المواصلات ... ثم سمحوا بعد ذلك لأبنـاء الشطر العربي ان يذهبوا الى مدرستهم العربية الـتي بنيت بمالهم .

كنت اسير في هـذا الشارع العجيب وقلبي مفعم بالحزن والاسى ، وأرى العرب خلف الاسلاك الشائكة في ذلـة وخنوع وحولهم الحراس مدججون

بالسلاح وهم ينظرون الى شخصي الغريب يعبر الطريق في خطى بطيئـــة مثقلة بالآلام .

وسألت ، أيمكن ان يلتقي عربي في القطاع الصهيوني بأخيه في القطاع العربي ان كان ثمة ما يدعو الى ذلك ؟.

فجاءت الاجابة قاسية محزنة .. وماذا يكون في مثل هذا الجو غير القسوة والحزن .

قالوا : ان كان هناك باعث هام جداً لهذا الالتقاء تقدم الشخص بطلب الى السلطات اليهودية فاذا ما اقتنعت بان هناك من الاسباب ما تسمح به لهذا العربي ليلقى فلاناً في القطاع العربي ، كتبت الى مكتب هيئـة المراقبة الدولية التابعة لهيئة الامم المتحدة ، الذي يقبع في القدس لحراسة هذا الوضع الشاذ ، وطلبت اليه ان يخطر فلاناً هذا بالحضور الى مكتب المراقبة يوم كذا الساعة كذا ليلتقي بأخيه فلان من القطاع الصهيوني .

وفي الموعـــد المضروب ، يحضر العربي من القطاع الصهيوني تحت الحراسة المشددة .. نعم ، يتبعه حراس يهود مسلحون ويجلسون معه في غرفة اللقاء .. ويحضر اخوه العربي ، يتحدثان معاً على محضر ومسمع من الحراس اليهود الذين لا يسمحون لهما قط بالتحدث بكلمة واحدة خارج نطاق الموضوع الذي سمح لهما باللقاء من اجله . فاذا ما تمت المقابلة خرج صاحبنا العربي مخفوراً بجنود صهيونيين حتى يبلغوا به القطاع المحتل .. ومحال ان يحدث في الطريق اخاً يلقاه او حتى يشير اليه بالتحية .

ألم اقل ان مأساة فلسطين لم تنكشف لي عن اقبح وجوهها الا عندما زرت صفافا ؟.. وأي وضع يشبه هذا في اي بلد مستعمر في العالم ؟.

ان اهل صفافـا في القطـاع الصهيوني يعيشون في سجن صهيوني وليس في

قرية محتلة .

وما زلت اذكر نظرات الجنود اليهود التي على طول الشارع تنطق بالحقد والكراهية لكل من يرون فيه سمة عربية .. وما زال الاسى يغمرني كلما تذكرت العرب في المنطقة الصهيونية تحيط بهم الاسلاك الشائكة اشبه بالسوائم.. وكم هتفت من اعماق قلبي : « لقد ذل العرب وايم الله » .

طريق الآلام :

عدت من صفافا وأنا منقبض النفس حزيناً ، وشاء دليلي ان يمتد هذا الانقباض ، فسار بي الى طريق الآلام لأسلكه ، وأسير على نفس الارض التي سار عليها المسيح بعد أن أسلمه الخائن اليهودي يهوذا الاسخريوطي الى اعدائه اليهود المتربصين ، فأوثقوا صليباً ضخماً من الخشب على ظهره ، وقادوه بهذا الطريق – الذي سمي طريق الآلام – حتى بلغوا به الموضع الذي صلبوه فيه ، كما تقول روايتهم ، حيث تقوم الآن كنيسة القيامة ..

وسارت بنا السيارة حتى بلغنا حياً شعبياً في وسط مدينة القدس ، فترجلنا لتعذر مرور السيارة بين أزقته الضيقة ، واجتزنا باباً أثرياً عتيقاً يعتبر مدخلاً للحي واسمه (باب الزيت) وتوغلنا في الحي حتى وصلنا زقاقاً ضيقاً قامت على جانبيه حوانيت صغيرة متلاصقة مليئة بألوان الفاكهة والطعام والبقول ، لها روائح نفاذة ، وقد اكتظ الزقاق بالمارة وكلهم من طبقات الشعب الفقيرة كما يوحي مظهرهم ومظهر الحوانيت التي يقفون عندها .

وفي هذا الزقاق الضيق المزدحم بالناس والحوانيت ، تقع مراحل التعذيب التي اجتازها المسيح يحمل الصليب الضخم على ظهره واليهود يحيطون به والشر باد على وجوههم وهم يتحفزون لقتله .. وكان السيد المسيح وهو يسير وعلى ظهره

الصليب الضخم ، يسقط اعياء في بعض جوانب الطريق ، وقـــد سقط في نحو الـ ١٤ موضعاً كما يقولون على طول هذا الطريق حتى بلغ موضع كنيسة القيامة .

وهنا تتجلى روعة الفن ، ففي كل موضع قيل ان المسيح سقط فيه إعياء وهو يجتاز هذا الطريق حيث كنا نسير ، أقام المسيحيون مزاراً ، وهو غرفة واسعة أنيقة حفلت بأجمل الرسوم والتماثيل التي تصور حياة المسيح وقد دخلنـا الغرفة الاولى ، فوجدنا تمثالاً فخماً للمسيح ، وحليت كل الجدران برسومات رائعة اخاذة للمسيح وللعذراء في أوضاع مختلفة .

وواصلنا سيرنا حتى بلغنا المرحلة الثانية من الطريق لنجد غرفة اخرى زينت ايضاً بالصور والتماثيل غير تلك التي شهدناها في الموضع الاول .

وفي المرحلة الثالثة حليت الغرفة بتمثـال ضخم للمسيح وهو مضجع يحمل الصليب الضخم على ظهره .. لقد كان التمثال ناطقاً في تصوير مأساة المسيح وهو يشق هذا الطريق ويسقط تارات أعياء والصليب على ظهره .. وزينت الغرفـة برسومات لاطفال صغار مشرقي الوجوه مجنحي الاكتـاف ، فكأنهم الملائكة طهراً وجمـالاً .. وكانوا متجهين نحو تمثـــال المسيح وقد ضموا ايديهم الصغيرة ورفعوها الى أعلى كأنهم يصلون من اجله .. وقـد استهواني هذا المنظر الفريد فوقفت عنده طويلاً رغم ما كنت أعاني من مشقة التنقل بين هـــذه المراحل بقدمي لاستحالة مرور السيارات في ذلك الزقاق الضيق .

وقد أسفت إذ لم أستطع أن أوالي السير حتى نهـــاية المراحل وقد اعطتني المراحل الثلاث التي استطعت بلوغهـا صورة مكتملة عن بقية المراحل ، فحينما سقط المسيح أعياء في هذا الطريق – طريق الآلام – بنوا غرفة واسعة خلدوا فيها مشهد المسيح بالرسومات والتماثيل الـــتي بلغت فيهـــا روعة الفن حداً معجزاً .

وعدنا أدراجنا ، وكنت طوال الطريق ، أذهب بخيالي بعيداً، فأتمثل سيدنا عيسى في هذا الطريق الذي نعبره يتحمل في سبيل الرسالة المقدسة كل صنوف العناء والتضحية .. ففي هذا الطريق المزدحم بالناس والحوانيت ، كان صراع العقيدة بين المسيح وجمع من اليهود الاشرار أوثقوا صليباً ضخماً على ظهره وسلموه للعذاب وهو يتحمل كل ذلك راضياً مطمئنا صابراً حتى كرمه الله ورفعه اليه .

لقد مضت قرون وقرون والطريق الذي سلكه عيسى نحو نهايته ما زال باقياً نمشي عليه نحن وهو لا يحس بنا – سواء لديه أقدامنا التي تسير عليه اليوم من أرض بعيدة غريبة عليه وعلى الناس هنا وهم يحدقون بأبصارهم فينا ونحن نشق زحامهم ، وأقدام عيسى وهي تدب عليه في طريقه الى نهاية الحياة ، وأقدام الملايين تسعى لشتى الاغراض وقد نسيت في غمار أطماعها وتلهفها عيسى ومطارديه في هذا الطريق ..

واليهود الذين فعلوا بعيسى ما فعلوا في هذه البقعة من الارض ما زالوا هم اليهود الذين عادوا بعد قرون طويلة ليفسدوا هذه البقعة من الأرض ويشردوا أهلها .

أثران ما زال جرحها النفسي عميقاً في قلبي ... صفافا حيث العرب خلف الأسلاك الشائكة تحت رحمة اليهود ، يحكمونهم بأسلوب لم يشهد له الاستعمار مثيلا .. وهذا الأثر – طريق الآلام – حيث ترتبط مأساة المسيح بكل شبر فيه ، واليهود يتبعونه وهو يسقط الحين بعد الحين من فرط الأعياء، وهم فرحون متهللون ان ظفروا بالمسيح ..

لقد بقي المسيح في رسالته السماوية رمزاً للمحبة والسلام . وبقي اليهود والنتن يفوح من تاريخهم حيثما حلوا ...

ووحدتي ، وأنا أغادر طريق الآلام ، والمسيح ماثل أمامي في كل شبر منه ، يحمل الصليب الضخم على ظهره ، ويساقط إعياء أنشد أكثر من مرة بيت شوقي المشهور :

يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام



عند مبكى اليهود

قلت للدليل قد فرغنا من زياراتنا للآثار الاسلامية وشهدنا ما بقي من آثار المسيحية فهلا شهدنا – حائط المبكى – لليهودية ؟

وكنت قد قرأت شيئاً عنه وعرفت انه الأثر الوحيد القديم الموجود هنا للديانة اليهودية – وبالرغم من الأثر السيء الذي خلفه في نفسي منظر اللاجئين العرب في بيوتهم القميئة على سفوح الجبال ودورهم العامرة وزرعهم النضر قد اغتصبه منهم اليهود ، الا انني تحاملت على نفسي وسرت الى حيث الأثر الديني لليهود في مدينة القدس القديمة وهو – حائط المبكى – .

ومرة أخرى أجد ان الطريق اليه لا يمكن ان تسلكه السيارة فنترجل ونسير على أقدامنا في أزقة ضيقة كثيرة الالتواء وكنت أجد نفسي أحياناً في زقاق يشق أرضاً مرتفعة والدور من حولنا تكاد تكون مكشوفة تطل عليها من عل، وهي دور بائسة المظهر في أكثرها – تدل على مستوى مادي منخفض – وفي حي مزدحم بهذه الدور البائسة المتواضعة وقفنا أمام حائط قديم أشبه ما يكون بالسور الذي يحيط بدار الرياضة بأم درمان والذي أقيم كما نعلم في عهد المهدية ، بني المبكى من حجارة ضخمة يبلغ طول بعضها عشرة أقدام وارتفاع حائط المبكى نحو العشرة أمتار وكان في الاصل كما يقول احبار اليهودية يرتفع

نحو الخمسين قدماً ، أما طوله فلا يتجاوز الثلاثين متراً تقريباً .

وحول هذا الحـــائط الاثري القدم كان اليهود يحتشدون ويرتلون ادعيتهم وتفيض اعينهم بالدموع وقد وضعوا ايديهم على هذا الحائط .

ما شأن هذا الحائط ؟ ومما اكتسب هذه القداسة عند اليهود ؟ ولِمَ يبكون حوله ؟ اسئلة لا بد من الاجابة عليهـــا فقد ثارت في خاطري وانا اتأمل هـذا الحائط فلا أرى فيه غير اثر قديم باهت لا تشع منه روعة الفن أو جمال الصنعة .

لقد حرم على اليهود الاقتراب منه اليوم اذ انه يقع الآن في المنطقة العربيـة وهو الشيء الوحيد الذي كسبه العرب من اليهود في المعركة ، واحسب ان اليهود غير آسفين عليه وقد استبدلوا به دور العرب وأرضهم وحدائقهم ولم يعد يعنيهم بعد هذا ان يتكأوا على هذا الحائط يبكون ويدعون الله . وحائط المبكى أو — كوتل معربي — كما يسمونه بلغتهم العبرية هو أول بناء بدأه سيدنا داود عندما اراد ان يبني القدس وما كاد يشرع في بناء هذا الحائط حتى امره الله ان يكف عن البناء موحياً اليه ان القدس سيبنيه ابنه سليمان من بعده .

وتقول الرواية اليهودية — ان داود قد امتثل لأمر ربه لأن الله تعالى أوحى اليه بأنه اذا أتم هذا البناء وغضب الرب على عبـــاده بسبب عصيانهم وذنوبهم فسيفنى الناس ويبقى البناء وحده قائماً . وجـــاء سليمان من بعد داود ولم يبن القدس حيث بـدأ داود ، بل اختـار مكاناً آخر حيث بنى — بيت المقدس الذي تحول الى — المسجد الاقصى — فيما بعد — وكان اليهود يتعبدون في بيت المقدس هذا قبل ظهور الاسلام وفي داخل هـذا البيت مكان خاص يسمونه قدس الاقداس — ويزعمون ان النور الالهي يسطع فيه ولهـذا فقد حرم على أي منهم الدخول الى هذا المكان ويعتقدون أن كل من يدخله يحترق ويموت . . شخص واحد فقط سمح له بالدخول مرة واحدة كل عام ذاك هو الكاهن الاكبر ويدخل يوم عيد الغفران من كل عام ويسمون هذا العيد بالعبرية — كوبور — ان الكاهن

الاكبر فقط وفي عيد كوبور من كل عام هو الذي يباح له دخول قدس الاقداس.. وهذا الكاهن الأكبر نفسه لو دخل قدس الاقداس في غير هـــذا اليوم يحترق ويموت . هكذا يعتقدون — اذن فقد جاء سليمان بعد أبيه داود وأتم بناء بيت المقدس ولكن في غير المكان الذي ارسى أساسه داود وأقام فيـه أول حائط للمبنى المقدس — ولهذا يجيء اليهود الى هذا الحائط يبكون ذنوبهم التي جعلت الرب يأمر داود الا يكمل البناء والا فسيفنى الناس ويبقى البناء.. وهذه الذنوب التي ارتكبوها هي التي جعلت بيت المقدس يبنى في غير المكان الذي أراده داود ولم يرده الله لمعصية الناس له وارتكابهم للآثام .

انهم منذ ذلك العهد يبكون اسفاً على هذه الذنوب والمعاصي التي جعلت هذا البناء المقدس عندهم لم يتم حيث أراده داود وبدأ فيه .

تلك هي قصة المبكى كما تتبعتها وقد اردت ان استوثق مما عرفت فاستطعت في الخرطوم ان التقي بالحاخام مسعود الباز من رجال الديانة الموسوية وهو عربي من شمال افريقيـا — وفي العرب يهود كما فيهم مسلمون ومسيحيون — وقد أكد لي صحة ما أوردته هنا عن حائط المبكى لليهود في القدس القديمة .

انني ما زلت اذكر وقفتي تلك عند هذا الحائط التـاريخي الذي كان اليهود يقفون على طول امتـداده يرتلون ويبكون ويلمسونه بأيديهم التماساً للغفران من ذنوبهم ، وكيف بدا لي الانسان ضعيفاً عاجزاً وهو يلتمس الوصول والقربى الى الله متخذاً شتى الاساليب .

الصَّرح الممرَّد

وكان لا بد ان يكون ختام زيارتي للقدس ان أقف عند آثار أول من ارسى قواعد بيت المقدس ، واول من عمر بالبناء هذه المدينة ذات الآثار المقدسة سيدنا سليمان .. ولقد كان سيدنا داود من قبله يتوق لبناء القدس ، فوضع اول حائط لبيت المقدس ولكنه امتثل للوحي من ربه اذ امر بأن يكف عن البناء وان القدس سيبنيها سيدنا سليمان من بعده ... وبقي الحائط الذي تحدثت عنه كمبكى لليهود .

وجاء سليمان ونفذ كلمة ربه فبنى بيت المقدس – الآن المسجد الاقصى في المكان الذي ما زال قائماً فيه ، وان اختلفت على البيت عهود واديان ، واعيد بناؤه في صور شتى ، وقد تعرضت الى تفاصيل هذا في كلماتي السابقة ، وذكرت كيف انه كان أول قبلة اتجه اليها المسلمون في صلواتهم ...

واتجهنا الى دار سيدنا سليمان التي بناها لصق قبـــة الصخرة وعلى قرب من المسجد الاقصى او بيت المقدس – وبلغناها بعد رحلة قصيرة بالسيارة اذ انهـا تقع وسط المدينة وعلى مقربة من سوقها الكبير .. ودلفنا اليها فهشت لمرآهـا وجوهنا وقلوبنا على ما نالها من البلى .

لهفي على الايام كم تفعل بنا . ماذا بقي من دار سليمان !؟ تلك الدار التي بهرت

بلقيس عندما دخلتها اول مرة لتلقى سليمان ، وقد صنع عند مدخلها صرحاً « سطحاً » من زجاج ابيض شفاف تحته ماء عذب يجري فيه سمك مختلف . . فلما رأته بلقيس حسبته لجة من الماء فكشفت عن ساقيها لتخوض اللجة وكان سليمان على سريره ينظر اليها ، وقد صنع هذا الصرح بهذه الصورة التي جلاها لنا القرآن لتقع بلقيس في هذا الوهم وتكشف عن ساقيها ، اذ قيل له انها على روعة جمالها الفاتن فان ساقيها وقدميها كقدمي الحمار يعلوهما شعر كثيف .. ولكن بلقيس كشفت عن ساقين حسناوين كملت بهما آية جمالها .

قال تعالى في محكم التنزيل – « قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال انه صرح ممرد من قوارير قالت ربأه اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

يا لله اين هو الصرح الممرد ، تسبح تحته الاسماك في ماء عذب ؟ اين دار سليمان بأبهتها وفخامتها ؟ أهذه الاحجار والاطلال والعمد القائمة على الانقاض هي كل ما بقي من الدار وصرحها الممرد ؟

لقد وقفنا حيث كانت تقوم الدار ولم نجد غير بقايا عمد في الموقع الذي قيل انه كان يجلس فيه سليمان ليحكم بين الناس والجن... وقد رأى الحفيظون على هذه الآثار المقدسة ان يجددوا بناء الاعمدة فأقيمت فخمة رائعة ولكنها مجرد أعمدة ، اربعة فقط تمثل اركان الغرفة التي كان يجلس فيها سليمان ، والجن تتوافد اليه ، يغوصون في أعماق البحار ليستخرجوا كريم اللالىء يسرعون بها الى سليمان لتضم الى كنوزه الثمينة ..... قال تعالى « ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين » .

لقد سخر الله الجن لسليمان – يغوصون له – ليقدموا اللالىء الثمينة ويعملون عملا دون ذلك – قيل انهم كانوا يقيمون له البناء كما يشتهي ويريد ..

واتمثل على بعد المدى ، طائفة من الجن وفي [illegible] اللالىء والجواهر ، وطائفة تبني وتعمل « والريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها » وقال المفسرون انها أرض الشام .

ملك لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، وأي الملوك سخرت له الريح والجن والطير طوع امره ووفق مشيئته .. — (وحشد لسليمان جنوده من الانس والجن والطير فهم يوزعون) .

واقلب الطرف من حولي فلا ارى غير ركام من الاحجار هنا وهناك ، وبقايا أعمدة حاولت يد المدنية الحديثة ان تضفي عليها روعة الفن الحديث ، والله أعلم انها مهما امتدت لتجمل وتزين ، فلن تبلغ شيئاً من ذلك الصرح الممرد الذي بهر بلقيس فكشفت عن ساقيها لتخوض في لجته . وسليمان ينظر اليهـــا من سريره في هذا المكان الذي لم يبق منه غير ركام من الاحجار مبهوراً بفتنتهـــا مأخوذاً بسحر جمالها .

لكأني أرى الجن حول المكان في انكسار وخضوع وبينهم ذلك المارد الذي قال لسليمان عندما تساءل عن الذي يأتيه بعرش بلقيس في أقصر زمن ؟ (قال يا ايها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين قـــال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قـــال الذي عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي .

يا ملك سليمان كيف زلت وقد حشد لك الجن والانس والطير والريح ، كلها تتمثل لك وتأتمر بأمرك .

وكأنما أحسّ الدليل بما يعتمل في نفسي وانا اقلب طرفي بين تلك الصخور والاحجار واتلمس بيدي الاعمدة التي قامت على انقاض ذلك الصرح الممرد مثلما

فعل البحتري وهو يقف على ايوان كسرى فيبهره ما عليه من رسوم تكاد لا تصدقها عينه حتى يتحسسها بيديه :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يدا بلمس

أقول كأنما أحس الدليل بما يعتمل في نفسي فاتجه بي نحو اقبية قديمة العهد اقيمت عليها غرف صغيرة كلها مغلقة وقال :

هنا كان يسجن سليمان الجن .. وما كان لي ان اتقصى وأبحث ففي القرآن من الشواهد ما يغني ...

(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وارسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم من امرنا نذقه من العذاب السعير . يعملون له ما شاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) .

من لي ببيان البحتري اصف به هذا الشعور الذي انتابني عند آثار ملك سليمان ، لقد وقف البحتري عند ايوان كسرى فألهمه تلك القصيدة الرائعة التي استهلها بقوله :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جد كل جبس
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماساً منه لتعسي ونكسي

وان كان البحتري لا يدري أكان الايوان صنع أنس أم صنع جن لانس فان دار سليمان وايوانه صنع جن لانس :

ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس

وان كان ايوان كسرى قد أوحى للبحتري هذا الشعر الخالد ، فقد وقف شاعر ملهم آخر مثل موقفه عند آثار بني عبد شمس – في الاندلس وقفا أثر

البحتري ، فصال وجال وخلد ، ذلكم هو امير الشعراء أحمد شوقي ، الذي شفته آثار قصور العرب في الاندلس :

وعظ البحتري ايوان كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس

ولقد ذهبوا جميعاً الى غير هذه الدار من بنى عاليا ومن وقف باكياً .. ولو جاء البحتري او شوقي الى ارض التاريخ المقدس لوجدوا في بقـايا صرح سليمان الممرد ما يلهم بالرائع المعجب .. الصرح الذي قيل ان سليمان بناه عام ١٠١٣ قبل المسيح كما جاء في كتاب خطط الشام للعلامة المغفور له محمد كرد علي .

واحدق ببصري مرة اخرى الى حيث الاقبية التي قيل ان سليمان كان يسجن فيها الجن – لو صح ما تحدث به الرواة – وقد ملأ الرعب قلوبهم من سليمان ويحدث القرآن عنهم ، انهم ظلوا على ما هم عليه من خوف من سليمان حتى بعد ان توفاه الله ، وبقي متكئـاً على عصاه فجـاءت دابة الارض فأكلت العصا – المنساة – فخر سليمان وتبينت الجن موته – قال تعالى : (فلما قضينا عليـه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منساته . فلما خر ميتاً تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) .

وتخيلت الجن وقد تبينوا موت سليمان بعد ان دلتهم عليه دابة الارض وقد خرجوا من هذه الاقبية فرحين متهللين وقد ذهب عنهم العذاب المهين .

كان ذلك قبل الف عام من مولد المسيح وقد مر على هـذا المكان ملايين وملايين من البشر وقامت وتلاشت مدنيـات وحضارات .. ولم يبق محدثاً عن ذلك العهد القصي غير هذا القليل من الحجارة الصم لو شاء الله لهـا ان تتحدث لجاءت بالعجاب .

ومات سليمان كما يقول بعض المفسرين وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

وظللت واقفاً فترة غير قصيرة أنظر حولي واستوحي التـاريخ مستنطقاً

الحجارة الصم ولا من مجيب ..

وسرت رويداً رويداً كأنما الدار ما زالت في روعتها وكأن بلقيس بفتنتها تسير عليها عارية الساقين وقد بهرها الصرح الزجاجي فحسبته لجة ماء !...

وغادرت المكان بعد لأي، فأمامي سفر طويل وقد امتلأت النفس بفيض من المشاعر وتضاءل كل شيء في نظري .

ودار محرك السيارة في عنف كأن السائق يريد ان يردني الى واقع حياتنا ، وان يعود بي من تلك الرحلة التاريخية مع سليمان والجن وبلقيس في دار لم يبق منها غير ركام من الاحجار هنا وهناك ، وأعمدة أربعة بنيت لتدل على الأثر الذي مرت عليه قرون وقرون بعد ان زال ملك سليمان الفريد في تاريخه ، فسبحان الحي الباقي .



سلام الله على الامام

الجو لطيف يثير النشوة والمرح ، والسيارة الفارهة تنطلق في سرعة فائقة في طريق الاسفلت الذي يعلو قنن الجبال حيناً حتى يبدو السحاب تحتنا ، وينحدر حيناً الى السفوح والاغوار والوديان فتبدو الجبال من حولنا عالية شاهقة — منظر صار مألوفاً لدينا .

وعلى المقاعد الامامية للسيارة جلس بجانب السائق شاب في الحلقة الثالثة من عمره وبجانبه فتاة دقيقة أنيقة ملتصقة به ، عرفنا بعد قليل انهما زوجان في اول مراحل الزوجية يعملان في حقول التدريس وكلاهما أردني نالا حظهما من التعليم الجامعي ، يقصدان دمشق فلبنان للترويح ، وعلى المقاعد الخلفية للسيارة جلست أنا وعن يميني الصديق الكريم محمد أحمد أبو سن وعن شمالي امرأة عربية في خريف عمرها عليها آثار ماض جميل .

بدأنا الرحلة في تحفظ ووجوم ككل غرباء يلتقون لاول مرة في رحلة عابرة. وللسيد أبي سن موهبة نادرة في خلق جو مرح للتعارف والأنس في مثل هذه الاحوال . وسرعان ما استغل موهبته وصارت السيارة تموج بالضحك وتفيض بالقفشات والتعليقات الطريفة المرحة .. وانبعثت من راديو السيارة موسيقى رائعة جذبتنا اليها قسرا ، وتعلقنا بها وكانت الموسيقى منبعثة من محطة اذاعة

عمان وانتهت القطعة الموسيقية وبودنا الا تنتهي ، وخطر بذهني ان أسأل الفتى والفتاة ان كانا يعلمان شيئاً عن الموسيقى والاغاني السودانية ؟

وسألتهما ، اسمعتما شيئاً من الاغاني والموسيقى السودانية ؟ وسادت بيننا لحظات صمت قصيرة لعلهما كانا ينقبان خلالها ما كمن في ذاكرتيهما ، والتفتت اليّ الفتاة بوجهها المشرق والابتسامة تملأه لتقول : سمعت اكثر من مرة أغنية سودانية اعجبني معناها وموسيقاها .. وصمتت مرة اخرى تحاول استذكار كلمات مطلع الاغنية ، وتهللت وهي تردد .. ازيكم .. ازيكم ... وضحكنا كثيراً فقد ادركت وصديقي أبو سن انها تغني اغنية سيد خليفة المعروفة .. ازيكم ... كيفنكم .. وسألتها اين سمعتها ؟.. فأجابت انها على ما تذكر كانت تردد من محطة عدن .. ووجهت نفس السؤال الى زوجها .. فأجاب دون توقف انه استمع في القاهرة الى اغنية (المامبو السوداني) واعجبته موسيقاها ، فقلنا لها : ان الاغنيتين لفنان سوداني واحد يسمى سيد خليفة .

واتجهت بالسؤال الى جارتي التي كانت تنصت باهتمام ولعلها ادركت أن السؤال لا بد متجه اليها فقالت : اعجبني (هايدا اللي بيغني مع صباح .. شو اسمو ؟) قلت انه احمد المصطفى وهو نقيب الفنانين عندنا .. وآسيت صديقي أحمد وقلت في نفسي ، انها قسمة ضيزى يا احمد ، ان يستأثر سيد خليفة باعجاب الشابين المرحين الانيقين ، ويكون نصيبك امرأة في خريف عمرها!.. ولكنها الحياة حظوظ !..

ومهما يكن فقد ابهجني أن للأغنية السودانية صدى في مشاعرهم ، وان كنت قد أسفت لهم لانهم لم يستمعوا اليها من اذاعتنا ، واكدت لهم أن اذاعتنا ستسمع قريباً في وضوح تام ، وقد استمعوا الى هذا في اهتمام واضح .. وايقنت ان الاغنية التي ترددها الشفاه في كل مكان لهي سفارة ناجحة .

وفي بحمدون بلبنان كنت على موعد مع المطرب الحجازي الشاب محمد سهيل

وكنت قد التقيت به في بهو الفندق الذي سعيت انزل فيه ، وتعرف الي ، وحدثني انه جاء لاول مرة ليملأ عدداً من اغانيه في اسطوانات ، ويسجل لاذاعة لبنان ، وافترقنا عند الصباح لأقوم برحلتي الى دمشق وعمان والقدس ولالقاه بعد عودتي ليحدثني ويسمعني جانباً من اغانيه ...

ومحمد سهيل في الخامسة والثلاثين من عمره ، أكمل مرحلة التعليم العامة ، وعلى حظ لا بأس به من الثقافة العامة . وما كاد يراني مقبلاً من رحلتي حتى خف الي متهللاً ليسمعني من (الريكوردر) الذي يملكه في غرفته الاغاني التي تم تسجيلها في بيروت ..

قلت له : من هو أشهر مطرب عندكم في الحجاز ؟ وكنت اظنه سيشير الى نفسه ، ولكنه كان اميناً اذ اجاب مسرعاً انه طارق عبد الكريم ... قلت ومن يكون طارق هذا ؟ .. وابتسم وقال : انه ضابط في الجيش السعودي برتبة (زعيم) في الثانية والاربعين من عمره يملك حنجرة ذهبية صافية ، تذاع اغانيه في جميع الاذاعات العربية .

وأخذ محمد سهيل يحدثني عن النهضة الغنائية في بلاده لقد كان الغناء الى عهد قريب محرماً الا خلسة كما لم يكن مباحاً لأي تاجر أن يستورد او يبيع آلات الطرب كالعود والكمان !.. ولكنه منذ عهد قريب جداً سمح بذلك ، ومحمد سهيل نفسه افتتح محلاً لبيع آلات الطرب في موطنه (الدمام) على الخليج وكان الناس من حوله يعجبون لهذا التحول الخطير !.. ولم تكن محطة الاذاعة السعودية تذيع شيئاً من الاغاني الغزلية ولكنها خرجت اخيراً على هذا الحجر ، واخذت تذيع بعض الاغاني الوجدانية الصرفة .

وقد كان المطرب محمد سهيل – ككل فنان – يبدو سعيداً بهذا الذي حدث في بلاده من افساح المجال للفنانين الحجازيين لكي يخرجوا من نطاق الحجر الذي

كان مفروضاً عليهم ليسهموا في اثراء الاغنية العربية بروافد جديدة من الحجاز الذي شهد مولد نهضة الغناء العربي في ازهى عصوره .

واسرع محمد الى الريكوردر ليسمعني اغانيه، وانطلق بي الخيال الى الحجاز وهو يشهد مولد النهضـة الغنائيـة في العهد الاموي ، وذكرت ، (معبد) و (الغريض) و (طويس) و (عزة الميلاء) و (سلامة) التي فتن بها العـالم الورع عبد الرحمن القس ، سحرته بشدوها الرائع واسرته بجمالها الفاتن وامتلأت بأحاديث حبها العف النقي شعاب مكة والمدينة وروتها كتب التـاريخ والسير كأروع مثال للحب العف .

قالوا عن قصة لقائها ، انه سمعها تغني على غير قصد منه لذلك ، وكان سائراً بالطريق فراقه صوتها الرخيم فتوقف ينصت .. واتفق ان رآه مولاها فدعـاه الى الدخول لسماعها او يخرجهـا له ، فأبى ذلك ولكن مولاها لم يزل بـه حتى أدخله واسمعه غناءها .. وطرب عبد الرحمن القس للغناء وشغف بسلامة وهام بها ، وشغفت هي به ايضاً .. ولكنه كان حباً طاهراً عفيفاً اذ كان عبد الرحمن من الذين ملأ الايمان قلوبهم — زعموا انها قالت له مرة : انا والله احبك ! قال: وانا والله احبك .. قالت : واحب ان اضع فمي على فمك ! قال : اني سمعت الله عز وجل يقول : (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) وانا اكره ان تكون خلة ما بيني وبينك تؤول الى عداوة يوم القيامة ! وودع وانصرف!... واخذ ينفس عن نفسه بشعر رقيق اودعه كل مشاعره الملتهبة ، كقوله :

أهابك ان أقول بذلت نفسي ولو اني أطيع القلب قـالا
حياء منك حتى سل جسمي وشق عليّ كتماني وطالا !

وذكروا انه عندما فارقها في ذلك اليوم الذي عرضت عليه نفسهـا وعصمه ايمانه من ان يقبلها استجابة لرغبتها انشأ ابياتاً من الشعر :

ان التي طرقتك بين ركائب ... تمشي بزهرها وانت حرام

لتصيد قلبك او جزاء مودة ... ان الرفيق له عليك ذمام

باتت تعللنا وتحسب انها ... في ذاك ايقاظ ونحن نيام

حتى اذا سطع الضياء لناظر ... فاذا بذلك بيننا احلام

قد كنت اعذل في السفاهة اهلها ... فاعجب لما تأتي به الايام

فاليوم اعذرهم وهم اعلم انما ... سبل الصلاة والهوى اقسام !

وذكرت وادي العقيق بالمدينة حيث مجتمع السمار من الشباب ، ومسرح شدو المغنين الذين كانت اصواتهم الحلوة الاسرة تهز المشاعر وتفتن الناس حتى صاروا منذ ذلك العهد البعيد اعلاماً شوامخ لا يذكر الشدو الرائع والغناء الذي يذيب القلوب الا ذكروا .

وقيل في تعليل استئثار الحجاز بنهضة الفن الغنائي والشعر الغزلي ان خلفاء بني امية أرادوا ان يصرفوا أهل الحجاز عن الخروج عليهم والتآمر على خلافتهم فوفروا لهم الثراء واطلقوا لهم عنان الطرب والمرح ليشغلوا بهذا عن خلافة بني امية وتوليهم الأمر دونهم .

وذكرت بجانب هؤلاء المغنين اولئك الشعراء الغزليين الذين كانوا يمدونهم بالشعر الغنائي الرقيق ، وفي اولهم عمر بن ابي ربيعة الذي لم يترك امرأة جميلة مهما كان قدرها ومكانة اسرتها الا شبب بها وتغزل في جمالها .. وكان يجري على السنة بعضهن حديثاً يصورهن كالمتهالكات عليه !.. وكان يتعرض للنساء الجميلات في موسم الحج فيستقبلهن ويودعهن ويقول في ذلك الشعر العذب الذي يردده الرواة حتى يبلغهن ، فترضى من ترضى ، وتثور من تثور ، ويتوعده من اهلهن من يتوعد ، وهو ماض في ذلك، ولم تسلم منه حرائر قريش ، وقد حدثوا انه تغزل في السيدة سكينة بنت الحسين ! وكانت بارعة الجمال ومن ذوات العلم والأدب ، وكانت تجلس الى الشعراء في عصرها وتستمع اليهم وتنقدهم ، ولعلها

صاحبة اول (صالون ادبي) على حد تعبير كتاب اليوم .. قال فيها عمر متغزلاً :

قالت (سكينة) والدموع ذوارف
منها على الخدين والجلباب
ليت المغيري[1] الذي لم اجزه
فيما أطال تصيدي وطلابي
كانت ترد لنا المنى ايامنا
اذ لا تلام على هوى وتصابي

الى ان يقول :

(أسكين) ما ماء الفرات وطيبه
مني على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وقد نأيت وقلما
ترعى النساء أمانة الغياب

وقد يكون كاذباً في هذا الذي حدث به عن سكينة ، ولكنه كان يعجب النساء ويفتنهن – والغواني يغرهن الثناء – وكان المغنون ينطلقون ويشدون به في مجتمعاتهم .

وقيل انه عندما مات عمر بن ابي ربيعة جزعت النساء على فقده ، جزعن على الشاعر الذي كان يصور مفاتنهن ويشدو بجمالهن – وخرجت جارية حسناء تولول جازعة ، وتقول في أسى ، ما معناه .. من للجمال بعدك يا عمر ! والتقى بها شاب فاستوقفها ليطمئنها بمولد شاعر جديد خليفة لعمر ، وهو عبدالله بن قيس الرقيات وقرأ عليها طرفاً من شعره الغزلي فابتسمت الفتاة ومسحت دموعها !

---

(١) المغيري : عمر بن ابي ربيعة .

وقد كان ابن سريج يغني الحجاز اذ اهل الحجيج في اليوم التالي من ايام منى على جمرة العقبة فيندفع ياخذ ينشد بشعر للشاعر الحجازي (العرجي) حفيد سيدنا عثمان بن عفان :

عوجي عليّ فسلمي جبر   فيم الصدود وانتم سفر ؟
ما نلتقي الا ثلاث منى   حتى يفرق بيننا النفر
الحول بعد الحول يتبعه   ما الدهر الا الحول والشهر

(فيقطع طريق الذاهب والجائي حتى تكسرت المحامل) !

الا ما أظرفكم وأرقكم يا أهل الحجاز !.. شعر (غزلي) لحفيد الخليفة عثمان بن عفان يغنيه ابن سريج في ثاني ايام منى فيلتف حوله الحجيج ويقطع الطريق فلا غاد ولا رائح حتى تتكسر المحامل ! صورة اهديها للمتزمتين ذوي القلوب المتحجرة !

وحدث الرواة فقالوا (اذا أعجزك ان تطرب القرشي ، فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن ابي ربيعه ، فانك ترقصه) !

ولقد رقص على غناء ابن سريج عالم من جلة العلماء ، ما زال اسمه خالداً بين اولئك الافذاذ الذين يهتدى بهم ، ذلكم هو عطاء بن ابي رباح ، قالوا : ان ابن سريج كان يجلس على شرفة داره عندما مر من أمامه عطاء وابن جريج ، فاقسم ان يقفا ويستمعا الى غنائه ، والا فأمرأته طالق . وحلف ان يترك الغناء ان هما نهياه عنه وزجراه فيه بعد سماع صوته ، فلم يمانعا ، ووقفا للاستماع ، فغناهما :

أخوتي لا تبعدوا أبداً   وبلى والله قد بعدوا !

فجعل عطاء يرقص ! ووقع ابن جريج على الارض !

ومن طرائف ما يروى انه ابن أبي عتيق (من ظرفاء ذلك العهد المعدودين

وصديق الشاعر الغزلي عمر بن أبي ربيعة : قالوا انـه صاح : أنا ذلك الشفيع - عندما سمع هذا البيت من قصيدة لابن أبي ربيعة عن الثريا :

من شفيعي الى الثريا فاني   ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

فسعى اليها متشفعاً ! وقالوا : ان هذا الفتى الظريف رأى خدشاً في حلق ابن عائشة (أحد المغنين المشهورين في ذلك الوقت) فسأله : من فعل به ذلك ؟ فأخبره . فمضى ابن عتيق وتربص بالرجل المذكور ، وخرج الرجل من داره فأمسك ابن عتيق بتلابيبه وأنشأ يضربه ضرباً مبرحاً والرجل يستغيث ويصيح: لم تضربني يا هذا ؟ ماذا فعلت ؟ .. وابن أبي عتيق لا يجيب حتى بلغ منه مبلغاً عظيماً ، وتركه وشأنه ! وأقبل على من حضر من الناس فقال لهم : ان هذا الرجل أراد أن يحطم مزامير داود ! فقد أمسك بعنق ابن عائشة وخدش حلقه وكاد يخنقه !.. وعنق ابن عائشة هو مزامير داود !

واخرجني محمد سهيل من هذه التأملات عن تاريخ الغناء في الحجاز ، لأسمع صوتـــه العذب الواضح النبرات ينبعث من (الريكوردر) يغني هذه الكلمات الرقيقة :

أبيض حلو يا زين   دوبت ليه قلبي
نورك بهر للعين   والشوق يلعب بي
عطشان إسقيني   من عطفك ارويني
نارك بتكويني   وما أدري إيش ذنبي
هجرتني وصديت   بالوعد مـا أوفيت
ما أعرف أنا إش سويت   يا خلي الطف بي
رميتني في النـــار   دلالك عليّ ثار
سبتني محتـار   حيران في حبي
عهدي أنا ما انساك   واقضي العمر وياك
واتهنى دوم برضاك   وتتهنى في قربي

وانتهت الاغنية ، فقلت له انكم لسعداء جداً معشر الفنانين في هذا العهد الذي تقدم فيه العلم وارتقى ، واستطاع أن يسجل الحان [illegible] للاجيال القادمة قصة اللحن والاغنية العربية في أطوارها المختلفة ، وترى أي [illegible] الفن لو أن لاقدار جعلت هـذا التقدم العلمي يحدث منذ قرون لنستمع اليوم الى الحان ابن الغريض ومعبـد والميلاء وابن سريج والموصلي ؟.. والى أولئك الذين قال عنهم التاريخ انهم استحدثوا في عالم الالحـان التي تعزف على الآلات الوترية ، انغامـاً تطرب المستمعين وتضحكهم ، ثم تشجيهم فتبكيهم ثم تخدرهم فتنيمهم ! ..أي مقدرة بل قل أي اعجاز فني ذهب بذهابهم دون ان يخلد من بعدهم ؟!

وأدار محمد سهيل (الريكوردر) ليسمعني أغنية عن وطنه الصغير — الدمام - اعجبني لحنها وكلماتهـا البسيطة التي تحمل حباً صادقاً عميقـاً لهذا الوطن الصغير الذي أهداه هذا الجمال الدافق الذي فتنه وسحره وغنى فيه :

سلام الله على الدمام	بلاد الأنس والاحلام
هواهـــا عليل	ومـــالو مثيل
على الاحـــلام	سلام الله على الدمــام
سلام ممزوج باليـاسمين	هدية لأهلهـا الحلوين
هدية فيهـا أشواقي	حرام البعد على المسكين
بشاطيهـا يطيب انسي	مع الاحبـاب بالانس
يمر يومي مثل أمسي	يا ريت الانس يدوم لسنين
تراني كيف أنساها	وقلبي دوام بيهواها
ولا يمكني اسلاهـا	ولو أعطيت بالملايين
بروابيهـا تشوف غزلان	بترعى من المروج الوان
تخلي العـاشق الولهان	بلهفة ينشد الحلوين

وكان غناؤه حقاً حلواً عذباً عذوبة هذه الكلمات لقد امتعني الفتى الحجازي الفنان بجلسة لطيفة مع أغاني بلاده ، وقد سألته ان كان يعرف شيئاً عن اغانينا

او سمع عنها ؟ ورأيت الحيرة بادية على اساريره وجهه فعنادوا ... المرة الاخرى يبرز امام سيل خلاقة فقد ذكره الفنان الحجازي وحده ؛ بعد جهد في التذكار

وفي الصباح التالي ودعت محمد سهيل وانا عائد الى السودان وليعود هو بعد ايام الى وطنه في الدمام ، وفي اعماق قلبي ذكرى طيبة للنشوة التي أمدنا بها ، ونحن الغريبان في فندق بحمدون بلبنان .

وما اكثر ما يمدنا به الفن من نشوة هي الزاد الذي نشق به زحام الحياة .

في الطريق بين بيروت وحلب

ازمعت السفر الى حلب لأرى الجانب الشمالي من سوريا بعد ان طفت بقسمها الجنوبي حتى الاردن فالقدس.

ومن بيروت بدأت الرحلة الى حلب ، فوصلتها بعد سبع ساعات بسيارة تاكسي صغيرة تحمل خمسة اشخاص وتسير بسرعة تتجاوز المائة كيلومتر في اكثر الاحايين ، وقد قيض الله لي في هذه الرحلة رفيقاً من بلادي هو الاستاذ بابكر عبد الرحمن من رجال التعليم عندنا فطابت الرحلة برفقته .

وحلب هي المدينة الثانية في سورية اذا اخذنا في الاعتبار ان دمشق المدينة الاولى لانها عاصمة البلاد ، الا ان حلب تفوقها عمراناً وتعداد سكان وثروة .

ولكن تسهيلا للقارئ سأقفز به من بيروت الى حلب في لحظات ، وفي الطريق مشاهد كثيرة انستنا مشقة الانتقال وعناء التنقل ، فلنقف عند بعضها قليلا قبل ان نبلغ حلب ..

اتجهنا من بيروت صوب الحدود اللبنانية السورية في الجزء الجنوبي من سورية وقبل ان نبلغ هذه الحدود ، اهدتنا لبنان كالعهد بها سحرها الخلاب ممثلاً في جبالها الشم الحافلة بكل الوان الحياة من قرى ومدن ومزارع وحدائق ، تقع

كلها على يمين طريقنا ، وعن شماله يمتد البحر الابيض المتوسط تصطفق امواجه وتنساب عليه قوارب الصيادين ، او السفن الضخمة ، في طريقها الى الموانىء المختلفة .

ووقفنا قليلاً عند قرية لبنانية لطيفة اسمها « القلمون » لنشاهد فيها عملية استخراج الملح على شواطئها التي فاضت بمئات الاحواض وعلى كل حوض ركبت مروحة تدور بالهواء لجذب الماء للحوض ، وكان منظر هذه المراوح الهوائية التي يبلغ تعدادها المئات تدور كلها بفعل الهواء دوراناً طريفاً وممتعاً .

وتفاجئنا هناك حقيقة تاريخية كم طربنا لها انا وزميلي الاستاذ بابكر ، فقد عرفنا ان قرية القلمون هذه هي موطن المغفور له الاستاذ العظيم محمد رشيد رضا أحد الاعلام الثلاثة الذين كان لهم فضل في تجديد الاسلام ودفع المسلمين للتحرر من الاستعمار ، جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة ومحمد رشيد رضا الذي كان اليد اليمنى لمحمد عبده ، وقد أصدر محمد رشيد رضا مجلة المنار التي كانت بحق مناراً هادياً للعرب والمسلمين ومدرسة للثقافة العربية الاسلامية ، ثم واصل جهود رفيقه وصديقه الامام محمد عبده في تفسير القرآن . ويعتبر تفسير محمد رشيد رضا للقرآن ، والذي طبع باسم « تفسير المنار » ذخيرة اسلامية جليلة النفع .

وقد عثرت على مجموعة مجلته المنار في مكتبة المعهد العلمي بأم درمان في عدة مجلدات تشهد بجدة افكاره وتنطق بمدى جهوده للنهوض بالاسلام وتشذيبه من الشوائب التي علقت به واستنهاض المسلمين ليستردوا عزتهم ويكونوا أصحاب الكلمة العليا في ارضهم .

وفي القلمون اشاروا الى دار اسرة الاستاذ العظيم محمد رشيد رضا فتطلعنا اليها وترحمنا عليه واحتفت مشاعرنا بذكراه .

في طرابلس :

ومنها قصدنا مدينة طرابلس التي يسمونها اهل لبنان الشام تمييزاً لها عن طرابلس شمال افريقيا ، وهي مدينة كبيرة آهلة بالعمران تقوم فيها عمارات حديثة ، كما تشهد في بعض احيائها دوراً على النمط القديم .

وقد اجتاح المدينة منذ سنوات سيل عرم ، وكانت الامطار تهطل غزيرة عندما داهمها السيل، فكانت كارثة لم يشهد لها لبنان مثيلاً، سقطت مئات الدور ومات عدد كبير من الرجال والنساء والاطفال وبادت اسر كاملة ، سقطت عليها المنازل ، وقد كان لهطول الامطار عند حلول كارثة السيل اثر كبير في ضخامة عدد الضحايا اذ كان الناس داخل بيوتهم يحتمون بها من الامطار وما كانوا يحسبون ان سيلاً كاسحاً في طريقه اليهم حتى حلت الكارثة .

وان كان السيل قد اصاب طرابلس في دورها وأهلها فقد اتاح الفرصة لتخطيط جديد وبناء جديد جعل المدينة اليوم في خير حالاتها مظهراً لمشاهديها.

وغادرنا طرابلس بعد جولة في سوقها العامرة بالناس وبما يشترى ويباع ، وزورة لبعض احيائها الجديدة ذات المباني الضخمة ، ولبعض احيائها التي ما تزال تحتفظ بالتراث القديم واكثرها يقع على مرتفعات جبلية .

وقبل ان نغادر طرابلس وقفنا عند التمثال الذي اقيم في اهم شارع بالمدينة للمجاهد الكبير عبد الحميد كرامي الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء في اوائل عهد استقلال لبنان وهو من الرعيل الاول الذي جاهد وضحى في سبيل حرية لبنان ، جيل بشارة الخوري ، ورياض الصلح وسليم تقلا وغيرهم ممن يعتز بهم تاريخ لبنان الحديث .

وعبد الحميد كرامي من ابناء هذه المدينة العريقة – طرابلس – ومن حقها

ان تفخر به وان تقيم له هذا التمثال الضخم لذكراه .

واتجهنا صوب حدود لبنان - سوريا وتلقينا على طول الطريق المزارع الواسعة وحدائق الفاكهة المنوعة تحف بجانبي الطريق ، ويتخلل هذه المزارع والحدائق العديد من الانهار الصغيرة المنحدرة من الجبال العالية لتضاعف من الجمال والجلال .

ان هذه الخضرة والنضرة والانهار المتدفقة هي طابع هذا الطريق منذ ان غادرنا بيروت حتى بلغنا حلب وقد ذكرت وانا اقطع هذا الطريق المونق ما احسست به من وحشة وانا اعبر الطريق من دمشق حتى الاردن فالقدس جنوب سوريا ، فقد كانت تطالعنا في اكثر جوانب الطريق الجبال الجرداء الموحشة وقليل من المزارع والحدائق

لاجئون :

وقبل ان نبلغ حدود لبنان لنعبرها الى سوريا ، والطريق فاتن المناظر كما وصفت ، والنشوة تغمرنا ، اذ واجهتنا على جانبي الطريق دور صغيرة متواضعة عرفنا أنها دور العرب اللاجئين الذين آواهم لبنان . ان رؤية هؤلاء اللاجئين تفجر القلوب المتحجرة اشفاقاً وعطفاً .

قالوا لنا ان نصيب لبنان من هؤلاء اللاجئين مائة الف وعشرة آلاف ، ولكنهم الآن يبلغون المائة والسبعين الفاً اذ تسلل اليها نحو الستين الف لاجيء وقد منحهم لبنان فرص العمل في سخاء ، وبعضهم ممن لا يبلغ دخلهم المستوى الذي يمكنهم من العيش يجدون اعانة من هيئة الاغاثة التابعة لهيئة الامم المتحدة ولكنهم مهما منحوا من فرص العمل واطعموا وسقوا .. ايكون هـذا بديلا عن الوطن والدار ؟

ووصلنا قرية العبودية حيث مباني جمارك لبنان تشهد بانتهاء حدودها ، ولم يطل وقوفنا بها فقد اتخذت الاجراءات بسرعة يحمد عليها الموظفون - وعلى بعد ثلثمائة متر تقريباً من هذا المكان تراءت لنا مباني جمارك سورية تشهد بابتداء حدودها ، وبين الموقعين يجري النهر الكبير كفاصل طبيعي بين حدود البلدين ، وقطعنا الجسر المقام على النهر الكبير ووقفنا امام مباني الجمارك السورية لتتخذ الاجراءات اللازمة .

وعلى واجهات كل مباني الجمارك والمخافر في اراضي سورية كلها اجتزناها كنت اقرأ لافتات رسمية ضخمة تحمل الشعارات الآتية : (امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وفي موضع آخر أحد الكلمات الثلاث الآتية : « وحدة — حرية — اشتراكية » وبينما كان موظفو جمارك سورية يفحصون هوياتنا .. كنت اقف عند هذه اللافتات التي لا تخلو منها واجهة مبنى في ذلك المكان .

وحسبنا بعد ان اجتزنا الجمارك السورية اننا خلفنا لبنان وراءنا وبدأنا رحلتنا في ارض سورية خالصة — ولكننا كنا واهمين — فبعد ان قطعت بنا السيارة نحو خمسة عشر كيلومتراً ، اجتزنا فيها جانباً من سهل البقيعة بمائه المتدفق ومزارعه الخضراء وقراه التي تمثل الريف السوري بكل مظاهره الرجال والنساء بأزيائهم الوطنية يعملون في الزرع او يسوقون امامهم ماشيتهم من بقر او غنم . في هذا المكان الطيب تراءى لنا علم لبنان امامنا يخفق عالياً على بعض المباني . وقال سائق سيارتنا هنا مخفر لبناني ومكتب الجمارك علينا ان نقف عندها ايضاً .. واخذتنا كل الدهشة واخذنا نتساءل عن سر وجود مخفر وجمارك لبنانيين بعد ان دخلنا ارض سوريا واجتزنا جمارك لبنان في

وهنا اطل علينا الاستعمار بوجهه البشع الذي عرف به في كل مكان اصيب بشره .. فعندما كان الفرنسيون يستعمرون هـــذه الارض تفتقت اذهانهم عن اساليب ماكرة — عهدناها في كل المستعمرين لايجـــاد مشاكل الحدود في المستقبل بين كل بلدين متجاورين فاقتطعوا جزءاً من هذه الارض بعد ابتداء حدود سوريا — ثم اتبعوها لبنان ووصلوها بطريق خاص عـــبر طرابلس لا يسلكه غير اهل لبنان وحدهم ، امـــا غيرهم فعليهم ان يسلكوا هذا الطريق الذي عبرناه ، ليشهدوا ارضاً لبنانية داخل الحدود السورية ، وليقفوا على مخفر لبناني يقع خلف مخفر سوريا !

وضع فريد لم اشهده من قبل ولم اسمع بـــه ، ولا ادري ان كان من بين القراء من شهد او سمع له مثيلاً .. ومن اقدر من الاستعمار على خلق المستحيلات ؟!

ومرة رابعـــة نقدم جوازات السفر للمخفر اللبناني الثاني ، وليت الموقف انتهى عند هذا الحد ، فقد واجهنا بعـــد قليل المخفر السوري الذي يعلن عن ابتداء دخولنا في ارض سورية من جديد !

وتنفسنا الصعداء بعد ان اجتزناه ، وانطلقت السيارة بسرعة جنونية كأن السائق اراد ان ينتقم للوقت الذي اضاعه بـــين هذه المخافر والجمارك المتعددة المتداخلة في مسافة لا تتجاوز العشرين كيلومتراً .

واراد الله أن يعوضنا خيراً اذ امتدت امامنا منـــاظر متنوعة ساحرة في ارض سندسية منبسطة تشقها الانهار الصغيرة ، الى هضاب وجبال تكسوهـــا النباتات والاشجار ، الى وهاد تبهر .. والقرى الصغيرة تتناثر خلال هـــذه المشاهد .. وشد ما راعتني الاحياء البدوية في هـــذا الطريق .. بيوت الشعر كما الفتها في بلادي وكنت قد رأيت اول حي بدوي في سهل البقاع — كما ذكرت — وانا في طريقي الى بعلبك ثم تكرر المنظر بين دمشق والاردن ، وها هو يتجدد

(الطريق الى حلب .. نفس بيوت الشعر التي نشاهدها في بوادي السودان .

الى حمص :

وعن يمين الطريق ونحن نقترب من مدينـــة « حمص » يهتف بنا السائق ان نمتع انفسنا بمشاهدة بحيرة « قطانية » عند المدينة الصغيرة الـــتي تحمل نفس الاسم « قطانية » والبحيرة واسعة رائعة ، قيل ان ماءها عذب وبها سمك وفير .

واقتربنا من « حمص » وان الطريق ليزداد فتنة كلما اقتربنا منهـــا ، فالبساتين المورقة المثمرة تتعــانق في غــير افتراق ، والمزارع الخضر تتلاصق تلاصق المحبين .. ونهر العاصي الذي يعد من اطول الانهار وأهمها ، والذي ينبع من جبال لبنان الشاهقة قرب بعلبك وينحدر الى هذا الجانب من ارض سورية. يلقانا مسرعاً نحو حمص كأن بـــه لوعة مشتاق ليهب الخصب والنماء لأرضها الطيبة .. وكدنا نفتقد وجه الارض فلا نراه ونحن نقترب من حمص فقد غطت عليه الخضرة الاسرة التي تعلوه .

ودخلنا حمص، المدينة الجميلة حقاً ، وقد خلب اللب مظهرها وكنت أتوهمها من قبل مدينة صغيرة ، وكان اول حي بلغناه « حي المحطة » ويسكنه اولئك الذين وهبهم الله بسطة في الرزق ، يتحدث عنها تطاول البناء في هـــذا الحي والشوارع الواسعة المنارة بأحدث فنون الاضاءة ، وعلى جانبها أشجار عالـية وميادين حفلت بكل ما هو مزهر مونق .

ونتقدم الى سوقهــا العظيم فيشوقنا بحسن مبانيه وروعة تنسيقه وبالميــادين الجميلة التي تتخلل شوارعه التي غطيت كلها بالاسفلت .

وجاء في خاطري وأنا أمعن النظر في كل جانب أمر به من مدينة حمص ، ذكر شاعر العربيــة أبي الطيب المتنبي ، وقــد جاء في تاريخه ادعاؤه للنبوة وهو في بادية السماوة بالعراق ، وعـلم بذلك امــير حمص في ذلك العهــد واسمه « لؤلؤ » فخرج الى أبي الطيب وظفر به ، وجاء بــه الى حمص ولقي بــه في السجن .

فتذل كبرياء أبي الطيب ، ولا يطيق السجن فيتشفع الى أمــير حمص بشعر يتنصل فيه مــا اتهم بــه من ادعاء للنبوة ، ويتزلف اليــه ويضع نفسه موضع الارقاء من الامير فهو « مالك رقــه ، وواهب اللجين ، وعتق العبيد » ويتوسل اليــه أن يطلق سراحه ليعيش في محفل الناس بعــد أن جعــله السجن يعيش في محفل من القرود ، ويعــني بذلك السجنــاء الذين يحيــا بينهم ، فهو يقول :

أمالكَ رقّي ، ومن شأنه … هبــات اللجين وعتق العبيــد
دعوتك عنــد انقطاع الرجاء … والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لمــا براني البــلاء … وأوهن رجلي ثقــل الحديــد
وقــد كان مشيهما في النعــال … وقــد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل … فها أنا في محفل من قرود !

حمص تمتد أمامي في رونق لم يعهــده أبو الطيب ولا أميرها لؤلؤ ، ولكنها ما تزال في مكانها كما عهدها الامير والشاعر المستغيث به ، وكأني بأبي الطيب وقد قبل الأمير تشفعه وأثر فيه شعره الذي تبرأ فيه مــا نسب اليــه من ادعاء النبوة – صادقــاً في هــذا أم مخادعاً – كأني به قــد تهلل فرحاً وانطلق بعدها في تلك الآفاق الــتي خلدته في تاريخ الادب العربي .. ترى أي كنز كانت تفقده لغة العرب لو ان أمير حمص قضى عــلى أبي الطيب في سجنه !؟.

ولكن .. مالي أتحدث عن أمير حمص وأبي الطيب ؟ وفي حمص يرقد سيف الله خالد بن الوليد .. أيجوز أن نطوف بحمص ونتحدث عنها قبل أن نسرع لنحيي جدث البطل الذي اعتز به النبي وأطلق عليه « سيف الله » ؟..
فإلى أبي عبد الرحمن في مرقده ...

ما كنا في حاجة لنسأل أحداً عن المكان الذي يضم جدث سيف الله خالد بن الوليد ، فسائق سيارتنا وكل النـــاس هناك يعرفون أين وسد الثري بطل الاسلام ، فقد كرمه المسلمون ببناء مسجد على ضريحه يعـد من أفخم وأروع المساجد الاسلامية في سورية .

وقفت بنا السيارة على جانب من شارع واسع ، لعله من أهم وأجمل شوارع حمص ،وقد أطلقوا عليه اسم خالد بن الوليد ، والشارع يخترق حياً جميلاً سمي أيضاً باسم خالد ، ووقفنا برهة نتطلع الى ما حولنـــا قبل ان تتحرك صوب المسجد .

أمامنا المسجد العظيم ذو القباب الثماني تتوسطها قبة عالية خضراء ، تجاوزها مئذنتان عاليتان رائعتان – ومن الشارع المسفلت حتى المسجد، غطيت الارض ببلاط أبيض ، وقرب المسجد ارتفعت مسلة عالية على قاعدة مربعة كان يجلس عليها بعض الناس – والى جانب المسجد حديقة مونقة على واجهتها تمثال لأسد ضخم يمج الماء من فمه ليسقي الحديقة ..

كانت زيارتنا في يوم جمعة ، ولهذا كان الميدان الواقع أمام المسجد مكتظاً

بعدد غير قليل من الرجال والنساء والاطفال يجرون هنا وهناك في صخب ومرح فيملأون الميدان حيوية فائضة .

واتجهت الابصار نحونا — انا ورفيقي الاستاذ بابكر عبد الرحمن وقد استهواهم زينا الغريب غير المألوف لديهم ووجوهنا السمراء ، بجانب التخديد (الشلوخ) التي ارتسمت على صفحتي وجه بابكر !.. وسرعان مـا دفعهم الفضول نحونا ، وفي لحظات وجدنا انفسنا وسط حلقة ضخمة من الناس اخذ عددهـــا يتزايد عندما بدأنا نجيب على اسئلتهم عن السودان الذي كانوا يجهلونه جهلاً تاماً .

وكاد النـاس الذين طوقونا — ونحن نتحدث اليهم عن بلادنا وهم يتكاثرون من حولنا ويتدافعون ليروا هذه السحنات الغريبة تتحدث العربية بطلاقــة عن بلد اسمه السودان ! كاد هؤلاء النـاس ان يحولوا بيننـا وبين التحرك نحو مسجد خالد لولا ان اعتذرنا لهم ، وحثثنا الخطى لنملأ جوانحنا من جو خالد العطر ..

وقبل ان نلج المسجد ، وقفنا عند المسلة العالية على القاعدة المربعة الضخمة واذ في اعلاها قد كتب بحروف كبيرة قولة خالد المشهورة عندما حضرته الوفاة ، وكان نصها ، كما سجل في أعلى المسلة هكذا :

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف ، او رمية بسهم ، او طعنة برمح وهأنذا أموت على فراشي حتف انفي فلا نامت اعين الجبناء » !..

واتجهنا من هذه المسلة الى المسجد ، وولجناه لنجد امامنا بهواً واسعاً تتوسطه نافورة مـاء ضخمة ، وعلى جوانب البهو غرف عديدة تمتد امامها (برندات) على اعمدة لطيفة ، وعرفنا ان هـــذه الغرف هي مقر اساتذة « المعهد العلمي الشرعي لجمعية العلماء » .. وفي الجانب الشرقي — لصق المسجد — تراصت غرف عديدة جميلة المنظر عرفنا انها المعهد العلمي حيث يدرس الطلاب .. وما أحسن

هذا الذي فعله أهل حمص ، ان
يقيموا معهداً دينياً لصق مسجد
خالد ، يدرس فيه ابناؤهم علوم
الدين وان تأتلف حـوله جمعية
العلماء .

ويفضي بنا المعهد العلمي الى
داخل مسجد خالد فيبهرنا مرآه
من الداخل اضعاف ما بهرنا مرآه
من الخارج ، ونجيل ابصارنا في
كل جوانبـــه وارضه وسقفه
المزخرف المحلى بالنجف النادر ،
فلا تقع العين الا على كل ما يفتن
ويخلب الالبـــاب – ونؤدي
التحية في خشوع – ثم نتقـدم
الى ضريح سيف الله الذي يقوم
في الجانب الغربي داخل المسجد،
وتغوص ارجلنا في السجاد الفاخر الذي فرش به المسجد كله ..

السلام عليك سيف الاسلام !. جهرنا بالتحية والاجلال يمـلأ قلوبنا ، وتلونا الفاتحة ، وأجلنا النظر في الضريح الفخم الذي يرقد تحته جدث خالد بن الوليد.

الضريح آية في الروعة ، يبلغ ارتفاعه نحو الاربعـة امتار بنيت قاعدته من الرخام الابيض ، واحيط باسلاك دقيقة من النحاس والفضة ، تعلوه قبة حليت بزخرفـة فنية لا يحيد عنها النظر لفرط روعتها ، والضريح من الخشب الممتاز عليه نقوش وزخرفة لا تقل روعة عن تلك التي حليت بها القبة ، وتعلو التابوت

الذي يضم [illegible] البطل قماشة ابيض من الجوخ المطرز . وتتدلى على التابوت قناديل مختلفة الاحجام والاشكال تضيء القبر ليلاً ، يتوسطها قنديل كعنقود العنب لا يخبو ضوؤه ليلاً او نهاراً .

وعلى واجهة الضريح باب حديدي مزخرف تعلوه لوحـــة سوداء كتب في اعلاها « سلام عليكم بمـــا صبرتم فنعم عقبى الدار » ، وفوق هذه اللوحة لوحة رخامية لطيفة كتبت عليها الآية (وانك لعلى خلق العظيم) تحت هـــذا لوحة ثالثـة كبيرة سجلت عليها الاحاديث النبوية باسانيدها عن خالد ، مثل « خالد ابن الوليد سيف من سيوف الله » و (خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين) و « خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة » و (خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله) .

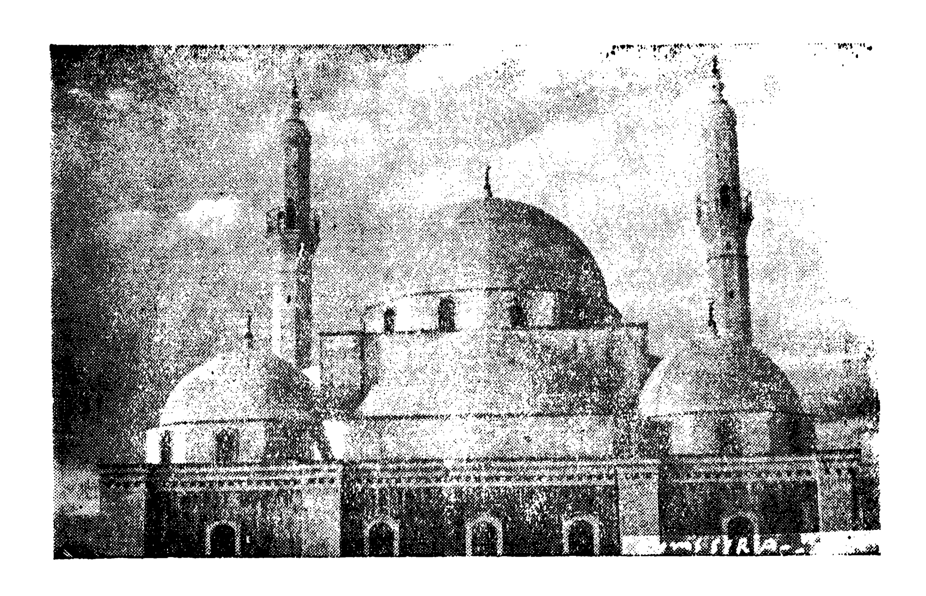
عبقرية حربية

حقاً ، لقد اجمـــع المؤرخون على عبقرية خالد الحربية وشجاعته الفذة ، فقالوا انه اول قائد حربي في العالم نظم الهجوم الخاطف ، وبلغت شجاعته حد الاعجاز حتى خافه وتحاماه الفرسان في كل معركة خاضها .

وأمام قبر خالد تداعت في خواطري معان عديدة، وتزاحمت صور بطولاته في مخيلتي حتى كادت تتجسد ماثلة امام القبر .

تذكرته وهو في العراق يقود جيش المسلمين من نصر الى نصر حتى جاءتـــه رسالة سيدنا ابي بكر ، ان يلحق بجيش المسلمين في الشام – اليرموك – وقد استنجدوا بأبي بكر لما رأوا كثرة جيوش الروم التي تحيط بهم ، فرأى بمشورة اصحابه ان ينفذ اليهم سيف الله من العراق ليتحقق به النصر .

فاستخلف خالد على من ترك من الجيش بالعراق المثنى بن حارثـــة الشيباني



مسجد خالد بن الوليد بحمص وداخله الضريح

بطل العراق كما نعت بحق ، ولم يسلك خالد الطريق الطبيعي بين العراق والشام، بل سلك طريقاً صحراوياً غير مطروق ليقوم بحركة التفـــاف من خلف جيوش الروم وليصل الى جيش المسلمين في اقصر زمن ، قالوا : انه جمع الادلاء وقــال لهم « كيف لي بطريق اخرج فيه من وراء جموع الروم ؟ فإنني ان استقبلتهـا حبستني عن غياث المسلمين » ؟.. فدل على شيخ كبير ارمد العينين اسمه رافع بن عمير الطائي ، فحدث خالداً عن مخـاطر هذا الطريق الصحراوي غير المطروق وعن فقدان الماء فيه ، ولكن خالداً يزداد اصراراً . فعمد الى الابل واختزن في بطونها الماء وحمله على ظهورها ، وركب وفرسانه الخيل ، وكانوا ينحرون الابل ويشقون بطونها ليسقوا الخيل منها .

ان هذه المفازة التي سلكها خالد هي التي تسلكها السيارات اليوم بين دمشق

وبغداد ويقدر طولها بنحو ثمانمائة وستين كيلو متراً تقطعها السيارات في نحو العشرين ساعة ، قطعها خالد بالخيل والجمال في خمسة ايام فاجأ بعدهـــا الروم في معركة اليرموك وانتصر عليهم !.

كان هـذا – على اشهر الأقوال – في شهر ربيع الآخر أو جمـــادى الاولى سنة ثلاث عشرة للهجرة ، وهذه الواقعة التي انتصر فيهـا المسلمون كانت بمثابة قاصمـــة الظهر لعهد الحكم الروماني المسيحي في كل بلاد الشام ، وكان عدد المسلمين فيها نحواً من اربعة وعشرين الفاً وقدر عدد جيوش الروم بنحو المـائتي الف ! .

وكان من أهم عوامل النصر توحيد خالد لقيادة الجيوش الاسلامية التي كانت تحت امرة عدة من القواد كأبي عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، فارتضوا جميعهم خالداً قائداً للمعركة – وكان ولده عبد الرحمن من قواد هذه المعركة التاريخية وهو في الثامنة عشرة من عمره ! – وهأنذا أرى قبر عبدالرحمن هناك في الجانب الآخر من المسجد ولهذا حديث فيما بعد .

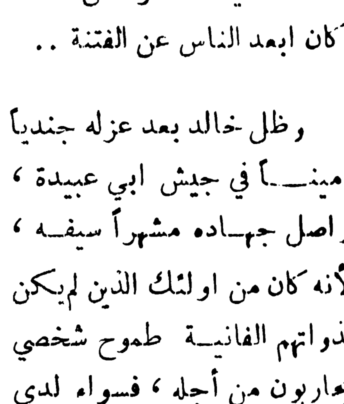
في المعارك الخلقية :

لم يكن خالد بطلاً مظفراً في المعارك الحربية وحدها بل كان بطلاً رائـــع البطولة في مواقفه الاخلاقية ، فقد مات الخليفـة ابو بكر وجيوش الاسلام في مستهل فتوحاتها للشام ، وخالد يقودها بعد ان استدعـاه أبو بكر من العراق ليلحق جند الاسلام في اليرموك ، وما كاد سيدنا عمر يتولى الخلافـة حتى بعث برسالة الى ابي عبيدة عامر بن الجراح يوليه فيها قيـــادة الجيش ويعزل خالداً عنها ، وقد اختلف المؤرخون أكان ذلك في معركة اليرموك أم في دمشق – بعد اليرموك – ؟. والمرجح انها كانت عند فتح دمشق . وكانت مفاجأة تلقاهـــا خالد بخلق عال سمح .



قبر خالد بن الوليد داخل المسجد

وقد اختلف الرواة في دوافع عمر لعزل خالد عن قيادة جيش الشام ، وحدثوا انــه عندمـــا استدعى خالداً المدينة قال له : « ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن الناس بك فخفت ان تفتن الناس » !... « خشي عمر من ان تحدث خالد نفسه بشيء يشق عصا المسلمين » .. ولكن خالداً كان ابعد الناس عن الفتنة ..



وظل خالد بعد عزله جندياً امينـــاً في جيش ابي عبيدة ، واصل جهـــاده مشهراً سيفـــه ، لأنه كان من اولئك الذين لم يكن لذواتهم الفانيـــة طموح شخصي يحاربون من أجله ، فسواء لدى خالد أن يحارب وهو قائد ، أو يحارب وهو جندي عادي ما دامت حربه في سبيل انتصار كلمة الحق التي اعتقدها وآمن بها .

وليس أدل على هذا من ان خالداً ما كاد يسمع نبــأ عزله وتولية أبي عبيدة أميراً مكانه ، حتى تحدث ممجداً أبا عبيدة مثنياً عليه وقال :

« بعث عليكم امين هـــذه الأمـــة .. سمعت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يقول » ويرد عليه ابو عبيدة في خلق هو من نفحات النبوة ، فيقول : « سمعت رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى

العشيرة » .

أيمكن أن يكون مثل هذا الخلق الرفيع في مثل هذه المواقف الا عند هؤلاء الرجال الذين لا تهتز عقيدتهم لما ينال ذواتهم من خير أو شر !.

وموقف آخر يتجلى فيه سمو خلقـه ، فقد أمر سيدنا عمر بعض كبار الصحابة ان يسألوا خالداً عن الهبات التي كان يهبهـا لبعض الشعراء ، أهي من ماله ؟ أم من مال المسلمين ؟

فاجتمعوا به ، كان بينهم أبو عبيدة ، وبلال بن رباح .. وأخـذ أبو عبيدة يسأل خالداً عن تلك الهبات ، أهي من ماله أم من مـال المسلمين ؟.. ويعرض خالد عن الاجابة ويظل صامتاً ! .

وهنا يثب اليه بلال بن رباح المولى الحبشي، ويتناول عمامة خالد وينقضها ، ويأخذ يعقله بها وخالد ينظر اليه ، لا يمنعه ولا يحول بينه وما كان يفعل بـه . ويسأله بلال بعد ان عقله بالعمامة .. قل لنا ؟.. أمن مالك أم من مال المسلمين؟! وعند ذاك اجاب خالد : بل من مالي !.. وهنا عـاد بلال يطلق عقال خالد ، ثم صار يعممه بيديـه ويقول له معتذراً : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا » !

ماذا تقدم لنا هذه الصورة الرائعة من مثل عليا حرص عليها أولئك الرجال الافذاذ !؟.. فسيدنا عمر بن الخطاب يشك ان كان خالد يهب الشعراء من ماله أو من مال المسلمين ، فـلا يتردد في محاسبته ، ويكون له لجنة محاسبة ، أو كما نقول اليوم « لجنة تحقيق » من خيرة الصحابة يختار من بينهم بلالاً الذي كان الى مـا قبل الاسلام عبداً مستضعفاً ، ولكنه اليوم بفضل الاسلام يجلس مع ابي عبيده ليحاسب خالداً بن الوليد بن المغيرة ، الذي كانت تتحاكم اليـه قريش وتدعوه ريحانتها لانه كان يعدل قريشاً كلها وحده في كسوة الكعبة ، فيكسوها

وخالد رجل العقيدة السمح النفس لا يثور ولا يغضب بل يجلس راضياً بين من اختارهم الخليفة لمحاسبته ، ويرتفع ويسمو في خلقه وهو يرى بلالاً على ضعف منبته على مفهوم العرب آنذاك ينتزع عمامته ويعقله بها ثم يستجوبه !.. ولا يضن عليه خالد بالجواب الذي ضن به على أبي عبيدة .. فيقول : بـــل من مالي !.. ولا يزيد على هذا شيئاً ، ولا يطلب المستجوبون مزيداً فهم يعرفون ان خالداً لا يكذب .. ويعتذر بلال .. وخالد هادىء النفس في كل هذا ، فمن حق الخليفة ان يحاسبه وهو القيم على مال المسلمين ، ومن حق هؤلاء الذين اختارهم الخليفة لمحاسبته ان يستجوبوه حتى ولو بلغ الامر ما فعل بلال !..

لقد احسن اولئك الذين كتبوا على لوحة في أعلا الضريح « وانك لعلى خلق عظيم » !.

وخالد ينتمي الى بيت مجد في الذؤابة من قريش ، فهو من بني مخزوم فرع من قريش ، وكان بنو مخزوم وبنو هاشم يتزاحمان في الفضائل والسؤدد حـــتى اختار الله رسوله محمداً من بني هاشم ، فقال رجال مخزوم لبني هاشم : « .. فلما أطعمنا الطعام واطعمتم ، وازدحمت الركب ، واستقبلنا المجد كفرسي رهان ، قلتم منا نبي » ؟!

وفي سنة احدى وعشرين – وفي خلافة سيدنا عمر – وفي هـذه البقعة من الارض – حمص – اسلم البطل روحه الطاهرة الى بارئها ، وكان آخر ما فعله ان ارسل فرسه وسلاحه الى عمر وقفـاً للجهاد في سبيل الرسالة الـتي وهب لهـا حياته ؟

واجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه ، وبلغ ذلـك عمر فقال : « ماعليهن يبكين أبا سليمان » ! وقيل انـــه لم تبق امرأة من بني المغيرة الا وجزت لمتها

وحلقت رأسها حزناً عليه !.

واجلت بصري في ضريح البطل وقد مضت القرون وتتالت وهو مـا يزال حياً في التاريخ ، وان كان هذا الضريح الفخم ذو الاربعة امتار قد ضم جدثه ، فان ذكراه هي وسع الدنيا كلها لا يحدها مكان ولا زمان .



ذكرتهم منذ حمص

واتجهنا الى ركن آخر من مسجد خالد ووقفنا عند قبر عليه بناء صغير انيق قيل انه يضم جثمان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فترحمنا عليه ، وهتفنا : ان هذا الشبل من ذاك الاسد ، رأيناه وهو دون العشرين يقاتل في صفوف المسلمين في موقعة اليرموك التي قادها ابوه .. وتمثلناه على حداثته يعهد اليه بقيادة فرقة اسلامية يغزو بها آسيا الصغرى ..

وولاه معاوية بن ابي سفيان في عهده على حمص .. وقال كتاب التاريخ عن عبد الرحمن انه كان مشهوراً بالشجاعة والكرم ، وهما صفتان متلازمتان . وكان معاوية يحب عبد الرحمن هذا ويؤثره ، فلما مرض ارسل معاوية اليه طبيبه الخاص من دمشق الى حمص .. الا أن الطبيب لا يستطيع أن يرد القدر فمات عبد الرحمن ، وقتل الطبيب !.

ومن العجيب ان بعض المؤرخين يذكرون ان اتهاماً الصق بمعاوية بانه قتل عبد الرحمن عن طريق طبيبه الخاص الذي اوفده لعلاجه بعد ان رأى محبة الناس له وتجمعهم حوله.. ولعل من بواعث هذا الاتهام ان أحد اصهار عبدالرحمن لم يحتمل صدمة موته ، فوثب على طبيب معاوية - وقد شك فيه - فقتله انتقاماً !.

وقضينا فترة نتأمل المسجد الفخم ، وندور حول أعمدته الرخامية ، ومحرابه الرائع ، والقناديل المختلفة التي تتدلى من سقفه المزخرف ، وأرجلنا تغوص في طنافسه التي تعد من افخر السجاد ..

وعدت الى ضريح خالد لألقي عليه النظرة الاخيرة وأودعه ، وخرجنا من المسجد الى الميدان الذي ما زال مكتظاً بالناس ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، ومرة اخرى يتحلقون حولنا ليسمعوا عن بلادنا ، ما لا علم لهم به .. وأتركهم لزميلي الاستاذ بابكر ، يجيب على اسئلتهم ، ويشبع فضولهم في التعرف بنا وببلادنا . وحثثت الخطى لأعبر شارع خالد وأتطلع الى الحي الأنيق – حي خالد – وقد أرخى الليل سدوله ، الا أن حمص بدت لنا قطعة من النور ، كأن الشمس ما تزال مشرقة ، وأضواء السيارات الكاشفة وهي تغدو وتروح تزيد من روعة الأضواء في المدينة ..

وسرت وئيداً أتأمل الدور الجميلة ، ذات الطابق الواحد ، والطوابق العديدة ، والطقس يميل الى البرودة – فذكرت عدداً من الشعراء عاشوا في هذه المدينة الجميلة ، بعضهم جاءها زائراً عابراً ، وبعضهم من ابنائها عاش فيها واستلهمها روائعه .. وكان في مقدمة هؤلاء ، شاعر غزل ، اشتهر باللهو والمجون والشراب ، اسمه عبد السلام ابن رغبان ، اشتهر بكنيته « ديك الجن الحمصي » نسبة الى حمص هذه .. لم يشتهر كشاعر مبدع فحسب ، بل كانت في حياته قصة حب من لون فريد ، لا اعتقد ان لها مثيلاً فيما روى الرواة ..

قالوا : كان له جارية وغلام قد بلغا من الحسن اعلى الدرجات وكان مشغوفاً بحبها غاية الشغف ، فوجدهما في بعض الايام مختلطين تحت إزار واحد ، فقتلهما وأحرق جسديهما ، وأخذ رمادهما وخلط به شيئاً من التراب وصنع منه كوزين للخمر ، فكان يحضرهما في مجلس شرابه ويضع أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فتارة يقبل الكوز المتخذ من رماد الجارية وينشد :

يا طلعــــة طلع الحمام عليهـــا
وجنى لهـــا ثمر الردى بيديها

روَّيت من دمها الثرى ولطالما
روَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها !

حكَّمت سيفي في مجال خناقها
ومــدامعي تجري على خدَّيهـــا

فوحقِّ نعليها! وما وطىء الثرى
شيءٌ أعزُّ عــليَّ من نعليهـــا

مـــا كان قَتْلِيها لأني لم أكن
أخشى اذا سقط الغبار عليها

لكن ضننت على العيون بحسنها
وأنفتُ من نظر الحسود اليها !

ثم يعود فيقبل الكوز المتخذ من رماد الغلام وينشد :

أشفقت أن يرد الزمانُ بغدرهِ
أو ابتلى بعــد الوصالِ بهجرهِ

قمرٌ قد استخرجته من دجْنهِ
لبليَّتي ، وجلوتهُ من خدره !

فقتلتـــــه وله عــليَّ كرامةٌ
فلهُ الحشا ، ولهُ الفؤادُ بأسره !

عهْدي به ميتاً كأحسن نائم
والحزن يسفحُ عبرتي في نحره !

لو كان يدري الميت ماذا بعده
بالحيّ حلّ ، بكى له في قبره

غصص تكاد تفيض منها نفسه
وتكاد تُخرج قلبه من صدره !

انها حقاً قصة حب من لون فريد .. وقد روت كتب الادب هـذه القصة بصور مختلفة الا ان هذه اشهرها .

لست ادري أية بقعة من ارض حمص ضمت هذا الشاعر الماجن الذي كان استاذاً لكبار شعراء العربيـة !.. قال عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي : كنت جالساً عند ديك الجن فدخل عليـه غلام حدث فأنشده شعراً من عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره ، فسلمه اليه وقال : يا فتى !.. تكسب بهذا واستعن به على قوتك !.. فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من اهل جاسم يذكر انه من طيء يكنى ابا تمام ، واسمه حبيب ابن أوس وفيه ادب وذكاء وله قريحة وطبع !.

اذن أفي هذه المدينة جاء ابو تمام الشاعر المجدد الى ديك الجن يسترشد بـه ، فيهديه مجموعة من شعره ليتكسب بها وابو تمام غلام حدث !..

وقد عمر ديك الجن ، وشهد ابا تمام يصعد الى القمة بشعره ولم يعد في حاجة لشعر يستعين به من صنع ديك الجن !. ولكن المنية تعاجل ابا تمـام ، فيبكيه ديك الجن في بيتين :

فجع القريض بخـاتم الشعراء
وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معـاً فتجاورا في حفرة
وكذلك كانا قبل في الاحياء

وبعض مؤرخي الادب ينسب هذين البيتين لغير ديك الجن .

وشاعر آخر تثير حمص بعض ذكرياته في نفسي ، انه ابو نواس ، الذي جاء الى حمص في طريقه الى مصر ليمدح فيها « الخصيب » بقصيدته المشهورة والتي يقول في مطلعها :

أجـارةَ بيتينـا أبوك غيورُ
وميسور ما يرجى لديك عسيرُ

وهل يجتاز ابو نواس حمص دون ان يعلم بالشاعر ديك الجن وكلاهما يمتح من معين واحد ؟.. اللهو والمجون والشراب !

قالوا : سمع ديك الجن بوصول ابي نواس الى حمص فاستخفى منـه خوفاً ان يظهر لأبي نواس انه قاصر بالنسبة اليه .. فقصده ابو نواس في داره وهو بهـا ، فطرق الباب واستأذن عليه ، فقالت الجارية ليس هو ها هنا .. فعرف مقصدها فقال لها : قولي له اخرج فقد فتنت اهل العراق بقولك :

مُورَّدة من كفّ ظبيٍ كأنمـا
تناولهـا من خـدّه فأدارها !

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج اليه واجتمع به وأضافه .

وخليق بأبي نواس ان يفتن بشعر ديك الجن ويزعم ان اهل العراق كلهم فتنوا به وأن يخص هذه القصيدة الخمرية باعجابه :

وقام تكاد الكأس تحرقُ كفـّه
من الشمسِ او من وجنتيه استعارها

ظللنـا بأيدينا نتعتع روحهـا
فتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارَها !

موردة من كف ظبي كأنما
تناولها من خده فأدارها !

فأي شيء يفتن ابا نواس اكثر من ساقٍ مليح في كفه كأس كأنمـا استعارها من وجنتيه !..

وتطلعت الى حمص الفاتنة .. والى دورها التي تسبح في الاضواء .. أهنـاك من يعيش كديك الجن في هذا الليل المضيء البارد النسيم ؟!

أهناك مُجّان كأبي نواس يشقون طرقها هـذه بحثاً عن شاعر برع في وصف ملذاته ومباذله ليحملوا اليه افتتان العراق به ؟

وأين أحباء ديك الجن هنا ، في ديارهم التي اضاؤوها بوجوههم المشرقة فهي لا تحتاج الى سرج ؟!

يا كثير الدلّ والغَنَجِ
لك سلطانٌ على المهجِ

إن بيتاً انت ساكنه
غير محتـاجٍ الى سرجِ

وجهك المأمول حجّتُنـا
يوم تأتي الناس بالحجج !

لا أتاح الله لي فرجاً
يوم أدعو منك بالفرج !

صوت الزميل با بكر وهو يناديني يقطع عليّ هذه التأملات ، وأراه قـد تخلص بعد لأي من حلقة اهل حمص التي اطبقت عليـــه تسائله .. وأجلس على مقعدي في السيارة لنبدأ السير نحو حلب .

ودار محرك السيارة وأهل حمص الظرفاء يحيطون بهـا ، ولوحوا بأيديهم مودعين عنـدما انسابت السيارة في شارع ابن الوليد متجهة صوب حمـاه .. واختفت حمص عنـا شيئاً فشيئاً وبقيت لفترة طويلة اضواؤها تشع من الافق البعيد ..

ان هـذا الصديق الخفي يأبى ان يفارقنا ، فهو يتصل بنـا اتصالاً وثيقـاً على طول الطريق ، قد يختفي عنا لبضع دقائق ، ولكنه سرعان ما يوافينا ويلازم طريقنا . انـه نهر العاصي ، لكم هو رائع في هـذه اللقاءات على مـدى الطريق !.

وتراءت لنا من بعيد اضواء مدينة حسبناها « حماه » ولكن السائق يخبرنا انا مقبلون على قرية تسمى « الرستن » .. وكل القرى هنا تضاء بالكهرباء وتنعم بالماء النقي تحمله الانابيب الى كل السكان !.. لـكم تمنيت مثل هـذا المستوى لبلادي !..

وحول قرية الرستن هذه تقوم مزارع كبيرة للقطن قصير التيلة .. وقد اقيم قرب القرية « خزان » على النهر الذي يجري حولها ، وقد تجمع الماء امام الخزان اشبه بالبحيرة ، وشقت القنوات لتحمل الماء الى حيث مزارع القطن.. وذكرنا هذا المنظر بمشروع الجزيرة عندنا ، فهو صورة مصغرة له .

ومن هذا السد امكن توليد الكهرباء ، وعرفنا ان حمص التي فارقناها،وحماه التي نحن مقدمون عليها ، وكل القرى الواقعة بينهما يمدها هذا السد بالكهرباء .

واعتلت السيارة هذا الخزان ، فالطريق الى حماه يسير فوقه ، مثلما هو في خزان سنار عندنا،الا ان هذا الخزان في الرستن تشع من جانبيه الانوار الكهربائية وتنعكس على صفحة الماء المتجمع امامه كبحيرة صغيرة فيضفي عليها جمالاً اخاذاً..

وفتنتنا القرية الصغيرة بكثرة امواهها على القنوات ، وأمام السد ، والنهر الصغير يلف حولها ، والمزارع الخضر على مـد البصر ، والهضاب الـتي ترتفع في

جانب منها . والاضواء الكهربائية التي جعلت ليلها كالنهار ، ودورها الصغيرة البسيطة النظيفة المظهر .

وخزان الرستن – كما عرفنا – بدىء في بنائه عام ١٩٥٤ ، ولم يكتمل في وضعه النهائي حتى زيارتنا له ، ولكنه يؤدي الآن خدمة جليلة لهذه المنطقة .

وغادرنا قرية الرستن اللطيفة لنتجه الى حماه فحلب .

وعلى طول هذا الطريق تراءى لي شبحان على ظهري بعيرين يرقلان بهما بين الشعاب والوهاد ، وخيل اليّ اني ارى الدموع تنساب من عيني احدهما وقد اعياه السرى وهدّه طول الدرب .. انهما الشاعر الملك الضليل امرؤ القيس وصاحبه .. انطلقا من نجد ، ومرّا ببعلبك فأنكرتهما ، وبلغا حمص ، فأنكرهما صاحبهما ابن جريج .. وما زال الطريق يمتد امامهما بعيداً وعراً حتى ليبلغا قيصر الروم في انقرة .. وبكى صاحب امرؤ القيس من شدة اللغوب !.. وهو يمر بهذا الطريق يشق قرى حمص ، فيزجره امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

فقد انكرتني « بعلبك » وأهلها
ولابن جريج في قرى « حمص » انكرا

وأتلفت يمنة ويسرة لأمعن النظر في هذا الطريق الذي ابكى صاحب امرىء القيس ، فلا ارى فيه الا ما يبهج ويمتع .. ولكن ما ابعد الشقة الزمنية بيني وبين الصاحبين ، فأنا اقطع هذا الطريق على سيارة فارهة تطوي في ساعة ما يطويه بعيرا الصاحبين في ايام .. وحمص وبعلبك نالتهما يد الحضارة بالصقل والابداع ، فلن تحتاج فيهما الى صاحب ينكرك ، وفي فنادقهما الجميلة المريحة ما

يغنيك عن تنكر الاهل والصحاب ..

وقرى حمص ، التي اجتواها امرؤ القيس عندما انكره الصحاب فيهـا ، تضاء اليوم بالكهرباء وتصلها طرق معبدة تنطلق فيهـا السيارات بسرعة مخيفة لو شهدها اليوم امرؤ القيس لجن جنونه .. وليست الرستن الـتي مررنا بهـا منذ لحظات الا احدى هذه القرى التي طاف بها امرؤالقيس وصاحبه الباكي من جدب الطريق وطوله ، وقـد احالتها يد الحضارة الى جنة صغيرة ترتاح لمرآها النفس وتشوقها ..

من يدري .. فقد يجيء بعدنا من يشق هـذا الطريق في لحظات ويترحم على العهد الذي نزهو به اليوم ويأسى لنا كما اسيت لامرىء القيس وصاحبه.



كلّما رحبتْ بِنَا الرّوضُ قلنَا
حَلب قصدُنا وأنتَ السّبيلُ

« المتنبي »

وقصدنا حماه ، ولم يطل بنا السير من قرية الرستن ، اذ بدت لنا حماه ، وكان الوقت ليلاً ، كتلة ضخمة من النور ، ودخلناها من شارعها الرئيسي الواسع المخضر الجوانب ، وتراءت لنا في وسط المدينة ساعة ضخمة على مسلة عالية ترى من بعيد ، وأجمل ما في حماه بساتينها الفيحاء في كل جانب منها ، تسقيها النواعير « السواقي » التي تشبه مثيلاتها هنا ، ووقفنا عند الناعورتين الاثريتين اللتين لا بد لكل زائر من أن يقف عندهما . وهما ناعورتان كبيرتا الحجم ، احداهما عملت سنة ٧٦٣ ﻫ والاخرى سنة ٨٧٥ ﻫ. وكانت احداهما عند زيارتنا معطلة ، والاخرى تدور ويصدر عنها الصوت الذي طالما شجانا بترنيمه في سواقي بلادنا..وكانت الانوار الكهربائية تشع على الناعورة والماء المنسكب منها والنبات الذي يحيط بها فيزيد ذلك من روعة المكان .

وتبدو حماه مدينة حية متحضرة ، كل دورها ومتاجرها والسيارات التي

لا تنقطع توحي بقدر وفير من الحضارة .

وحماه مدينه تاريخية ، وفي الواقع ان كل المدن هنا قد قامت منـــذ عهود قديمة كان اسمها الآرامي القديم (حمات) . ودلت الآثار على أن حماه كانت مركز حضارات متعددة منذ الألف الخامس قبل الميلاد .

ولم نستطع ان نزور قلعتها التاريخية ، وهي على مرتفع يشرف على المدينـة ووادي العاصي النهر الصديق الذي ما زال يرافقنا منذ ان بدأنا رحلتنا .. لكم أثري سهول حمص وحماه بمائه الغدق !.

وفي حماه تذكرت بالخير الرجل الذي أمد المكتبة العربيـة بذخائر نفيسة من المعرفة ياقوت الحموي — فان كتابه النفيس « معجم الادباء » قل ان تخلو منه مكتبة أديب .

لم نبق في حماه غير قليل من الزمن فقد اطبق علينـا الليل ونحن مسرعون لبلوغ حلب . وحزنت عندما مررنا بمعرة النعمان ليلاً وعز عليّ ان نجتازهـــا سراعاً دون ان نقف لنحيي فيلسوف العرب « وابن المعرة » أبا العـلاء ، وعزيت نفسي بأني عائد اليها من حلب في وضح النهار لأقضي وقتاً طيباً بجوار ابي العلاء ، . ما تكون رحلتنا هذه ان لم نزر المعرة ونقف عند ابي العلاء ؟!

ودنونا من حلب وهتفت مع المتنبي :

كلما رحبت بنا الروض قلنا

حلب قصدنا وانت السبيل !

ودخلناها في نحو الساعة العاشرة مساء وقد استقبلتنا أنوارها العاليـــة من بعيد قبل ان نبلغها . وقد خلبت البابنا عندما وقعت العين عليها ، فان الليل لم يحجب عنا جمالها بل زاده رواء وفتنة ، ومع ما نالنـا من تعب لطول الطريق

فقد شعرنا بالنشاط موفور بمجرد ان دخلنا الفندق واخذنا بعض الراحة ، ووقفنا من شرفاته نطل على بعض جوانب المدينة تحت الاضواء الساطعة .


نواعير حماه الأثرية

واشرقت شمس اليوم التالي وقد أخذنا حظنـــا من الراحة ، وغادرنا الفندق والجـو لطيف يغري بكثرة التجوال ، وكان في ذهني أن أبحث في المقام الاول عن آثار سيف الدولة امير حلب الذي خلده شاعر العربيـــة ابو الطيب المتنبي ، وهل تذكر حلباً الا مقرونـــة بهـذين الرجلـين العظيمين ، سيف الدولة والمتنبي ؟

وحلب مدينة ضخمة ، لعلي لا أغالي اذا قلت انها اكبر مدينة شهدتها في سوريا ولبنان والاردن يبلغ تعداد سكانها نصف المليون ويقدر سكان سوريا كلهـــا بنحو اربعة ملايين ونصف المليون .

شوارع المدينة الواسعة تعج بالحركة الدائبة ، وحفلت اسواقهـــا بكثير من صناعاتها المحلية العديدة وأهمها صناعة النسيج التي ساعد على توفرها ان حلب تقع في منطقة تتوسط أخصب وأوسع مزارع القطن قصير التيلة . . وقد ارتفعت فيها صناعة (التريكو) خاصة التي تغص بها اسواق حلب الى حـــد يقسر على الاعجاب .

والمدينة تنقسم الى قسمين رئيسيين ، حلب القديمة ، وقد احتفظت مبانيها بكل مظاهر الطابع الشعبي الاصيل ، وتتمثل في هـذا القسم كل الخصائص الشعبية ، فهي صورة حية للتراث الحلبي القديم .

والقسم الثاني يضم حلب الجديدة ، حلب الحضارة الحديثة بمبانيهـا السامقة ذات الطوابق المتعددة والشوارع الواسعة النضرة الجوانب ، والاسواق الكبيرة التي تتفتن في عرض محتوياتها على احدث وسائل العرض ..

في كل مدينة كنت ازورها كان أول ما اعنى به ان ازور آثارهـا لأعيش لحظات مع التاريخ .. وقد اعجزني في حلب ان اشبع هوايتي لكثرة ما تعجبه المدينة من آثار ، ولكنها مع كثرة آثارهـا خلت من الأثر الحبيب الى نفسي والذي كنت اتوق اليه طوال الرحلة وقبل الرحلة ، آثار سيف الدولة . وهـذا حديث آخر في هذه المذكرات :

وبالرغم من ان بعض رجال التاريخ يؤكدون ان دمشق من اقدم مـدن العالم ، فان حلب من هذه الناحية ، توضع على قـدم المساواة مع دمشق ، فقد ذكروا انها كانت عاصمة العموريين في الالف الثالث واوائل الثاني قبل الميلاد . وشيء آخر يجعل للمدينة اهمية تاريخية خاصة ، وهي انها ظلت في مقرها هـذا منذ أن برزت الى الوجود ، فلم تحل بها كوارث تغير موضعها كما حدث لكثير من المدن .

ولا شيء يجعلنا نقف على تعاقب الحضارات بشتى ألوانها على هذه المدينة الا ان نزور قلعتها التاريخية التي تعد من اكبر وأهم القلاع في سوريا .

وراعنا منظر القلعة عندما بلغناها وهي كالجبل الاشم ضخامة وعـلواً ، وظللنا فترة نتأملها من الخارج قبل ان ندخلها ، وقد أحاط بها من كل جوانبها خندق عميق ، كانوا عندما يحاصر القلعة عدو من الخارج يطلقون عليه الماء حتى

يتلوه فيتعذر على المهاجمين اجتيازه ، فـــان نجحوا واجتازوه صوب عليهم الجنود من القلعة سهامهم ، أو قذفوهم بحجارة المنجنيق ، أو اراقوا عليهم الماء الحار ، ولكل وسيلة من هذه مكانها المرسوم داخل القلعة الحصينة التي تتكون من اربعة طوابق ضخمة ، دخلنا الطابق الاول بعـد ان اجتزنا جسراً مدرجاً طويلاً .. ودخلنا من باب حديدي ضخم تعلوه كتابة تؤكد انه من صنع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي في فاتحـة القرن السابع الهجري ، وعند الباب غرفـة واسعة حصينة ، وصعدنا الى الطابق الثاني ودخلنا من باب سمي باب (الحيات) لان قنطرة الباب مزينة بصورة حيتين متداخلتين لكل منهما رأس تنين مخيف !

ومن هذا المدخل نجد المكان الذي كان معداً ليريق منه الجنود المـاء الحار على مهاجمي القلعة اذا مـــا استطاعوا ان يبلغوا ابوابها . وشهدنا اماكن الرماة بالسهام ايضاً ..

وصعدنا ممراً متعرجاً حـتى الباب الرابع ، وفي اعلى الباب – صورة اسدين بينهما شجرة -- وكل باب نلجه عليه رسم منحوت يـدل عليه ، وبجانب الباب برج مراقبة يطل منه المراقبون ليرصدوا حركات المهاجمين امام القلعة .

ونعرف في هذا المكان الممر السري الذي كان يقود الى سرداب تحت الارض ينفذ الى داخل المدينة . وعند هذا السرداب كان يتنقل الجنود من داخل القلعة الى داخل المدينة دون ان يراهم العدو ويحملون المؤن الى داخل القلعة .

ومن هذا البهو ، طالعنا مرتفع صغير قيل انـه ضريح الخضر عليه السلام ، والى جانبه مصلى صغير .. وما اكثر مـا لقينا ضريح الخضر أو مقام الخضر في كثير من الاماكن أو المساجد الاثرية !..

وبقرب ضريح الخضر ولجنا باب الاسدين ، الضاحك والباكي ، وقـد تجلت

وفي هذا المكان وجدنا اعداداً من حجارة المنجنيق التي كانوا يقذفون بها اعداءهم بجانب السهام والماء الحار وهي حجارة مستديرة مختلفة الاحجام تشبه البطيخ فترحمنا على أولئك الرجال الذين كان أقصى ما بلغوه من وسائل القتال ، سهم يطلق ، أو ماء ساخن يراق ، أو حجر يرمى بالمنجنيق !.. ولو عادوا اليوم الى الحياة وشاهدوا ما أحدث الانسان من وسائل الدمار لاستحال عليهم ان يصدقوا ما يشاهدون .

ولكن مهلاً ، فقد كدت أصاب بالدوار وانا اطل في هذا المكان على بئر سحيقة ، أو قل القاعة السحيقة التي كان يلقي فيها الملوك والرؤساء اعداءهم أو اي مجرم يريدون القضاء عليه ، فقد كانوا يأمرون بالقائهم من عل الى قاع البئر الخالية ، فتدق اعناقهم أو تتكسر عظامهم وقد يبقون اياماً في هذا المكان الرهيب المليء بالجثث حتى يرحمهم الموت ..

وقد اقشعر جسمي عندما اخبرني الدليل انه قد وجد في هذا الجب المنحوت في داخل القلعة ، ثلاثة واربعين كيلو من عظام آدمية وهي بقية يسيرة جداً مما كان يمتلىء به هذا الجب المخيف الذي كان يبتلع ضحاياه منذ العهد البيزنطي حتى العهد العربي !.

وابتعدت عن هذا المكان المخيف وانا استعيذ بالله ، وقد تصورت العذاب الذي كان يعانيه من يلقى بهم في هذا الجب وقد يعيشون اياماً يعانون اقسى الآلام وهم بين الجثث المتراكمة توحي لهم بمصيرهم المحتوم !.

وأجد لنفسي متنفساً من هذا الضيق الذي احدثه منظر الجب عندما بلغنا مسجد ابراهيم الخليل الذي بناه الملك نور الدين محمود ابن زنكي سنة ٥٥٨ هـ

١١٦٢ م ، وفي هذا المسجد نتعرف الى اسطورة حلب الشهباء ، فقد قالوا ان سيدنا ابراهيم الخليل كان يسكن في هذا المكان الذي اقيم عليه المسجد ، وكانت له بقرة شهباء يحلبها في أوقات معينة ، فكان الناس اذا ما سمعوا صوت الحلب، أو شهدوه يحلب البقرة ، قالوا : حلب الشهباء !..

ومن هنا جاءت تسمية المدينة - وداخل المسجد بئر صغيرة ذات ماء عذب ارتوينا منه وجلسنا حولها لنأخذ قسطاً من الراحة ، ثم استأنفنا طوافنا .

ويبدو اننا اخذنا نضرب في التاريخ بعيداً ونحن نجوب القلعة فشمال مسجد الخليل شهدنا جدار معبد من العهد الحثي يرجع تاريخه الى القرن العاشر قبل المسيح .

ودلفنا الى المسجد الكبير – في الطابق الرابع للقلعة – الذي شيده الملك الظاهر غازي سنة ٦٠٧ هـ – ١٢١٠ م ، كما نقش على الباب – والمسجد مع الاسف خرب ، فيه آثار تدل على المحراب ، والمتوضأ – وفي جانبه قاعة ضمت بعض الآثار القديمة .

وبلغنا أعلى القلعة ، فشهدنا منظراً رائعاً جداً، فقد كانت تحتنا مدينة حلب كلها ، حتى اطرافها البعيدة،واستطعنا ان نتعرف الى كل احيائها من قمة القلعة.

انه منظر لا يمكن ان ينسى ، واستطاع دليلنا من هذا العلو ان يجعلنا نتعرف الى كل احياء حلب وقد بهرنا جمال مرآها واتساع مساحتها . وقد بدا لنا الفرق واضحاً بين حلب القديمة بكل خصائص القدم، وحلب الجديدة بكل مظاهر الحضارة الحديثة ، ولو لم يكن هناك من كسب للزائر للقلعة الا ان يرى حلب من هذا المكان لكان هذا وحده كسباً جديراً بالعناء في سبيله .

وطاب لنا المكث فجلسنا على الحجارة الضخمة ونحن نجيل الطرف ولا نشبع من التطلع الى كل جانب من المدينة،والى ضواحيها البعيدة ذات الحدائق

الحذر ، والدليل يثرثر عن كل شيء نسأله عنه ، وعن مواضع لم نسأله عنها ولكنه يريد ان يلفت انظارنا اليها .. ما كان اروعها من لحظات !..

وبعد لأي ، يطلب الينا رائدنا ان نكمل الزيارة بأن نقضي فترة في اجمل موقع في القلعة .. الى قاعة العرش .. وماذا في قاعة العرش ؟ .



سيف الدولة وقاعة العرش

بعد ان اجتزنا طوابق قلعة حلب الثلاثة وصعدنا الى طابقها الرابع وبدت لنا حلب كلها من ذلك العلو الشاهق واستمتعنا بذلك المشهد الفريد ، قالوا لنا ، هيا الى قاعة العرش .. القاعة التي كانت مقر كل من ملك زمام الامر في هـــذه البقعة من الارض ، ولم تكن الطوابق الثلاثة بكل ما اعدت من وسائل الدفاع بالسهام وحجارة المنجنيق والماء الحار الا دفاعاً عن الجالس على هذه القائمة .

واقتربنا من قاعة العرش ، وقبل ان نلج بابها اشار الدليل الى نافورة قديمة صنعت من الحجارة، وبجانبها قامت حمامات القصر الملكي تتصل بها مجاري الماء البارد والحار ، والغرف الخاصة بخلع الملابس .. وهناك النواعير التي كانت ترفع الماء وتدفعه الى هذه الجداول المتصلة بالحمامات . ترف بالغ كهذا الذي يعيش فيه الملوك والامراء حيثما كانوا .. ولكن هذا الترف الذي نتأمله لم يبق منـــه غير رسوم وأطلال تهدي العظة والعبر .

وأمام قاعة العرش وقفنا على الاماكن التي اعدت للجنود الذين كانوا يستقبلون الملك او الامير بالتحية العسكرية ، كلما هلت طلعته خارجاً او داخلاً .. فقلت: لا جديد تحت الشمس !.

أمامنـــا باب ضخم يفضي الى باحة صغيرة قبل قاعة العرش ، الباب ارتفاعه

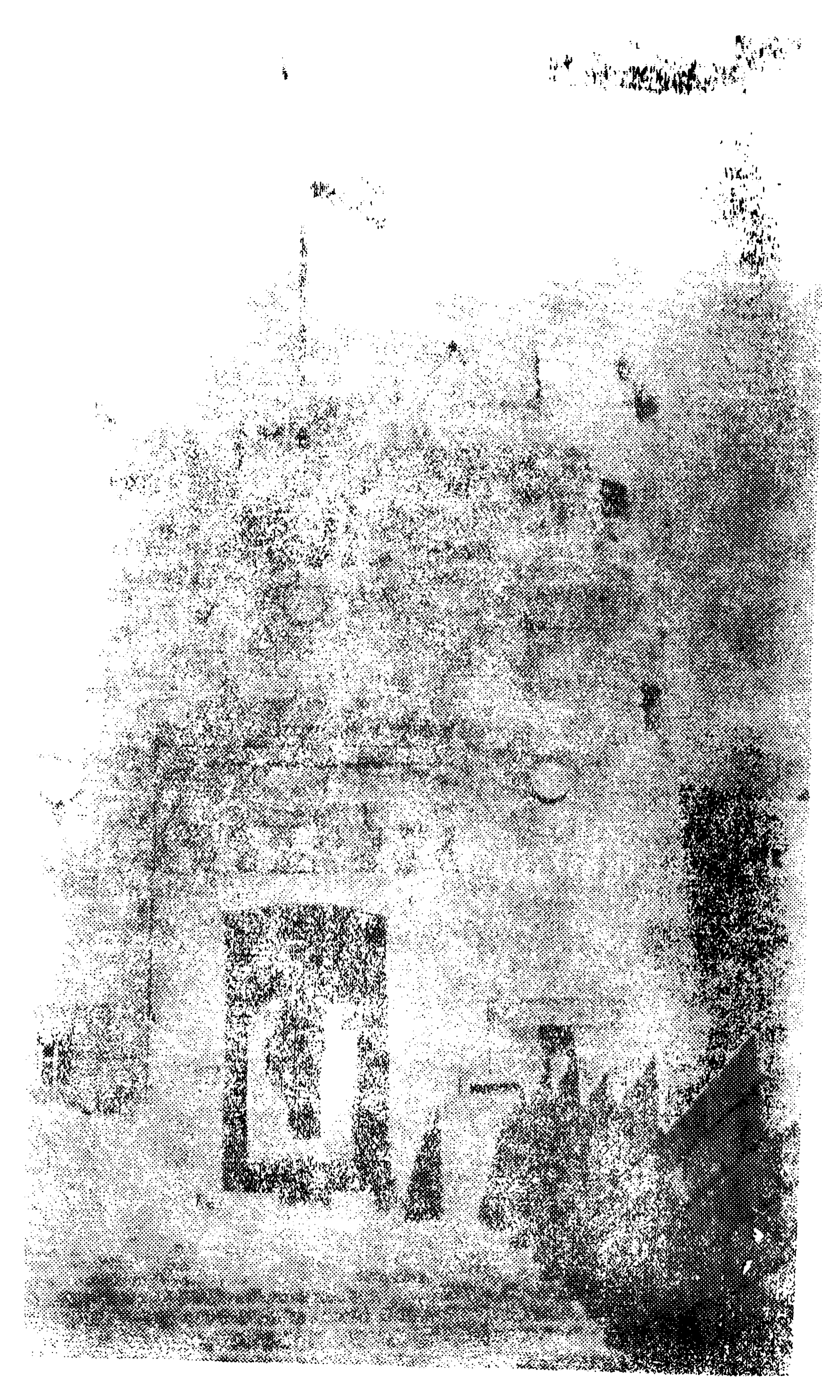
ثمانية امتار وعرضه اربعة امتار ونصف المتر مزخرف بنقوش عربية بديعة .. الارض مرصوفة بحجارة صغيرة ملساء ملونـة ، اسود ، ابيض ، احمر . وقد نال الزمن من هذه الالوان قليلاً الا انها تتحدث عن مستوى حضاري رفيع .

ودخلنا قاعة العرش فأحسسنا بالرهبة والجلال ، فالقاعة فخمة ضخمة توالت عليها عهود وعهود ، وجددها ملوك وامراء وسلاطين ،كل أعمل فيها يد الاصلاح والتزيين لتكون كما يشتهي ويريد من الفخامة والروعة ، والقاعة التي بهرتنـــا واخذنا نتأملها ونتملى روعتها ، جددها البطل الاسلامي صلاح الدين الايوبي في القرن الثاني عشر الميلادي .. وأي قلعة حربية في هذه البلاد لا تحمل اثر صلاح الدين ؟.. في هذه القاعة جلس صلاح الدين ثم خلف عليهـــا ابنه الملك الظاهر غازي (٥٨٢ ، ٦١٣ هـ) .

القاعة ترتفع على اربعة أعمدة فقط عالية .. طول القاعة نحو الاربعين متراً وعرضها نحو الخمسة والثلاثين متراً ، تتوسطها قبة عالية مفتوحـة الجوانب .. السقف مزخرف بنقوش جميلة ملونة في دقة بالغة ، وقد وجدنا عدداً من العمال السوريين يعملون في مهارة وبراعة في ترميم تلك النقوش التي نال منهـا الزمن ، على الوضع الذي كانت عليه .

أي تاريخ حافل مر بهذه القاعة ؟ وأي ملوك وسلاطين وامراء وحاشية اثر حاشية كانت تجتمع هانئة في هذا المكان ؟

وتخيلت سيف الدولة — وقد كان له حظ الجلوس عليهـــا إبان امارته على حلب — جالساً في الصدر وحوله حشد من العلماء والأدباء والشعراء ينشدون أروع الشعر ويغدق عليهم اوفر العطاء .. وتمثل لي ابو الطيب المتنبي ينشد شعره والقاعة تردد صداه .. وتذكرت ما قرأته عن لقاء سيف الدولة بالمتنبي لمـا قدم الى انطاكيا — قرب حلب — وقد آلت اليوم الى تركيا ، والتقى المتنبي بسيف الدولة — كان قد سمع به وتبين فيه سمـــات الشاعر العبقري — طلب اليه ان



قلعة حلب التاريخية

يصحبه الى حلب ، فاشترط على سيف الدولة الا ينشده الشعر الا جالسا ، وألا يكلف تقبيل الارض بين يديه كما كان يفعل الشعراء آنذاك.. وليس هذا الكبرياء بغريب على من ادعى النبوة !.

وتحت قاعة العرش مباشرة وعن طريق سلم حجري منحوت ، وجدنا قاعة الدفاع الكبرى ،وتعتبر – كما قال العسكريون الثقاة – آية في التحصن العسكري ، وقد جعل لها ممر ضيق يسهل حركة الاتصال بين المدافعين عن القلعة .. ومن قاعة الدفاع هذه كان القائد الأعلى يدير المعركة الحربية دفاعاً عن القلعة .

وهنا .. طوينا القرون القهقرى لنلتقي بأولئك الرجال الافذاذ الفدائيين أصحاب الرسالة يطوون الصحارى ويجتازون القلاع والجبال ويقاومون قوى الطبيعة ليحملوا رسالة الحق والعدل الى كل مكان ... هنا حول القلعة جيش المسلمين تحت إمرة ابي عبيدة عامر بن الجراح ذلك الشيخ الجليل الذي لم تقعد به شيخوخته دون ان يؤدي ضريبة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الحق والعدل .. وبجانبه خالد ابن الوليد قائد الحملة .

وفي داخل الجلسة في قاعة الدفاع هذه التي نقف عندها ، قائدا جيش الروم ، حنا ويوقنا واشتد حصار المسلمين للقلعة .. فرأى أحد القائدين – حنا وقد تبين له خسران المعركة ، ان يسلموا حقنا للدماء ، ولكن زميله يوقنا يرفض الفكرة ، ويثب عليه فيقتله حتى لا تتسرب روح الخور للجنود .

المسلمون يواصلون الحصار ولكن بلا جدوى ، وهم يعرفون ان هناك ممراً سرياً ينفذ الى داخل القلعة .. ولكن اين هو ؟ وكيف العثور عليه ؟..

يقول الاستاذ ابو الفرج العشي في كتابه (آثارنا) وهو يتحدث عن قلعة حلب :

« يقال ان القلعة امتنعت على العرب فتظاهروا بالانسحاب ثم عاد الجندي

منقطعة النظير » .

بهـذه الفدائية النادرة نشر العرب رسالة الاسلام .. فما أبركم بعقيدتكم ايها الرجال !.

ونظرت من ذلك العلو انشاهق الى قاعدة القلعة وقد احيطت بذلك الخندق العميق الذي يمتلىء بالماء كلما دنا منها مهاجم ، وقـد بدا الخندق من ذلك العلو كجدول صغير .

لست ادري كيف اصف الشعور الذي تملكني وأنا انقل اقدامي حيث كانت تنقل اقدام رجال لم يقو الزمان على محو ذكراهم على قدم العهد ، هأنذا امشي في سراديب القلعة وألمس جدرانها في رفق وأناة كأني اخاف ان ازيـل آثار تلك الاقدام حتى بلغت بابها الخارجي لأودعها بعـد ان قضيت ساعات ، استوعبت قروناً من الزمان ، واستعرضت حشداً من رجال التاريخ ، وصوراً من جلال الماضي .

سيف الدولة بلا أثر ولا قبر !

لك الله يا حلب ! ما هذا العقوق بفتاك الامين ؟! أعلمتك دمشق هذا وهي تغفل باني امجادها معاوية؟..أين يا حلب اثر مؤسس دولة بني حمدان في ربوعك، والذي حشد لك من الشعراء والعلماء والخطباء والفنانين ما لم يحتشد مثله قط في بلاط من قبل ؟ والذي اعلى شأن ذكرك عندما شهر سيفه لحرب الروم وخضد شوكتهم في وقت ضعفت فيه الخلافة الاسلامية وأوشكت ان تتهاوى وتساقط بدداً ، وكان حرياً بالروم ان يهتبلوا الفرصة ليستعيدوا امجادهم في هـذه الارض لولا سيف الدولة !

لقد نشأت دولة بني حمدان في مستهل القرن الرابع الهجري بعد ان ضعفت خلافة العباسيين بسبب الثورات الداخلية ، كثورة الخوارج ، والعلويين، وثورة الزنج المشهورة عام ٢٥٧ هـ. وثورة القرامطة ، فقامت لهـذه الاسباب دويلات عديدة صغيرة منفصلة من جسم الخلافة ..

كنت وأنا على قلعة حلب ، اطوف بقـــاعة العرش . ادير في ذهني صوراً تاريخية عديدة لسيف الدولة وما كدنا ننتهي من طوافنا على القلعة ، حتى قلت لأولئك الرفاق الذين كانوا يطوفون بنا ، اذهبوا بي الى حيث كان يعيش سيف الدولة ، وقفوا بي عنـد كل اثر له ما زال باقياً او دارساً . وأروني قبره لأقف

عليه مترحماً .

والتفتوا الى بعضهم حائرين ! وصمتوا برهة ثم فتح الله عليهم اخيراً ليقولوا: ليس هناك من أثر باق لسيف الدولة ! .. ونظرت اليهم ملياً ولم استطع ان أقول شيئاً ، فقد ألجمتني المفاجأة .. وقال احدهم : كانت هناك بقـــايا قصر له ، ثم احترق في حادث انفجار ذخيرة ، فان كنت تريد الذهــاب الى حيث كان يقوم القصر فهيا . قلت : نعم . هيا !

ومشينا حتى وقفنا عند اثر قديم – حائط ضخم – كان بعض العمال يصلحون من شأنه ، وكان على واجهة الحائط كتابة بحروف كبيرة ، ما كدت أتلوها حتى تبين لي انها اسماء عدد من أئمة الشيعة ، فما شككت في ان الحائط واحد من هذه المزارات العديدة التي يقيمها الشيعة في كل مكان يرتبط بتاريخهم .

وطلع علينا شيخ وقور سره مقدمنا الى هذا الأثر وقد ظن اننا من الشيعة واننا جئنا خصيصاً لهذا المزار – وكان الرجل كما عرفنا من كبار علماء الشيعة في حلب – فحيانا في حرارة بالغة ، وعرفناه بأنفسنا وببلادنا ، فأعاد الترحاب في بشر وإيناس .

وسألته : أين تقع آثار قصر سيف الدولة ? فأشار الى تل قريب من المزار ، وقال : هذا الجبل يسمى جبل « الجوشن » ، على اسم شمر بن ذي الجوشن الذي ينسب اليه المؤرخون انه كان من أقوى المحرضين على قتــل الحسين في كربلاء . وبجانب هذا الجبل كان يقوم قصر سيف الدولة .. ودفعني الفضول لأستزيد من المعرفة .. ترى ما سبب اقامة هـــذا المزار الشيعي ? ولمَ سمي الجبل باسم ابن الجوشن ? وما علاقة هذا بقصر سيف الدولة ?

وسمعت عجباً ، فهذا المزار الذي نقف امامه وقد ارتفع عالياً وفي مقدمته اسماء أئمة الشيعة أقامه اصلاً سيف الدولة ، الذي كان شيعياً . دفعه لاقامته ما

حدث به الرواة من ان شمر بن الجوشن حمل رأس الحسين وأغذ السير في نفر من الجند ليقدمه الى الخليفة يزيد بن معاوية في دمشق تأكيداً للنصر .. وبلغ ابن الجوشن في طريقه مدينة حلب ونزل في هذا المكان ، وقيل ان رأس الحسين قد وضع حيث أقام سيف الدولة – عندما ولي الامر – هذا المقام الضخم ..وبقي المزار سليماً تحفه العناية، وها نحن نرى عدداً من العمال يقومون بترميمه بتكليف من مديرية الآثار حفاظاً عليه !.. اما دار سيف الدولةفلا اثر لها البتة الا الارض الغبراء التي كانت تقوم عليها !.. وعجبت للأقدار ان يبقى المزار ويزول أثر من أنشأ المزار !.. لقد صحت بالامس في دمشق عند قبر معاوية في غرفة حقيرة من الطين ، واهاً لك يا معاوية !. ووجدتني ارددها في حلب وانا أنظر لمكان دار سيف الدولة بلقعاً والمزار قائماً .. واهاً لك يا سيف الدولة ، زالت القصور وعدمت قبراً بين القبور !

وفي المكان البلقع كانت تقوم دار سيف الدولة التي شهدت من رجال العلم والادب والفن ما لم تشهده دار خليفة او أمير من قبل ومن بعد !

قالوا : كان حول سيف الدولة في هذه الدار من الشعراء ، المتنبي ، وابو فراس، والوأواء ، والببغاء ، والسرى الرفاء ، والصنوبري، وابن نباته السعدي وكشاجم .

وكان حوله من الناثرين: ابو بكر الخوارزمي، وابو الفرج الببغاء، والخطيب ابن نباته السعدي ، وكان وثيق الصلة بأبي الفرج الاصفهاني صاحب الموسوعة الأدبية النادرة « الأغاني » .

وكان حوله من اللغويين : ابن خالويه ، وابن جني ، وابو الطيب اللغوي الحلبي ، وابو علي الفارسي . وكان هناك الفارابي الذي يعد أمة وحده في العلم والأدب والفن .

وقال احد المؤرخين العرب : اجتمع لسيف الدولة ما لم يجتمع لسواه من

الملوك ، كان خطيبه ابن نباته ، ومعلمه ابن خالويه ، ومطربه الفارابي ، وخزنة كتبه الخالديان والصنوبري ومداحـه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي وابن نباته السعدي والصنوبري .

وكل واحد من هؤلاء الذين أحاطوا به علم من الاعلام ، تزخر بالاشادة بهم كتب الادب والتاريخ ، وتفخر المكتبة العربية بما خلفوه من تراث ، ومنهم من بلغ الاعجاز في مجاله ، ولقد كان الفـارابي ينفرد بجانب علمه وأدبه وفقهـه وفلسفته ، بتجديده للموسيقى في ذلك العهد وإجادته لها إجادة منقطعة النظير ، قالوا : انه كان في مجلس سيف الدولة فأخرج من وسطه خريطة فتحها واخرج منها عيدانا وركبها ، ثم لعب بها فضحك كل من في المجلس ، ثم فكهـا وركبها تركيباً آخر ولعب بهـا ، فبكى كل من في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبهـا وحركها ، فنام كل من في المجلس ، فتركهم نيـاماً وخرج ! ومن عرف سحر الموسيقى وقوة اثرها لا يعجب لحدوث هذا .

كان سيف الدولة مولعاً بالشعر يستجيده وينقده ، ويقوله احيـاناً ، وقد روى الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » طرفاً من شعر سيف الدولة ، وهو شعر سلس عذب يسلكه بحق في عداد الشعراء المرموقين لولا انه لم يرد ان يشتهر به ، استمع اليه في هذه المقطوعة الوجدانية :

راقبتني العيون فيك فأشفقتُ
ولم أخل قط من اشفـاقِ
ورأيت الحسود يحسدني فيكَ
مُجدّاً ، يا أنفس الاعلاقِ !
فتمنيت ان تكون بعيـداً
والذي بيننـا من الود باقِ
رب هجر يكون من خوف هجرٍ
وفراق يكون خوف فراق !

وقوله في مقطوعة اخرى :

أقبّــله على جزعٍ
كشرب الطائر الفزعِ
رأى مــاءً فأظمأهُ
وخاف عواقب الطمعِ
وصادف فرصةً فدنا
ولم يلتــذّ بالجرعِ

ألم أقل انه شاعر سلس اللفظ والمعنى جياش العاطفة ؟

واحدق في ذلك التل الذي سموه جبل الجوشن حيث كان قصر سيف الدولة يموج ويزخر بمن سميت ومن لم اسم من علماء وشعراء وكتاب وخطباء ، فألمح من بينهم ذلـك العملاق الفذ المهيب الطلعة أبا الطيب المتنبي ، ينشد سيف الدولة جالساً على غير العهد بالشعراء الذين كانوا يمدحونه وقوفاً ، وقــد احب المتنبي سيف الدولة وأخلص له ، وكذلك فعل سيف الدولة ، وفي هــذا الجو ، وفي هذا المكان أنشأ المتنبي اروع شعره في مدح سيف الدولة ، وقد بلغت قصائده فيه ثلث ديوانه ، وكان لا بد — كما هو الحال في كل بلاط — أن يحسد المتنبي على هذه المكانة ، وان يحاول بعضهم الدس بينهما ، وقـد رأوا سيف الدولة يخص المتنبي بجليل عطائه ..

روى صاحب كتاب خزانة الادب فقال «أمر بحساب ما أعطى لابي الطيب فكان خمسة وثلاثين الف دينــار في اربع سنوات » وكيف لا يحسد المتنبي على هذا في ذلك العهد ؟

ففي أحد مجالس سيف الدولة التي كان يعقدها كل يوم وقع بين المتنبي وابن خالويه العالم اللغوي نقاش — فوثب ابن خالويه على المتنبي وضربه بمفتاح كان في يده حــتى شج رأسه وسالت منه الدماء ولم يبد سيف الدولة شيئاً وخرج المتنبي

غاضباً وما كان لابن خالويه ان يجرؤ فيعتدي على المتنبي امام سيف الدولة لولا انه واثق من ان سيف الدولة قد اثرت فيه الدسائس فاعرض عن المتنبي ولم يعد يحتل عنده مكانـــه المرموق وعزم المتنبي على مغادرة حلب ومفارقة سيف الدولة وقـد تم له ذلك سنة ٣٤٦ هـ وقبل رحيله انشد سيف الدولة قصيدة من روائع شعره ابدى فيها سمو عاطفته وصدق محبته لسيف الدولة وفخر بشعره واعتز بمكانته وهي القصيدة التي مطلعها :

واحرّ قلباه ممـــن قلبـه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي اكتم حباً قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الامم

وفيها يقول معتداً ومفتخراً ومتحدياً ابن خالويه ومن دسوا له عند سيف الدولة :

سيعلم الجمع ممـــن ضم مجلسنا
بانني خير من تسعى بـــه قدم
انا الذي نظر الاعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من بـــه صمم
انام مـلء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراهـا ويختصم

ويغادر المتنبي سيف الدولة ولكنه حيثما حـل يحن اليه حنيناً موجعاً دفع بعض المؤرخين الى تفسير هذا الحنين وهذه الرقة في شعر المتنبي كلما ذكر سيف الدولة الى ذلك الحب الخفي الذي قيل انـــه كان يعتمل في قلب المتنبي لخولة اخت سيف الدولة . ومن هؤلاء الذين اشاروا اخيراً الى هـــذا الحب الاستاذ الكبير محمود محمد شاكر وقد كان مسبوقاً في هذا من بعض الاقدمين الذين تصدوا

لهذه العلاقة الخفية بين المتنبي وخولة . ويستدلون على ذلـك بقول الشاعر وهو يبعد عن حلب :

فمـــا صبابة مشتاق على امل
من اللقاء كمشتاق بـــلا امل

وفي قوله :

حببتك قلبي قبل حبك من نأي
وقد كان غداراً فكن انت وافياً

واصرح من ذلك قوله :

رحلت فكم باكٍ باجفـان شادنٍ
علي وكم بـــاكٍ باجفان ضيغم

ويضيف الاستاذ محمود محمد شاكر ان رثاء المتنبي لخولة بعد ان بلغه خـــبر وفاتها فيه لوعة لاذعة لا يحس بها الا من احب .

وايا كان حظ هذا التعليل من الصواب فالذي لا شك فيه ان المتنبي قـد اخلص الود لسيف الدولة وانـه ظل يذكره في شعره حفياً وفياً وان سيف الدولة بـذل جهده ليسترضي المتنبي ويعيده الى بلاطه كسابق عهده فلما يئس من ذلك ظل يلاحقه بالهدايا الثمينة توكيداً لتقديره ومحبته .

لقد انسقت طويلاً مـع الذكريات الادبية والتاريخية وكيف لا انساق وانا اقف عند المكان الذي ازدهر فيـه الشعر في بلاط سيف الدولة وها هي دار ملتقاهم خراب ومستواهم تحت الثرى - والسعيد منهم من بقي قبره قائمـاً يدل عليه - وليس لسيف الدولة الذي جمعهم حـوله وانطقهم بره بالبديـع المطرب شعراً ونثراً وفناً بقية دار او قبر يزار !.

نعم لقد خلت حلب كلها من اثر لسيف الدولة الا قاعـة العرش في القلعة التاريخية والتي كانت مقراً لكل من سبقه او جاء بعده ممن حكموا ذلك البلد .

أين دفن سيف الدولة ؟ وأين قـبره ! لا احد يجيب ؟ ان معاوية بن ابي سفيان – وقد أسيت له بالامس في دمشق – اسعد حظاً فان قبره معروف ولم يبق الا ان تـبر دمشق بوعدها وتشيد عليه ضريحاً يليق بالرجل العظيم مؤسس الدولة الاموية في ربوعها .

غفرانك اللهم.. ما لي اسأل عن قبر سيف الدولة وقد خلده شعر المتنبي على مدى الاجيال والقرون فقد بـنى المتنبي لسيف الدولة ضريحاً خالداً ابقى على الدهر من كل هـذه الزخارف التي شهدتها على القبور .. وهل علم اولئك الذين احصوا هبات سيف الدولة للمتنبي فوجدوها خمسة وثلاثين الف دينار في اربع سنوات ان كل ما ملكه سيف الدولة في دنياه ذهب هباء ولم يبق له من اثر الا في شعر المتنبي ؟.. وانه لو وهبه جميع ما في يديه لما كان شيئاً ازاء هذا الخلود الادبي الذي وهبه المتنبي له ؟

وغادرنا المكان الخالي الا من مزار الشيعة لرأس الحسين الذي جاء بـه الى هنا ابن الجوشن من كربلاء في طريقه الى دمشق لو صح ما روي عن هـذه الواقعة – ونظرت نظرة اخيرة للتل الصغير الذي كان بجانبه قصر سيف الدولة حيث كان يلتقي اقدر شعراء وكتاب وفناني ذلـك العهد . ذهبوا كلهم ولم يبق غير الكلم الطيب الذي حفلوا به وعاش سيف الدولة علماً حياً من خلال هـذا الكلم الطيب .. من اجل هذا قدس الناس الكلمة ومجدوا الفن .

جولة في حلب

واتجهت مع رفيقي لنقوم بجولة حول حلب ، وهنـا يجدر بي ان أقف قليلاً لأقدم لكم هذا الرجل الشهم الذي أبى الا أن يطوقنا بجميله فيلازمنا طوال فترة بقائنا في حلب ويطوف بنا على كل معالمها ، ذلكم هو السيد ناظم الجابري مدير الآثار والمتاحف في حلب ، وكنا قد قصدناه في مكتبه لنسترشد به ، ومـــا كدنا نتعرف اليه ، ونتجاذب الحديث معه ، حتى أصر على ملازمتنا في تجوالنـا بالمدينه ، وفي تعريفنا بكل معالمها التاريخية ، وأفاض علينا من كرمه ما يتضاءل بجانبه الشكر والحمد .

والسيد ناظم من أسرة الجابري المعروفة هناك ، وهي اسرة كريمة لها تاريخ وطني ناصع ، فعمه سعدالله الجابري من أقطاب الحركة الوطنيـة في سوريا وهو ثاني رئيس لسوريا في عهدها الوطني ، وقد أفادنا السيد ناظم بحقيقة تاريخيـــة طابت لها نفسي ، فقد قال لنا ان لهم أهلاً بالسودان ، اذ ان قبيلة الجابري جاءت من البلاد العربية الى السودان أولاً ، وتركت فيه جانباً منهـا ، تكونت منهم قبيلة (الجوابرة) المعروفة عندنا ، ورحلت البقية الى مصر ، ثم الى ليبيا وفي كل من البلدين تركت جماعة منها ما تزال تحمل اسم القبيلة ، وهاجر بعضها الى سوريا ، ومنهم اسرة الجابري التي ينتمي اليها مضيفنا الكريم .. اذن هناك وشائج عربية قوية تجمع بين الجابري وبلادنا جعلتـه يهش للقائنا ويمنحنا من وقته وكرمه مـا

جمل أيامنا في حلب وضيئة مشرقة لم نحس فيها بالغربة .

وكان اول ما رجوته منه ان يقودنا الى سوق حلب الشعبي ويسمونـه هناك (السوق المغلق) وسرنا اليه فوجدته في اطرف الاسواق الشعبية التي شهدتها .

وقد سمي المغلق لان سماءه مسقوفة كلها ، وقـد قامت على جانبي الطرق الضيقة الحوانيت الصغيرة متراصة ، والمسافة بين الجانبين لا تتجـاوز في أحسن حالاتها الثلاثة أمتار ، يتعذر السير خلالها لكثرة الرواد الذين يمثلون مختلف الازياء والاعمار والسحنات .. وفي السوق كل ما يخطر وما لا يخطر على البال .. وكلما سرت فيه وجدته يمتد امامك حتى تظنـه بغير نهاية .. ولا ترى للسماء أثراً كلما رفعت ناظريك . قال لي السيد الجابري ان هذا السوق لو امتدت حوانيته على شارع واحد لبلغ طولها واحداً وعشرين كيلومتراً !.

وقادنا السيد الجابري من خلال طرقات هذا السوق العجيبـة ، الى جامع حلب الكبير ، او مسجد زكريا ، الذي انشىء في العهـد الاموي وينسب الى الوليد، وبعضهم يقول ان بانيه هو سليمان بن عبدالملك ، وقد أراد ان يترك أثراً في حلب لا يقل عن أثر أخيـه في دمشق ، وقد انشأ أخوه المسجد الأموي المعروف ، وقد جدد بنـاء هـذا المسجد سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ ، واحترق الجامع سنة ٦٨٤ هـ ثم جدد بناءه الملك الناصر محمد قلاوون في اوائل القرن الثامن الهجري .

ودخلنا المسجد وأدينا التحية وأخذنا نتأمله ، يبلغ طوله مائة متر وعرضه خمسة وعشرون متراً وقد تراصت أعمدته الرخامية في خطوط مستقيمة ، وزخرف السقف بروائع النقوش ككل المساجد هنا وفي الجانب الجنوبي منه يرتفع ضريح سيدنا زكريا نحو الاربعة امتـار ، وباب الضريح من قضبان النحاس المحلاة بالزخرفـة الجميلة وقـد كلل من الداخل بقطع كبيرة من الجوخ ، وامتلأت واجهة البـاب بالعديد من الآيات القرآنية في أولها الآية (وكلما دخل عليها زكريا المحراب ..)

.. ان امام المسجد وهو عالم وقور وكان يطوف معنا ويحدثنا عن تاريخ المسجد يؤكد لنا ان هذا القبر يحوي جدث سيدنا زكريا ...

منبر المسجد رائع كل الروعـــة ، من خشب الابنوس المطعم بالعاج مزين بزخارف هندسية جذابـة ، وهو نفس المنبر الذي صنعـه الملك الناصر في أول القرن الثامن الهجري عندما جدد بناء هـذا المسجد .. على جدران المسجد لوحات عليها آيات قرآنية بخطوط مختلفة جميلة جداً .

وغادرنا المسجد ، وعدنا بالطرق الضيقـة التي تشق السوق المغلق الذي لا تستطيـع ان تعبره الا راجلاً ، فلا مجال لسيارة تخترقه قط ..

ووقف بنا الصديق الكريم عند مسجد صغير لنرى قبر السهروردي، فرأينا منبراً متواضعاً يرتفع عن الارض قليلاً ولا شيء عليه من الزخرف .. أليس هو قبر فيلسوف ؟ .

والسهروردي احد ضحايا حرية الفكر ، فقد علق بالفلسفة اليونانية وانبهر بما وجد عند سقراط وأفلاطون وفيثاغورس ، وضاق به ذرعاً فقهـاء حلب . وكان عليها آنذاك واليـــاً الظاهر بن صلاح الدين الايوبي فشكوه اليه ورموه بالزيغ والالحـاد وطالبوا بقتله – فرفع امره الى ابيـه صلاح الدين الأيوبي وكان بدمشق فأمره ان ينفذ فيه حكم الفقهاء .. وقتل السهروردي .. وقيل انصلاح الدين ندم على ذلك ندماً شديداً .. وكم ود التاريخ لو انه لم يسجل لصلاح الدين ما فعله بالسهروردي !

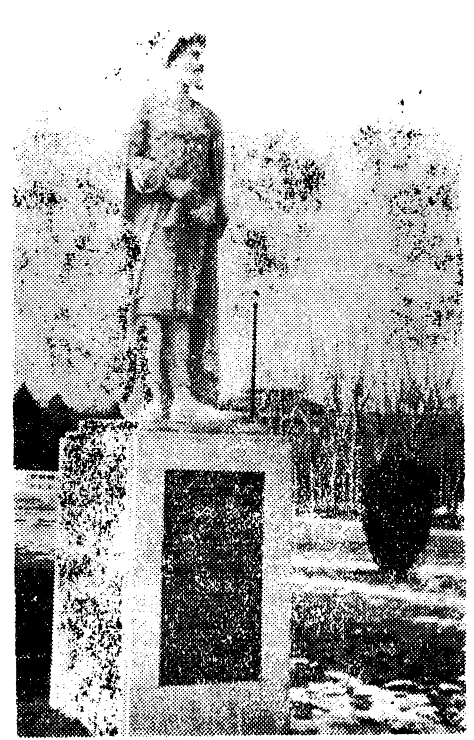
وعدنا الى السيارة لنواصل تجوالنا بين شوارع المدينة الجميلة التي كان كلشيء فيها يجذبنا اليها وانبعثمن مذياع السيارة صوت نسائيأخاذ استهواني وصاحبي فأرهفنا آذاننا لنستمع اليه في شغف ، وكانت كلمات الاغنية واضحـة والاداء رائعاً ، كان مطلع كلمات الأغنية التي حفظتها لفرط وضوحهـا وعذوبة صوت المغنية :

أيام وسنين سمعت أنين
من قلب حزين ضناه السهر
من عشر سنين يا أبو قلب ضنين
ضاع العمر

والتفت الى مضيفي ، السيد الجابري، وسألني،أعجبتك الأغنية أمالصوت؟ فرددت وأنا ما زلت مأخوذاً : بكليهما أعجبت !.. وفوجئت به يقول ، انها من كلماتي .. وعندما جلسنا اليه في داره بعد تجوالنا ذاك . أخرج لي بمجموعة من الصحف السورية وفيها صوره وكلماته الغنائية ، وكانت هذه احداها وقد نشرت بجانبها صورة الحسناء التي كانت تشدو بها من المذياع .. وفي هذه الليلة الحلوة عرفت ان مدير الآثار والمتاحف في حلب ، ليس شاعراً فقط بل هو أيضاً موسيقي فنان يجيد العزف والتوقيع على أكثر من آلة موسيقية. شد ما أكبرته وأحببته !.

أحسبني قد قفزت الى النهاية دون أن أكمل معكم جولتي في حديقة حلب الحديثة ، التي يقول عنها أهل حلب انها أجمل حديقة في كل الشرق العربي .. ولا أدري أهي مبالغة أم حقيقة ، فأنا لم يتح لي أن أرى كل حدائق الشرق العربي،ولكن حديقة حلب مدهشة حقاً ، وأجمل ما فيها أن كل نوع من الشجر أو الزهر قد خصص له مكان وحده ، وزينت طرقاتها المرصوفة بالنافورات العديدة ذات الأحجام المختلفة ، وأرضها كلها سندسية مخضرة ، وفي أطرافها [illegible] كازينوهات ، راقية لمن شاء الجلوس ، وليس الشجر والزهر والماء هو كل الجمال في تلك الحديقة ،فهناك فتيات حلب كالاقمار وان حاولن ستر وجوههن الفا[illegible] بهذا الحجاب الشفاف الذي يضاعف من فتنة الجمال بدلاً من أن يخفيه .. [illegible] مرد وضوح الجمال في حلب أنها موطن أجناس عديدة، فهي تتصل بتركيا و[illegible] بأهلها ، وفيها أضخم جالية للأرمن،وهم وطنيون يعتزون بحلب ولا [illegible] واضح بينهم وأهلها العرب .

وعندما أردنا أن نغـادر الحديقة الرائعة واتجهنا الى أحد أبوابها، راعنا تمثال ناطق للشاعر أبي فراس الحمـداني ، ابن عم سيف الدولة، والتمثال هدية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وقد كتب على قاعدة التمثال (شاعر حلب وفارس بني حمدان ، ولد عام ٣٢٠ هـ ، وتوفي ٣٥٧ هـ) ثم بيت الشعر المعروف لأبي فراس:



تمثال ابي فراس الحمداني امام حديقة حلب

ونحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقلت لصاحبي : لعل التعصب لحلب وأبو فراس من أبنائها — هو الذي دفعكم لتكريمه بهـذا التمثال، وأغفلتم أبا الطيب المتنبي الذي خلد مدينتكم واميرها سيف الدولة بشعر لا يرقى اليه شعر أبي فراس ، ولكن المتنبي من العراق وابا فراس ابن حلب !.

وعدنا الى دار السيد الجابري ليمتعنا بفنه ونستمع الى شعره ، وكانت تلك آخر ليالينا في حلب ، وهل انسى وقد اقلتنا السيارة في الصبـاح الباكر ان وجدنا السيد الجابري في انتظارنا ليودعنا وفي يديه هداياه الثمينة.. وهل ننسى ذلك الصديق الذي تعرفنا اليه في متجره فجاء ليودعنـا وفي يديـه ايضاً هدايا لأطفالنا في السودان وهو يعلم انا قد لا نلتقي بعد؟!.. اللطف والايناس واحترام الغريب هي طابع هذا الشعب العربي اينما لقيناه .

وتحركت السيارة وكادت الدموع تطفر من عيني وهذا الصديق النبيل يلوح لنا بكلتا يديه مودعاً .. وابتعدنا من حلب وفي اذني صدى ذلك الصوت الملائكي يضاعف من شجوني وحنيني :

ايام وسنين سمعت انين
من قلب حزين ضناه السهر
من عشر سنين يا ابو قلب ضنين
ضاع العمر



لحظات لا تنسى

مع ابي العلاء في المعرة

غادرنا حلب في الصباح الباكر وبنا شوق ملح الى معرة النعمان لأقف حيث كان يعيش وحيث وسد الثرى هذا الرجل الذي كلفت بـه منذ ان تفتح ذهني لقراءة الادب ، ومن غير ابي العلاء يستأثر باللب ويملأ اقطار النفس ؟

ورحم الله صديقي واستاذي محمد سعيد العباسي الذي هداني وأنا في فجر عهدي بالقراءة والتحصيل الى روائع المعري في ديوانيه، سقط الزند واللزوميات عندما كنا نلتقي معاً في بادية الكبابيش،وقد ادمنت قراءة شعر المعري وكتابه رسالة الغفران حتى حفظت اكثره عن ظهر قلب واستوعبت معانيـه بعد كد وجهد ، فليس المعري بالذي تجد معانيـــه سهلة ملقاة على قارعة الطريق ، فهو يغلفها في هذه الالفاظ الحوشية الغريبة ، وقد قال عن ذلك الدكتور طه حسين ان ابا العلاء كان يتعمد هذا ليصرف الناس في عصره عن تتبع معانيـه ويشغلوا بهذا الغريب ، ذلك لأن ابا العلاء كان متهماً في معتقداته الدينية .

وقد ادمنت قراءة المعري حتى خيل اليّ اني لم أعد اقرأ له في الورق ، وانما استمع الى صوته يحدثني جهيراً ، وأتطلع الى وجهه المجدور الذي لو بعث اليوم

حياً بين الناس لما اخطأت معرفته .

وقد كنت أكره من سائقي السيارات هنا سرعة اندفاعهم الى حد يخيف ويثير الفزع احياناً وخاصة عندما يمتلي الطريق جبلا او سلسلة من الجبال تنظر من تحتها الى هوات عميقة لا سبيل الى الحيـــاة اذا اخطأت السيارة او أصابها حادث ما وسقطت فيها . ولكني حمدت آنذاك لسائق سيارتنا اندفاعه وهو يطوي الارض طياً نحو المعرة ، تلك المدينة الصغيرة التي احبهـــا ابو العلاء كل الحب ، وقد تمثلته وهو في « الكرخ » ببغداد ، عندما اصبح علماً يقصده الناس ليفيدوا من علمه وأدبه ، كيف كان يحن حنيناً موجعاً باكياً لهـــذه المعرة ، فيخاطب « البرق » علّه يمن عليه بقطرة من مائها تروي ظمأه اليها ، فيقول :

فيا برق ليس « الكرخ » داري وانما
رماني اليـــه الدهر منـــذ ليالي
فهـل فيك من مـاء المعرة قطرة
تغيث بهـا ظمآن ليس بسالي

ويلتفت الى اخوانه بين نهر الفرات وجلق «دمشق» حيث تقع معرة النعمان التي كانت سيارتنا تخطف الطريق اليها ، وليؤكد لهم انـه على العهد سالم باق ، وان وجهه لما يبتذل بسؤال الناس في العراق :

أأخواننا بـين الفرات وجلق
يد الله ، لا خبرتـكم بمحال
انبئـكم اني على العهـد سالم
ووجهي لمـا يبتـذل بسؤال

وانه ليبلغ الذروة في هذا الحنين للمعرة اذ يتمنى ان تحل الخمر فلعل احتساءها يجهله كيف اطمأنت به الحال في كرخ بغداد بعيداً عن المعرة :

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة

تجهلني كيف اطمأنت بي الحال

فأذهل اني بالعراق على شفا

رزى الأماني ، لا أنيس ولا مال

مقلٌ من الأهلين ، يسر واسرة

كفى حزناً ، بين مشت واقلال

فيـا وطني ان فاتني فيك سابغ

من العيش فلينعم لساكنك البال

فان استطع في الحشر آتيك زائراً

وهيهات لي يوم القيـامة اشغال

وقد انثالت الخواطر وتداعت ، ورأيتني وانا اذكر هـذا الشعر العذب ، أتمثل ايضاً شاعراً سودانيـاً شعبيـاً ، هو (الحردلو) وما احسبه قرأ للمعري فتأثر به ، يقول الحردلو في احدى روائعه الشعرية ، وقد طال مكثه في مدينة (رفاعة) وطال وجده وحنينه للبطانة ، البادية ، موطن صبواته ومهد لذاته ومصدر مسراته ، وينظر الى حاله وهو في رفاعة — لا أنيس ولا مال — كما قال المعري وهو في العراق يتحرق شوقاً للمعرة .. فيقول :

ان سألونا نحن قعادنا شن اسبابه

لا مصروف ولا زولاً بنسلابه

فأنت تراه قد جاء بمعاني المعري حذوك النعل بالنعل، ولعل هذا ، كما يقول الأقدمون من باب توارد الخواطر كما قد يقع الحافر على الحافر !.

ولا يطيق المعري المكث في بغداد فهو يتلهف للمعرة ليرى امه ، وكان تواقاً لرؤيتها شديد الحنين اليها وكانت لا تريد سفره الى بغداد ولا تريم بعده عنهـا ، وقد نقل اليه انها مريضة ، فخف للسفر جازعاً عليها .. ولكن الموت يعاجلها

قبل ان يلتقي بهـا ، فيحزنه ذلك حزناً عميقاً ، ويبكيهـا من قلبه ومآقيه وشعره :

مضت وقد اكتهلت فخلت اني
رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيـا ركب المنون أما رسول
يبلغ روحهـا أرج السلام ؟

ويدنو ركبه من المعرة ، كدنونا نحن منها ، ولكننا نقترب منها ونحن غرباء عليها وعلى اهلهـا الا من ابي العلاء ، فبيننـا وبينه وشائج وقربى من الفكر لا انفصام لها . ويقترب هو منها وفي نفسه ان يعتزل الناس قاطبة ويعيش منطوياً في داره ، رهـين المحبسين ظلام عينيه وظلام داره الموحشة من الناس لو استطاع الى صدهم عنه سبيلاً ، فهو يخشى من اهل المعرة أن يدفعهم حبهم له واعجابهم بمكانته التي نالها ، ان يزحموا عليه الدار التماساً لحديثه ، وانتفاعاً بعلمه وادبه، فيكتب اليهم رسالة وهو في الطريق اليهم يرجو منهم الا يجشموا انفسهم لقاءه ، فانه يريد الخلو لنفسه .

وما احسن ان نقف عند بعض فقرات هذا الخطاب لننعم بشيء من نثره الفني ولنرى كيف كان مشفقاً من ان يحتشد حوله اهل المعرة الذين كان كلفا بلقائهم وهو في بغداد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب الى السكن المقيمين بالمعرة ، شملهم الله بالسعادة. من احمد بن عبدالله بن سليمان خص به من عرفه وواتاه، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ولم شعثها ولا آلمها .. اما الآن فهذه مناحاتي اياهم منصرفي عن العراق مجتمع اهل الجدل ، وموطن بقية السلف بعد ان قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر اشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت اوفق مـا اصنعه في ايام الحياة ، عزلة تجعلني من الناس

كبارح الأروي من سانح النعام، وما ألوتُ نصيحة لنفسي ، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة الى حيزي .. فاجمعت على ذلك واستخرت الله فيه ، بعد جلائه مع نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً ، وعده اذا تم رشداً .. وبادرت اعلامهم ذلك ، مخافة ان يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي سكناه ، فيلقاني فيه فيتعذر ذلك عليه ، فاكون قد جمعت بين سمجين ، سوء الادب وسوء القطيعة ، ورب ملوم لا ذنب له ، والمثل السائر « خل امرءاً وما اختار » .



مدخل دار المعري
او مركز الثقافي العربي

ولكن الخطاب كما حدثوا لا يبلغ اهل المعرة ، الا ان ابا العلاء ينفذ ما اعتزمه فيدخل الدار ولا يبرحها ، ويضيف الى محبسيه ، الدار والعمى ، محبساً ثالثاً لا قدرة له عليه ، سجن الروح في الجسد ، فيقول :

اراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ، ولزوم بيتي
وكون الروح في الجسد الخبيث

واقتربنا من المعرة وقد تراءت لنا المزارع والمروج من حولها كأنما فرش على الارض حرير اخضر .

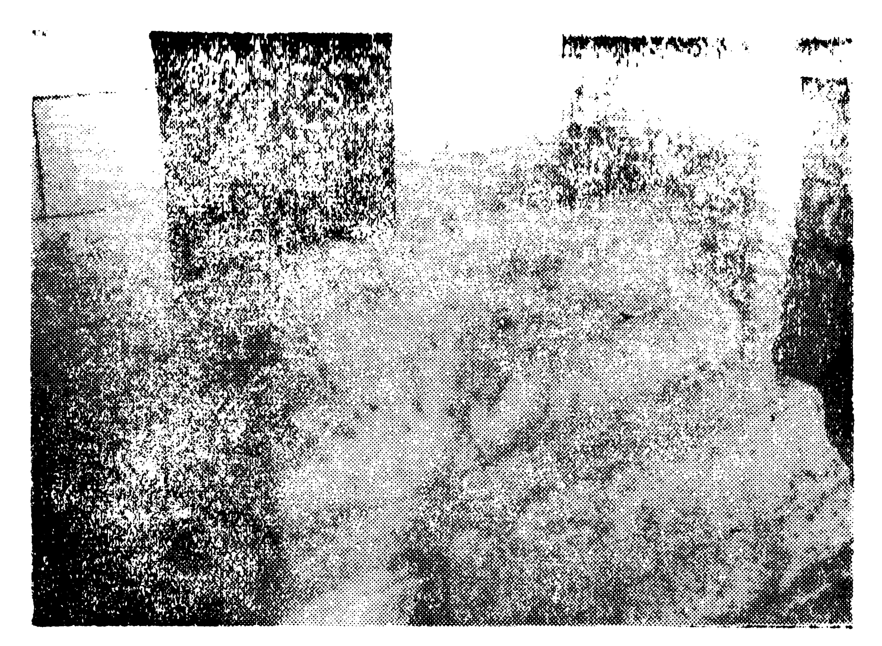
وبلغنا المدينة الصغيرة ، واحسست اني ادخل مكاناً اعرفه ، الم يعش هنا ابو العلاء ؟ اليس هؤلاء الذين يتطلعون الينا متسائلين اهله ورهطه ؟!

ووقفت بنا السيارة في السوق ، وقد بدت صغيرة لا تموج بالحركة كما كنا نشهد في كبريات المدن هنا ، والتف حولنا بسرعة عدد من الناس عليهم سمات الوداعة واللطف ، هشوا للقائنا وبشوا ، ولم نتح لهم فرصة اطالة الحديث معنا ، فقد كنا عجلين لنلقى ابا العلاء في مرقده ، ونعيش سويعات في داره حيث كان يعيش فسألناهم اين نلقى ضريح ابي العلاء ؟ .. وامتدت الايـدي تشير الى مكان قريب خلف السوق ، وكانوا يتسابقون في الاشارة والتوجيه ، كان كل منهم يريد ان يكون له فضل ارشادنا الى ابي العلاء .. حق لأبي العلاء ان يحب اهل المعرة !.

لم تكن الدار بعيدة ، فقد بلغناها في يسر .. اي رهبة احسست بهـا وانا انزل من السيارة واتجه الى دار ابي العلاء التي عاش فيها حياته وتوسد ثراها بعد ان فارق الحياة، وكأنما أراد ان يبر بوعده ان يظل رهين محبسها حياً وان يبقى جدثه رهين ثراها ميتاً .

ووقفنا برهة امام الدار ، انها ليست كما عهدها ابو العلاء ، انها الآن « دار الحكمة العلائية» او كما خط على واجهتها في لافتة كبيرة «المركز الثقافي العربي» ، ولهذا حديث نرويه فيما بعد ... اما الآن فلندخل الدار ولا نطل الوقوف عند بابها لنحيي ابا العلاء في مرقده ..

ودخلنـا الى فناء الدار لنرى في وسطه قبراً حجرياً صغيراً قديم المظهر ، يرتفع عن الارض متراً واحداً ... سبحان الله أهنا يرقد ابو العلاء ؟.. ووقفنا عنده خاشعين نتأمل القبر الصغير الموحش الخالي من اي زخرف . قال لنا هؤلاء



قبر أبي العلاء في فناء الدار

الشبان الذين خفوا الينا من داخل المركز الثقافي وحيونا في حرارة بالغـة ، ان القبر ما يزال على حالته منذ ان دفن فيـه ابو العلاء ، لم تمتـد اليه يد باصلاح او تنميق احتراماً لوصية ابي العـلاء .. فقد طلب ألا يبنى على قـبره شيء من زخارف الدنيا ، وما وماذا يريد ابو العلاء بزخرفها ميتاً وقد اجتواه حياً ؟

واصعد بصري بين القـبر الصغير الموحش ، والفنـاء الذي حوله حيث كان يعيش ابو العلاء ويحبس نفسه في هذه القطعة الصغيرة من الارض ، لم يغـادرها الا مرة واحدة عند توسل اهل المعرة اليه — وقد أحاط بهم غازياً امير يسمى صالحاً ، قيل انه كان تلميذاً لأبي العلاء — ان يذهب اليه شفيعاً لينصرف عنهم ، وذهب اليه وقبل الرجل شفاعته وصد عنهم .. ولكن هذه الشفاعة التي اضطرته الى الخروج من هذه الدار تحز في نفسه فيقول :

بعثت من القوم الى صالح
وذلك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام
واسمع منه زئير الأسد .

لقد احترم اهل المعرة وصية ابي العلاء وقد رجاهم ألا يكرموا جسده اذا ما حل به ريب المنون فلا كرامة للجسد ..

لا تكرموا جسدي اذا ما حل بي
ريب المنون فلا كرامة للجسد
وأروه من قبل الفساد فانه
جسم اذا فقدت حرارته فسد

وأخذت امعن النظر في القبر المتواضع لأحاول قراءة ما كتب بالخط الكوفي على جانبيه فلا استطيع ، لأن الطريقة التي كتبت بها الكلمات غير مألوفة لدينا .. حدثني الشبان الذين أحاطوا بنا ونحن وقوف حول القبر والذين يديرون « المركز الثقافي العربي » الذي أقيم في دار ابي العلاء تخليداً لذكراه ، ان هذا الخط المكتوب على القبر استقدم له خبير خاص بالخط الكوفي ليفك رموزه.. واستطاع الخبير ان يصل الى ذلك : ففي جانب من القبر كان مكتوباً « ابو العلاء احمد بن عبد الله سليمان » ، وفي الجانب الآخر كتب (احمد المعري رحمه الله)، ولا شيء سوى هذا ، وسألت من معي من اهل المعرة ، أين بيت الشعر الذي قيل انه أوصى بأن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي عليّ
وما جنيت على احد

فاني لا أرى له أثراً على القبر .. فقالوا : من المرجح أن يكون الفرنسيون – عند احتلالهم لسوريا – قد نقلوه الى متاحفهم التاريخية في فرنسا .. ولم

اطمئن لهذا الاتهام كل الاطمئنان .. ومن يدري فقد يكون البيت لم يكتب ، وان قصته موضوعة ، فاني لا أرى على القبر أثر نزع حجر منه ..

ترى هل اطمأنت نفس هذا الفيلسوف القلق؟ وهل عرف ذلك السر المجهول الذي طالما عناه واضناه في الحياة ؟.. قم أبا العلاء حدثنا فطالما تاقت نفسك أن يقوم من اهل البلى مخبر يحدثك ، هل فاز بالجنة العاملون لها ؟ وهل ثوى في النار (نوبخت) ؟ وما نوبخت الا الرمز لأولئك الذين لم يؤمنوا :

لو جاء من أهل البلى مخبر
سألت عن قوم وارخت
هل فاز بالجنة عمالها
وهل ثوى في النار نوبخت ؟
وهيهات ان يعود من أهل البلى مخبر

لكم تزاحمت عليّ الخواطر أمام قبر أبي العلاء ، وكان اكثرها الحاحاً عليّ أن رأيت قبر الفيلسوف خالياً من آية قرآنية واحدة تكتب عليه ، ولم يحدث أن رأيت قبراً في كل طوافي هذا الا وعليه آيات من القرآن . أترى ان دافنيه تأثروا بذلك القلق الروحي والفعلي عند المعري ويقينه المضطرب فلم يشاءوا ان يرطبوا قبره ببعض آي القرآن ؟

وفي اعتقادي — وكل الذين قصدوا لدراسة ابي العلاء — انه كان يؤمن بالله ايماناً عميقاً لا يتطرق اليـه الشك قط .. ويتضح هذا الايمان جلياً في ما كتب ابو العلاء في شعره ونثره ، والشواهد غير قليلة ، تأتي هنا بقيا منها كقوله في اللزوميات :

ادين برب واحد وتجنبي
قبيح المساعي حين يظلم دائن

وقوله :

اذا مدحوا آدمياً مدحت
مولى الموالي ورب الذمم
وذاك الغنى عن المادحين
ولكن لنفسي عقدت الذمم
له سجد الشامخ والمشمخر
على ما بعرنينه من شمم
ومغفرة الله مرجوة
اذا حبست اعظمي في الرمم

ولعل الله غفر له وحقق رجاءه وقد صارت اعظمه في الرمم ..

ولكن ابا العلاء يتشرك في هذه الأديان ، وفي الرسل والأنبياء ، فيتساءل عنها تارة حائراً ، وتارة نافراً ، وآفة ابي العلاء في هذا انه وهب عقلا ذكياً ذكاء خارقاً ، فأراد – كما قال طه حسين – ان يخضع كل شيء لهذا العقل ، وهيهات ان يحيط العقل الانساني بكل شيء ، وخاصة عندما يفكر في امر لا يتعلق بما يقع في دائرة الحس ..

وكما يتجلى ايمان المعري بربه في كل شعره ونثره ، تتجلى شكوكه وحيرته وقلقه عن الاديان والرسل في كل شعره ونثره ايضاً .. اسمعه يتساءل حائراً يصف اصطراع الديانتين – الاسلامية والمسيحية – في مدينة (اللاذقية) وهي مدينة صغيرة لطيفة ، تجاور المعرة ، وتلاصق البحر فيقول :

في اللاذقية فتنة
ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق
وذا بمئذنة يصيح
كل يؤيد دينه
يا ليت شعري ما الصحيح

وأسمعه هذه المرة لا يتشكك فحسب ، بل ينفر نفوراً شديداً مما زعم انه أباطيل) .

دين وكفر ، وانباء تقص ، وفر
قان ينص ، وتوراة وانجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها
فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه) .. «ومصدر الشقاء المتصل الذي ألح على أبي العلاء نحو خمسين سنة من عمره ، وهو ان الله لم يهده الى الايمان بالنبوات ، لم يؤمن بها ، ولكنه في الوقت نفسه لم يقطع برفضها كلها ، وانمـــا كان يسأل نفسه بين حين وحين : من يدري ؟ لعل بعض هذه النبوات حق ؟ ولعل بعض ما جاءت به صحيحاً ؟ اذن فويل لي ان صح مـــا جاءت به » .. ولهذا فهو يقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت : اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر
او صح قولي فالخسارة عليكما

طهرت ثوبي للصلاة وقبله
طهر ، فأين الطهر من جسديكما

وذكرت ربي في الضمائر مؤنساً
خلدي بذاك ، فاوحشا فلديكما

ولكن هذه الومضة من الايمان بما جاء بـــه الرسل سرعان ما تنطفىء ، فيجاهر بان ما جاء به الرسل وما قالوا للناس لم يكن غير قول زور سطروه :

ولا تحسب مقـــال الرسل حقاً
ولكن قـــول زور سطروه

وكان الناس في عيش رغيد
فجاءوا بالمحـــال فكدروه

وان كان عقل المعري الذي كان يقوده الى متاهات بعيدة لم يطمئن الى حقيقة رسالات الرسل والانبياء فهو نافر قلق حائر ، فانا نجـده اشد نفوراً من ان يتبع اقوال الفقهاء والعلماء مقلداً .. ان عقله – كما قـــال – ينفر غاضباً من هـذا :

وينفر عقـــلي غاضباً ان تركته
سدى، واتبعت الشافعي ومالكا

ومع هذا النفور والحيرة والقلق كلما ذكر الانبياء والرسل والفقهاء فـــان ايمانه العميق بالله تعالى يزداد رسوخاً في نفسه القلقة الحائرة كلما مرت به الايام، فهو يقول عندما بلغ الخمسين من عمره :

اذا بلـغ الانسان خمسين حجة
فـــلا يتهم دينـا برد سلام

ليشغل بذكرى الله عن كل شاغل
فذلك عند اللب خـــير كلام

وامر آخر كان يقلق المعري كل القلق ، مصير الانسان بعد الموت ؟ فهو ما فتيء يسأل حائراً عن هـذا المصير .. وهذا القلق نابع من ذلك النفور الذي تملكه من عدم تقبل ما جاء به الرسل والانبياء ، فلو آمن بما جاءوا به ، لمـا عناه التساؤل المضني عن هذا المصير ، فالحقيقة الوحيدة عند ابي العلاء هي انـه ذاهب عن هذه الدنيا ، والله وحده هو الذي يعلم مصيره بعد الذهاب :

امـا الحقيقة فهي اني ذاهب
والله يعلـم بالذي انا لاق
واظنني من بعد لست بذاكر
مـا كان من يسر ومن املاق
يا مرحباً بالموت مـن منتظر
ان كان ثم تعارف وتـلاق

فهو على يقين من نهاية كل حي ولا شيء غير انظنون عما وراء ذلك ..

دفنـاهم في الارض دفن تيقن
ولا علم بالارواح غـير ظنون

هل زالت ظنونك يا ابا العلاء واستراحت نفسك الى برد اليقين ؟

واني لأذكر الآن على البعد هؤلاء الشبان من فتيـة المعرة وهم حولي يحدثوني فأسمع منهم تارات وانصرف تارات الى خواطري وأتحدث الى ابي العلاء كأنه يسمعني . وأنظر مرات الى القبر الصغير القديم والى الفنـاء المحيط به حيث كان ينقل خطاه وحيث كان يلقى هؤلاء الطلاب الذين أبوا ان يرحموا عزلته فشدوا اليه الرحال من مختلف البلاد بعيدها وقريبها وكان ينفق عليهم من هـذا القليل من المال الذي يدره عليه مورد ضئيل كما يشرك معه خادمه في نصفه ويعيش هو بالنصف الآخر عيشاً خشناً قاسياً . فقـد حرم على نفسه ان يأكل لحم طير او حيوان وكل ذي روح حتى ما تخرجه كاللبن والعسل. واكتفى في طعامه بالعدس والزيت والتين والدبس وحتى هذا الاخير حرمه على نفسه عندما تساقط بعضه على لحيته دون ان يدري فجـاء من سأله وقد رأى الدبس على لحيته .. أأكلت اليوم دبساً ؟ ومنذ تلك اللحظة حرم أكله وفرض على نفسه حياة قاسية لا يقوى عليها الا ذوو الرسالات السامية . وقصيدته التي حرم فيهـا أكل كل ذي روح وما يخرج منه مشهورة جلبت عليه الكثير في عهده استهلها بقوله :

١

غدوت مريض العقل والدين فالقني
لتسمع انبــاء الامور الصحائح
فلا تأكلن مـا أخرج الماء ظالماً
ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بيض امـات أرادت صريحه
لأطفـالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعن الطـير وهي غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبـائح
ودع ضرب النحل الذي وضعت له
كواسب من ازهـار نبت قوائح
مسحت يدي من كل هذا فليتني
أبهت لشأني قبل شيب المسائح

قالوا : مرض ابو العلاء مرة فألحوا عليـه ان يشرب مرق الدجاج فطهى له غلامه ديكاً وجاء به اليه فأخذه بيـديه وصار يتحسسه وهو يتأوه ألما ويردد « استضعفوك فوصفوك .. هلا وصفوا قلب الاسد ؟ » ولم يطعمه .

لقد أطلنا الوقوف حول القبر وهؤلاء الفتية الكرام من حولي يلحون علي ان ادخل المكتبة الثقافية التي أقيمت في دار ابي العلاء – والقبر في فنـائها كما وصفت – .

ودخلت المكتبة وهي غرفة واسعة امتلأت جدرانهـا الاربعة بالكتب المنوعة وطفت بها ملياً واعجبت بها كل الاعجاب وهل تخلد ذكرى ابي العلاء الا بمثل هذا ؟ وماذا نؤمل ان تقوم في داره غير مكتبة كهذه تمد الناس - كما كان يمدهم في حياته – بالنفيس من المعرفة والعلم ؟

ووقفت عند جانب من المكتبة عند صورة زيتية رائعة للمعري رسمها فنان

عربي ذكرتني بصورة اخرى اكثر روعة لأبي العلاء في متحف دمشق .

وبعد طوافي على المكتبة الرائعة جلست مع فتية المعرة وقد أكرموا وفادتي وزميلي وأخذوا يحدثوني عن تاريخ هذه المكتبة ولم ادهش عندما علمت ان فكرة انشائها ترجع الى الدكتور طه حسين – مد الله في عمره – وكلنا يعرف مدى ولع الدكتور طه بالمعري وافتتانه به – ولا عجب فكلاهما مثل فريد نادر . ففي العيد الالفي لأبي العلاء جاء الى المعرة والى هذه الدار الدكتور طه حسين وكان آنذاك وزيراً للمعارف في عهد وزارة النحاس باشا . وكان قد أقيم في الحفل حفل ضخم لمناسبة مرور الف عام على ذكرى المعري فألقى طه حسين كلمة من كلماته التي تدخل الاذن والقلب معاً وتستقر فيهما – وما زال اهل المعرة يتحدثون عنها كأنما سمعوها بالأمس – وفي هذه الكلمة اقترح ان تنشأ في الدار مكتبة ثقافية باسم ابي العلاء وشفع اقتراحه بما يحققه عملياً ان أعلن عن تبرع حكومة مصر بمبلغ الف جنيه كنواة للمكتبة .. واخذت حكومة سوريا على عاتقها تحقيق الفكرة . وقامت المكتبة العامرة لتصل رسالة ابي العلاء في الحياة ويجلس اليها هؤلاء الشبان كما كان يجلس اخوان لهم من قبل حول ابي العلاء الشيخ الفقير من المال والغني بالعلم فينفق عليهم من رزقه وعلمه دون ضجر وكأني به جالس حيث اجلس مع شباب المعرة نتحدث عنه ونعطر جلستنا بذكراه ينظر الى تلامذته اولئك ويهمهم بهذا الشعر :

يزورني القوم هذا ارضه « يمن »
من البلاد وهذا داره « الطبس »
قالوا سمعنا حديثاً عنك قلت لهم
لا يبعد الله الا معشراً لبسوا
يبغون مني مبنى لست احسنه
فان صدقت عرتهم أوجه عبس
ماذا تريدون ؟ لا مال تيسر لي
فيستماح ولا علم فيقتبس

أتسألون جهولاً ان يفيدكم ؟
وتحلبون سفياً ضرعها يبس ؟
انا الشقي بأني لا أطيق لكم
معونة وصروف الدهر تحتبس

ثم يستبد به القلق شوقاً الى المجهول فينصرف عنهم ويعمل عقـله جاهداً فيعود اليه كليلاً فيتنهد الشيخ ويقول :

اما اليقين فلا يقين وانمـا
اقصى اجتهادي ان اظن واحدسا

وخرجنا من المكتبة لنقف الوقفة الاخيرة عند القبر الصغير المجدور كوجه صاحبه والذي ابوا عليه آية من القرآن ترطبه وقد لقي أبو العلاء ربه وهو شديد الايمان به شديد الرجاء في عفوه ولم يفعل في الحياة غير البر بالنـاس والعطف عليهم حتى امتد بره وعطفه الى الحيوان .. وكأنما أحس بأن قومـاً سيظلمونه لانهم لم يفهموه فهو يحذرهم هذا التحذير الذي ينفذ الى اعماق القلوب :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى
اني اخـاف عليكم ان تلتقوا

لقد استراح ابو العلاء وغيب في الثرى كما كان يتوق الى ذلك :

متى انا في هـذا التراب مغيب
فأصبح لا يجنى عليّ ولا اجني

وودعناه بنظرة أخيرة واجتزنا فناء الدار التي شهدت حياته الزاخرة، الدار التي شهدت حياته الزاخرة وفتية المعرة الكرام يسعون بين ايدينـا في حفاوة وتكريم حتى بلغنا السيارة وامتدت ايديهم تودعنا في حرارة ومضت بنا السيارة في شوارع المعرة المدينة الصغيرة اللطيفة التي تقوم اكثر دورها من طابق واحد

عليها طابع القدم تشغل مساحة صغيرة من الارض لا يعجز الزائر من الاحاطة بها في فترة وجيزة وهي على صغرها وبساطتها كانت عند المعري أعذب مورداً من بغداد :

وماء بلادي كان أعذب موردا
ولو ان ماء الكرخ صهباء جريال

وابتعدت المعرة عن أبصارنا واختفى القبر الصغير الذي لم تمتد اليه الايدي بزخرفة او بناء أو تجديد كما أراد صاحبه الزاهد في كل شيء في الحيـــاة وبقي المعري العملاق يعيش في التاريخ خالداً بين الشوامخ .



تجارب نادية

عندما عدت من رحلتي الاولى واخذت انشر بعض هـذه المذكرات دق جرس التلفون في مكتبي وانساب صوت رقيق يسأل عني ، فلما استوثق من انني المتحدث اخذ يفيض في الشكر والتقدير لمـا كتبت عن موطنه سورية وآثاره وحضارته ..

وفاض الحديث بيننا وكانت المتحدثة سيدة عربية ذات ثقافة لم تخطئني منذ ان شرعت في الحديث معي ، وفي ثنـايا الحديث اسمعتني شعراً عذباً حسبتها تستشهد به ، وكم كانت مفاجأتي لما علمت ان الشعر لها .

لم اكن اقدر ان يكون لها مثل هذا الشعر الرائع ولا يعلم به من شغلوا بانباء الحياة الادبية والتعرف الى كتابها وشعرائها في بلد كالخرطوم من العسير ان تختفي فيه مثل هذه الموهبة .

والشعر الجيد يستهويني ويملك عليّ اقطار نفسي فقد بدأت حياتي الادبية في الثلاثينات كاكثر شبان ذلك العهد - بقرض الشعر وحفظ روائعه قديمها وحديثها ، وكانت امنيتي ان اكون شاعراً يشار اليـــه بالبنان ، ولم أبلغ الشأو الذي كنت اريده فعدت صديقاً للشعراء استمع اليهم واروي عنهم ما يطيب لي من اشعارهم بعد ان فاتني ان اكون الشاعر الذي اتطلع اليه .

والتقينا على موعد ، بعـد ان رجوتها ان تحمل اليّ بعض اشعارها ، وخاصة ما كان متصلاً بوطنها – سورية – التي كتبت عنها في هذه الرحلة .

وعرفتها بعـد ان قدمت الي نفسها ، وتذكرت اني سمعت عنها كثيراً منذ سنوات وكنت اعلم انها ذات نشاط صحفي وكانت ملحقة صحفية لبلادها في عهد من العهود في احدى البلاد العربية ، لم يكن اسم « نادية الداغستاني » جديداً على مسمعي ، ولم يكن اسم اسرتها وبينها علماء اجـلاء وقادة ورؤساء غريباً عليّ ايضاً ، بل كان بين يدي كتاب (خطط الشام) وكان من بين محققيه احد افراد اسرة الداغستاني الاجلاء..

ولكن الجديد على ان اعرف انها شاعرة وانهـا تقول شعراً جيداً استحوذ على مشاعري – وجلسنا برهة ندير حديثاً عاماً كهذا الذي يحدث بـين كل شخصين يلتقيان لاول مرة ولكني كنت متلهفاً لسماع شعرها .

وحدثتني عن موطنها – دمشق ، وعـن الاحداث التي مرت بحياتها في الحدود التي تسمح لي بتفهم دوافع الشعر الذي اعدته لتسمعني اياه – ثم طلبت اليها ان تسمعني ، وصمتت برهة وانصرفت عني تنظر بعيداً كأنها تصيد اطيافاً عابرة ثم التفتت اليّ لتقول :

هذه قصيدة أحن فيها الى دمشق فأن شئت بدأت بها: قلت نعم حياك الله..
وبدأت تقرأ عليّ هـذا الشعر الحلو الحار العاطفة وصوتها يتهدج آونة ، وينساب الى مسمعي عذباً رقيقاً آونة أخرى :

ذكرت دمشق والعقبات دوني
ففاضت عنـد ذكراها شؤوني
فهل من مبلغ(بردى) اشتياقي
واني بعده زادت شجوني

وان النيل — وهو الشهد طعماً —
يكاد يذيقني كأس المنون
وبعد دمشق ما جدوى حياتي ؟
وهل تحلو بلا قلب حنون !
ولي قلب يحن الى رباها
ولا ينفك في اسر الفتون
هناك تركت روحي عند اهلي
بروحي هم وان لم يذكروني
وهم احلام صحوي او منامي
وهم في غربتي نور العيون
وكم من أجلهم سهرت عيوني
وكم من أجلهم كثرت ظنوني
ولكني سأبقى في اشتياق
الى (الفيحاء[1]) عالية الحصون
ولو أني سلوت دمشق يوماً
اذن لرميت نفسي بالجنون

قلت لها ، ما أشد شغفكم ببلادكم يا أهل دمشق ! والا فكيف تؤثرين بردى — وهو جدول رقراق على النيل الفائض الهادر ؟ فضحكت ، وانشدتني :

اذا قدستها وعبدت فيها
تراباً ضم أغلى ذكرياتي
وصغت لها نشيداً من دمائي
يهز صداه سمع الكائنات

---

(١) الفيحاء : دمشق .

وقبلت النبـات بهـا ولوعاً
بما حملته اعطاف النبات
فما أنا غير بلبلها المغني
وما هي غير روضي في حياتي
أرقرق كالندى فيها لحوناً
موشعة بأنوار الجمـــال
وأسكب وحيها في كل واد
رقيقاً كالاشعة ، كالظلال
وأطوي عن مآقيها شجوني
وما صنعته بي أيدي الليالي
وأترع خمرها في كأس حبي
وفيض الشاعرية والخيـــال

أهيم بوردها ولو ان فيه
من الاشواك ما يدمي بناني
وأعشق كل ساقية تروي
بأدمعها الخمـــائل في حنان
ومرأى الكوخ في عيني أبهى
من الغرف المضيئة في الجنان
وأهلوها ملائكة وان لم
يعيشوا فوق أجنحة الزمان

ألم أقل انه شعر عذب رائع ؟ انها ما فتئت تشدو بحب موطنها وتحن اليـه حنيناً موجعاً ، وعندما يغشاها هذا الحنين الممض تغفو لعلهـــا ترى دمشق في رقادها ، وتحلم بأيام الحصاد في بلدها وقد ولى نضير العمر في كنف الحصاد،وقد كان سميرها جدول يجري ونبت يضوع ، ورنوة من ثغر شاد :

أطوف في البلاد وراء رزق
ولا أنسى هواها في فؤادي
ويغشاني الحنين لها فأغفو
لعلي أجتليهـــا في رقادي
وأحلم بالحصاد وكيف ولىّ
نضير العمر في كنف الحصاد
سميري جدول يجري ونبت،
يضوع ، ورنوة من ثغر شادي

رعـــاها الله محراباً لروحي
ارتل فيه الهـــامي وشعري
فلولا حسنها ما كان شدوي
ولولا افقها ما هل فجري
أذاقتني الحيـــاة سنى وعطراً
فأشرق بالسنا والعطر دهري
وقد ذهبت منضرة الحواشي
على راحاتهـــا ايام عمري

ألا ما اجمل ان نحن الى بلادنا وان نفنى في هذا الحب، وان تمضي على راحاتها ايام اعمارنا منضرة الحواشي .

ايه يا نادية !.. ماذا بعد ؟...

لقد طال بي العهد ولم اسمع مثل هذا الشعر السلس العذب الحار العـــاطفة القوي الاسر ، ماذا بعد عن موطنك ؟

واخذت تقلب اوراقها ، وتشرد فكرها تارة بعيـداً كأنمـا تتمثل سورية امامها قطعة قطعة رياضها وارباضها ودورها وملاعب الصبا ورفاق الطفولة..

ثم انشدتني :

سوريا ، يا وطني الغالي وبي شغل
اليك يا وطني والحب متصل
لك التحية من قلب يعمره
بحبك الشوق والاخلاص والأمل
وللديار حنين في جوانحنـا
يكاد من شدة الأشواق يشتعل
تلك الربوع التي لا ينقضي شغفي
بها وقوم همو في القلب قد نزلوا
اني على البعد والتسويف من زمني
ما زال يشغلني من قربهم أمل

قالت ويكاد الدمع يشرق من مآقيها : لم أكن في موطني يوم عيد استقلاله ، فهزتني الذكرى في ذلك الصباح السعيد فقلت :

هزني الشوق فأدركت رواكا
يا صباحاً أطل منه سناكا
هزني الشوق فاستفاضت دموعي
في خشوع وحز قلبي نواكا
يا نشيداً على شفاه بلادي
يعربياً يضوع منه شذاكا
يا حبيب القلوب اي محب
ليس يرضى بأن يكون فداكا
نحن سرنا على هداك طموحاً
فاستنارت دروبنـــا بهداكا

وجذبت اوراقها وحدقت قليلاً ، ثم قالت ألا تريد ان تسمع شيئاً مما قلت في بلادكم ؟ فأجبت ما اسعدني بهذا ، ان توحي اليك بلادي بمثـــل ما أوحت اليك سورية : وان كنت اشك في ذلك : وكأنما أثارها هذا التحدي ، فقــالت اسمع هذا :

يا بني السودان انتمُ سعداءُ
ارضكم جنة رعتهـــا السماء
شاع فيكم حب الغريب فما استو
حش في حيكم هنـــا غرباء
انتم القائلون — اهلاً وسهلاً —
عن يقين ، وغيركم أدعيــاء
أنبت الحسن في منازلكم دراً
تبـــارى في عطره الشعراء
ما رأينا في الورد سمراء من قبل
م فلله هـــذه السمراء

وتطلعت تسألني عن رأيي في هذه الأبيات ، فقلت : اصدقك القول ؟ انها أقل بكثير من شعرك في سورية حرارة وقوة ، ولكنها تعبر عن شعور جميــل نحو بلادنا — قالت : اسمع هذه فقد ترضيك :

فارقت اهـــلي كلهم وصحابي
وتركت مهـد طفولتي وشبابي
وبعدت عن وطني ولي من بعده
ومن اشتياقي للأحبة مـــا بي
ولقد وردت النيل عذباً سائغاً
للشاربين ، فكان خيرِ شراب

ووجدت في أهليه أهلاً خاصاً
لا يبخلون بخالص الترحاب
يسخون كالنيل السخي بطبعهم
للأقربين لهم وللأغراب
وهم الوداعة والهدوء كنيلهم
الا على الباغي او المتغابي

بعد ان فرغت من اسماعي هذه القصيدة ، نظرت اليّ لترى وقعها في نفسي وهي تبتسم – قلت اوشكت ان تعودي فيها الى افقك ، ولكنك ما زلت دونه .. وضحكت وقالت : ألا تريد ان تعترف بان شعري في بلادكم في مثل مستوى شعري من سورية ؟ قلت نعم ، ولن ينتقصك هذا شيئاً ، فان دوافع شعرك عن موطنك وانت بعيدة عنه وفيه اجمل ذكريات حياتك لا بد ان توحي اليك بمثل هذا الشعر الحي الذي نسمعه الآن ..

وران الصمت بيننا برهة ، لعلها عادت الى ذكرياتها ، اما انا فقد اوحت إلي نادية بان اذكر في تلك اللحظات فتاة عربية غيبها الثرى من قرون ، بنت خليفة ، وأخت خليفة ، ولست ادري لِمَ قفزت الى ذهني في هذه اللحظات دون غيرها من الشاعرات العربيات ، ولعلي وان لم ارها – احس الآن بان جواً شاعرياً يجمع بينهما .. وأعني عليه بنت الخليفة المهدي وأخت الخليفة هارون الرشيد :

ولكن عليه لم يكن شعرها حنيناً وشوقاً الى موطن هاجرت منه وابتعدت ، وانما الى حبيب على مقربة منها جعلته الفوارق والتقاليد ابعد منالاً من الثريا .. فان زارته عجلى كانت كأنما تمشي على حتف الى حتف ، ذلكم هو (طل) غلام الرشيد الذي روت كتب السير ان عليه علقت به فقالت :

قد كان ما كلفته زمناً
(أيا طل) من وجد بكم يكفي

حتى أتيتك زائراً عجلاً
امشي على حتف الى حتف

وبلغت الأبيات اخوها هرون الرشيد، فاستدعاها وألح في سؤالها ، فقالت (لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط ، ولا اقول في شعري الا عبثاً) فحلف عليها الا تكلم طلاً ولا تذكر اسمه على لسانها .. ويروون انها كانت تقرأ في سورة البقرة وكان هرون الرشيد يصغي اليها ، فلما بلغت الآية (فان لم يصبها وابل فطل قرأتها هكذا : (فان لم يصبها وابل فالذي نهانا عنه امير المؤمنين)!

ولكن الشوق الى طل يلح عليها ، فتتحايل على ذكره في شعرها بمثل ما فعلت في هذين البيتين :

أيا سروة البستان طال تشوقي
فهل لي الى (ظل) اليك سبيل ؟
متى يلتقي من ليس يقضي خروجه
وليس لمن يهوى اليه دخول ؟

ولعلية اخوان هما ابراهيم ويعقوب اشتهر ثلاثتهم باجادة فن الغناء ، وكان ابراهيم بن المهدي اشهرهم حظاً في هذا المجال، وكثيراً ما يجتمع الثلاثة مع خاصة من خواصهم يغنون ويوقعون على المزمار . .

سئلت (عريب) المغنية عن احسن مجلس رأته فاجابت (ذاك يوم شهدت عليه بنت المهدي مع اخويها ابراهيم ويعقوب ، فبدأت علية فغنتهم من شعرها وصنعتها واخوها يعقوب يزمر :

تحبب فان الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصر فان خبرت ان اخا هوى
نجا سالما فارجُ النجاة من الحب

وغنى ابراهيم بن المهدي في صنعته على زمر يعقوب :

يا واحد الحب مالي منك اذ كلفت
نفسي بحبك الا الهم والحزن
ولا خلا منك قلبي ، لا ولا جسدي
كلي بكلك مشغول ومرتهن

فما سمعت مثل ما سمعته منها قط ، واعلم اني لا اسمع مثله ابداً !.

وكم احب ان نقف ملياً عند هـــذه الصورة الرائعة لهذه الاسرة الكريمة تهديها الينا عريب على بعد المدى ، واي قيم انسانية رفيعة تتراءى لنا من خلال هذه الصورة ..

ان شعر عليه يتغنى به حتى يبلغ مسامع الرشيد ، ولكنه لا يثور عليها الا بادىء بدء ثم يطيب له غناؤها فيستمع اليها ويدعوها غير ما مرة لتغنيه ، وقيل انه لما سمعها اول مرة ، طرب وقال لها « هذا عندك ولا اعلم به » ؟

وانتبهت الى نفسي ، لاجد نادية ما زلت بدورها تعيش في عالمها ، وهتفت بها نادية !... والتفتت اليَّ مذعورة ، قلت : اين كنت ؟ قالت ضاحكة : في دمشق : وانت ؟ .. قلت : كنت مع شاعرة عربية ذكرني شعرك بهـا ، علية بنت المهدي ، اتذكرينها ؟ : قالت بلى ، وكم احبها .. قلت عودي بنا اذن الى شعرك ، ماذا تسمعيني ؟.. قالت : كنت الآن انظر بعين الخيال الى موطني على البعد يتواثب على حكمه ثلة بعد ثلة ، بعد ان تراق الدمـاء ، وتمتلىء السجون ، ولا ادري الى متى ؟.. لقد هزتني هذه الاحداث التي تجري في وطني فقلت :

تذكرت والذكرى تفيض جراحها
دمـــا فجرته سوريا وبطاحها
واوحشتي والعين تابى رقادها
غدو خيالات الهوى ورواحها
ابيت اناجي النفس والليل صامت
كواكبه ملقى عليها وشاحها
وظلمـاء اعياني ترقب فجرها
وأيأس من ان يستفيق صباحها
اسامرها والهم ملء حشاشتي
لهـا الله مقدور عليها التياحها
يكاد دجاها يسلب العين نورها
وتوشك تجتث الجبال رياحها
الام أجيل الرأي ألتمس امرءاً
تطيب به نفس اليه ارتياحها
اقلب طرفي في الرجال فلا أرى
شمائل لا بنعى علي امتداحها
ولم اطرح خلفي دمشق لريبة
علقت بها ، اورف فوقي جناحها
ولم أرَ قبل العرب في الناس امة
سواء عليها خسرها ورباحها
ترجى وفاقاً والشقاق حليفها
وكيف يرجى في الشقاق فلاحها؟
لقد اوجس القلب المعذب خيفة
واقلقه مكنونها وصراحها
وباتت تناجيني وساوس اطلقت
أعنتها الايام ، صعب جماحها

ولولا الحياء لكدت أهتف بها ، هذا الشعر كثير عليك يا نادية .. انـه شعر فحل قل ان يقول مثله الرجال فكيف بالنساء !؟ – وعدت اطالعـه مرة ومرة ولم تعد نادية امامي امرأة رقيقة ، وانما شيء اكبر من امرأة – وان من البيان لسحرا .

وسألتها ، ألم توح اليك احداث الحياة من حولك بشيء من الشعر ؟ قـالت نعم ، عندما اعلن عن اول محاولة روسية لاجتيـاز الفضـاء والوصول للقمر فأنشدت في هذا :

غزوت السماء كسهم عبر
وجبت الفضاء لتقضي وطر
مضيت جريئاً الى رحلة
تفزع منها فؤاد القدر
فاما بلغت الى ما تريد
واما عثرت كحظ عثر
فيا زورق الارض في لجة
على شاطئيها يزوغ البصر
تحدث الينا فهل من جديد
وهل من دليل؟ وهل من خبر؟
وهل من سبيل لسكنى النجوم
وكيف يكون اليها السفر ؟
وهل في الكواكب بيض وسود؟
وهل في الكواكب خير وشر ؟
وهل في الكواكب حرب تدور
وفيها قلوب قست كالحجر
وهل في الكواكب مستعمرون
لهم فزع في القلوب انتشر ؟

بربك سر في مسار النجوم
وحدث عن الأرض اهل القمر
وعد بالامان الى الخائفين
وعد بالسلام لكل البشر

قلت لها ونحن نفترق — ان رحلتي الى بلادكم الجميلة اهدتني الواناً من الثقافة الروحية والذهنية والجمالية وحسبت ان زادي ليس له من مزيد بعد ان فارقتها لكني اجد المزيد اليوم في شعرك الجميل ، وفي احاديثك العذبة ، لتؤكدين لي ان بلادكم كالكرم المتعدد الثمار .

وامتلأ وجهها بابتسامة مشرقة ، وبرقت عينـاها وامتدت يدها تودعني ، وخرجت لتعيش في ذهني مع اروع ذكرياتي في هذه الرحلات .





مسطورات
MUSTORAT
MUSTORAT
مسطورات

الفهرس

صفحة